أرض المؤامرات السعيدة

وجدي الأهدل



نوفل

أرض
المؤامرات
السعيدة

وجدي الأهدل

نوفل

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **© LE PICTORIUM / Alamy Stock Photo**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **Chemaly & Chemaly**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-069-7
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-070-3

الإهداء

إلى الإنسان النادر الوجود في زماننا
أحمد ناجي أحمد النبهاني

الثلاثاء (64)

كم أتذكّر بوضوح تلك اللحظات المجنونة التي مرّت على غفلة منّي، فشطرت حياتي إلى نصفين، وبدأ منها عالمي المعهود المستقرّ يمرّ بتحوّلات جارفة، تفوق قدرة أيّ كائن بشري على التحمّل!

في ظهيرة يوم ثلاثاء صيفي حارّ، تنحني فيه الرؤوس تجنّباً للغبار، استدعاني رئيس التحرير رياض الكيّاد إلى مكتبه، وكلّفني بالذهاب إلى محافظة الحُديدة الساحلية، للتأكّد من صحّة حادثة يُقال إنّها وقعت أمس في أحد أودية تهامة النائية.

رئيس التحرير الذي تختبئ نظراته المُلتبسة خلف العدسات السميكة لنظّارته الطبّية، تكلّم باقتضاب شديد عن المهمّة التي كلفني بها، ثمّ مدّ يده إليّ وناولني خمس رزم ماليّة، كلّها من فئة الخمسمئة ريال، وطلب منّي الاستعداد للسفر فجر اليوم الثاني.

لم يكن التحقيق الصحافي الذي ينتظرني هو ما شغل بالي في تلك الدقيقة التي لا تُنسى، بل تخيّل مكابدتي للحرارة الجهنّميّة في تلك الأودية، واحتمال أن أصاب بالملاريا إذا ما اضطررت إلى المبيت هناك. عدتُ إلى بيتي مطمئنّاً وواثقاً من أنّه لا شيء يمكنه، مهما بلغت قوّته، التشويش على مسار حياتي أو خلخلتها.

فتحتُ الباب فهرع أطفالي الثلاثة لملاقاتي. عانقتهم واحداً واحداً، ثمّ اتجهت إلى المطبخ تجذبني رائحة زكيّة، وصوت نشيش الزيت الأحلى من تغريد البلابل! رأيتُ زوجتي مشغولة بتحضير الغداء. تلاقت عيوننا بلهفة، وفي لحظة كان كلّ واحد منّا يُطوّق الآخر ويُقبّله.

خلعتُ ملابسي في غرفة النوم، ورميت رزم النقود في أسفل الدولاب قرب جواربي المتّسخة. سخرتُ من نفسي لأنّني لم أتعوّد بعد على حبّ ورق البنكنوت ومعاملته باحترام.

لاحظتُ وأنا أغتسل في الحمّام، أنّ دمّلة صغيرة قد نمت فوق قصبة أنفي. بدت حمراء صغيرة وتطلّ ببلاهة على تضاريس جسدي العاري. تحسّستها بإصبعي الوسطى، وخمّنت ما تضمره لي... إنّها تنوي، عندما أنزل من الجبال إلى تهامة، أن تنتفخ وتمتلئ بالقيح والصديد مستغلّةً المناخ المُؤاتي، حيث تُحلّق درجات الحرارة فوق الأربعين مئوية، والهواء رطب يفتح مسامّ الجلد. نظرتُ إليها في مرآة الحمام، وتوعّدتها بأنّها إذا فعلت ذلك، فسوف أخزها بالإبرة، وأُطهّرها بمُطَهّر. فجأة أدركت المفارقة التي وقعت فيها، وضحكت من نفسي، لأنّ اسمي «مُطَهَّر» والدمّلة بعد جرحها وتطهيرها ستصبح «مُطَهَّرة». آه يا لنا من زوجين رائعين! تساءلت وأنا أُسرّح شعري عن السبب الذي دعا أهلي إلى تسميتي بهذا الاسم المُريب «مُطَهَّر»... من طهّرني؟ ومتى؟ أم ذلك شيء لم يحدث بعد؟؟ كلّا، لا أريد أن أُعامل كدمّلة ويخزني أحدهم بإبرته! خرجتُ من الحمّام وأنا أشعر بالضيق من الاحتمالات التي يطرحها اسمي.

جهّزت زوجتي مائدة الغداء بعشرة أصناف، وفي الوسط استلقت سمكة «ديرك» كبيرة. أدركتُ على الفور أنّها قد خرجت في الصباح إلى السوق، وأنفقت كعادتها مبالغ كبيرة لشراء لحوم وخضار

وفاكهة تفيض عن حاجتنا، ويذهب معظمها إلى برميل القمامة. أنا لست بخيلاً، لكنّ نفسي لا ترتاح لهذا الإسراف في تكديس الطعام على مائدتنا، ينتابني شيء من تأنيب الضمير.

تزوّجت حوريّة قبل خمس سنوات، بعد قصّة حبّ تردّدت أصداؤها في جنبات الكليّة. وفي السنة الأولى من زواجنا غرقت في الديون، بسبب ميلها الذي لا يُقاوم لإنفاق المال على الفساتين والنزهات والأكل في المطاعم الفاخرة. بذلت معها غاية الجهد لتُبدّل من سلوكها هذا، ولكن في نهاية الأمر هي التي بدّلتني تبديلاً!

أثناء الأكل لاحظتُ أنّ هايل، ولدي البكر، البالغ من العمر أربع سنوات، كان يهمس في أذن أخته نجاة وهو يضحك. كان مزاجي مُعتكراً، فعبست في وجهه وسألته «ما الأمر؟». فأشار إلى أنفي وقال: «حبّة... قرصتك النملة». ثمّ انفرطت ضحكاته بدون حساب. شعرت بالقلق، وتساءلت في نفسي إن كان هذا الطفل الذي هو حمار تقريباً يستطيع ملاحظة تلك الدملة بسهولة، فكيف ستكون الحال مع الآخرين؟ هل سيلاحظونها؟ وإن لاحظوها فهل ستثير ضحكاتهم؟ اللعنة! لم يكن ينقصني ليكتمل شقائي سوى انتفاخ مضحك يُشوّه وجهي.

بعد الغداء، التقطتُ رواية ألمانيّة، «آل بودنبروك» لتوماس مان، وتمدّدت على السرير. كنت متأكّداً من أنّه لا شيء سيأخذني إلى قيلولة بالضربة القاضية سوى كاتب ألماني أصيل!

بين النوم واليقظة، شعرت بأحدهم يشدّ ما بين فخذيّ. لوهلة شككت في أنّ الكاتب الألماني هو الذي يفعل ذلك، ربّما لكي أتابع قراءة روايته العتيدة. وحين شعرت باليد تنتقل إلى منطقة مجاورة، قلت في نفسي فلأنهض وأفتح عينيّ قبل أن ينتزع ذلك الكاتب الألماني الوقح خصيتيّ! قشّرتُ غفوتي اللذيذة ونظرت، فإذا هي

زوجتي تشاطرني السرير كما خلقها ربّي... آه تلك السمكة لم تكن لوجه الله! وكأيّ فحل ينحدر من قبيلة عربيّة عريقة الحسب والنسب قمت بالواجب وزيادة.

سهرت ليلًا لمتابعة مباراة ألمانيا في كأس العالم. زوجتي حوريّة التي كانت تتصنّع أمامي أنّها تشجع الفريق الألماني، خوفاً من الطلاق، تجرّأتْ وسألتني لماذا أناصر الألمان وكأنّ خالتي متزوّجة بمستشارهم، فأجبتها في الاستراحة بين الشوطين أنّ الألمان هم سادة أوروبا، ونحن، المنحدرين من أصلاب شيوخ القبائل، نعتبر أنفسنا سادة البلاد، أي إنّه يجمعنا الانتماء الطبقي ذاته! سألتني، وخدّاها يتضرّجان بالحمرة، عن البرازيل – يبدو أنّها تشجّع هذا الفريق في السرّ – فقلت لها إنّ البرازيليّين هم أولاد شوارع غير متحضّرين، وأنا لا أُشجّع الرعاع!

انتهت المباراة بهزيمة ألمانيا وخروجها من كأس العالم. ذهبت للنوم متظاهراً بأنّني غير متأثر بهزيمة أسياد العالم، تهالكت على السرير وغطّيت رأسي باللحاف، جافاني النوم ساعة أو ساعتين وأنا أبكي مقهوراً، ودموعي تسيل دون توقف.

الأربعاء (63)

بعد نوم متقطّع يعجّ بالكوابيس، استيقظت فجراً وجهّزت حقيبتي بسرعة. شغلتُ كمبيوتري المحمول، تفقدت بريدي الإلكتروني ولم أفتح أيّ رسالة، مررت على مصحّة الأمراض النفسيّة والعقليّة المعروفة تأدّباً باسم الفايسبوك، ووزّعت الإعجابات كشخص يرفع يده بالتحيّة وهو يركض. نظرت إلى الساعة المضطجعة على الكومدينو، ولعنت عقرب الدقائق الذي كان يجري وكأنّ أحدهم يلاحقه بسكين. طبّقتُ كمبيوتري المحمول وألبسته حلّته السوداء، ثمّ دسسته في الحقيبة وسط ثيابي.

سخنت زوجتي الإفطار، ولكنّني قلت لها إنّني لن أفطر في البيت. هايل ونجاة كانا نائمين، وحدها آخر العنقود كرامة الحلوة ذات السنتين كانت قد فتحت عينيها وجاءت تبحث عنّي.

لم يسبق لي أبداً أن سافرت يوم أربعاء، إنّه يوم نحس، والقبائل تتجنّب الحرب فيه خوفاً من الهزيمة. احتضنت زوجتي و(كرامتي) الصغيرة، ثمّ ودّعتهما ومضيت إلى وجهتي. كان سيف الحزن يُثخن قلبي، لكنّي أقنعت نفسي بأنّ سبب تكدّري يعود إلى خروج ألمانيا من كأس العالم ولا علاقة له بسفري.

مع كلّ خطوة وأنا أنزل الدرج كان يسيطر عليّ شعور غريب.. شعور بأنّني عشت هذه اللحظة الحاضرة بكلّ تفاصيلها في الماضي... أين ومتى؟ لا أدري... اقشعرّ بدني وأحسست بالرهبة والانقباض، خارت قواي، وسحبتُ شهقة طويلة.

خرجتُ إلى الشارع وأوقفتُ سيّارة أجرة، وعندما انطلقنا انتابني شعورٌ بألم غامض، ثقيل ومفزع، مظلم وسردابي... أقرب وصف له أنّه يشبه شعور جدّنا آدم حين فارق بيته في الجنّة.

توقفنا عند كشك مفتوح، واشتريت الصحف التي صدرت صباح اليوم. من شدّة قلقي لم أطق تصفّحها، فسألني السائق والفضول يقفز من عينيه: «ماذا قالوا في الجريدة؟». كنت على وشك قذفها من النافذة، ولكنّني تمالكتُ أعصابي وخاطبته بلهجة متعالية: «يقولون إنّ على سيّدنا آدم أن يعيد التفاحة التي سرقها». انبهر السائق بجوابي، وظهر ذلك في لمعة عينيه وبروز شفتيه... قال جواباً لم يخطر لي على بال: «أفهمك.. أنت تقصده.. ليته يفعل.. الشعب اليمني طيّب وسيسامحه». نقدته أجرته وأنا أحمد الله أنّه غير متعلّم، وإلّا لكان زبوناً مرجوّاً لكازينوهات المعارضة.

أكره الحافلات، لأنّ رائحة القيء تُشمُّ من مسافة بعيدة، وأيّ شخص يفكّر بركوبها سيكون مفروضاً عليه، كجزء من برنامج الرحلة، أن يتقيّأ. وبما أنّني لم أفطر، ومعدتي خاوية ليس فيها ما أتقيّأه، فإنّهم لن يسمحوا لي بركوب حافلاتهم الكريهة المعدّة خصّيصاً لحفلات القيء الجماعيّة.

ركبت سيّارة نقل صغيرة بيجو (Peugeot) وأخذت المقعد الأمامي الذي يتّسع لشخصين، ودفعت حسابه كاملاً وحدي، كي أنعم بالراحة وأمدّد أطرافي كيفما أشاء، لأنّني لا أطيق التزاحم والالتصاق بأجساد الآخرين. امتلأت «البيجو» بالركّاب، وراحت تزحف ببطء

صوب الإسفلت. كنت أبدو واحداً من عليّة القوم، مقارنة برفاق السفر المحشورين في الخلف كقطيع من الماشية. نعم، إنّ المال هو الذي يحفظ للإنسان إنسانيّته. لكنّني، على الرغم من محاولاتي المستميتة للتخلص من عُقد الماضي، ومن التربية التي لُقّنتُها في صغري، فإنّني ما زلت أستحي أن يراني أحد رفاق والدي اليساريين وأنا أتمتّع بجلسة ملوكيّة، وأتصرّف كبرجوازي مُعتَّق.

تنفّست الصعداء حينما ضغط السائق الأقرع على دوّاسة البنزين وطار مبتعداً عن الفرزة[1].

في منتصف الطريق توقفنا في مَناخَة وتفرّق الركاب كلٌّ في اتّجاه. بعضهم ذهب لقضاء حاجته، والبعض الآخر للشراء من الحوانيت الصغيرة.

قصدت أنا مطعماً معروفاً يُقدّم كبداً طازجاً مأخوذاً للتوّ من ذبائح الصباح، وحين قُدّم لي الصحن والبخار يتصاعد منه، فوجئت بأنّني قد فقدت حاسّة الشمّ! تمالكتُ نفسي ولم أظهر أيّ اضطراب يُذكر، أجهزت على قطع الكبد كما يليق بشخص جائع، وكيف لا وقد كان طعمها في فمي لذيذاً للغاية. يبدو أنّ فقدان حاسّة الشمّ لن يحرمني من التمتّع بطيّبات الحياة. كانت تحدث لي هذه الحالة في صباي، عندما كنت أتسلّل إلى مزبلة الحيّ وأنقّب في براميل القمامة وآكل منها... كان أنفي يتواطأ معي، ويتوقف تلقائياً عن الشمّ، فلا تعود تضايقني روائح القمامة الكريهة، ولا أبالي إن كان الطعام الذي أزدرده صالحاً للأكل أم عفناً. دخل أبي المعتقل عدّة مرّات، وكان إذا أُفرج عنه لا يلبث إلّا قليلاً حتى يعود إليه، لأنّه لم يتب أبداً عن العمل السرّي، ولم يأبه مطلقاً بأيّ طريقة ستدبّر عائلته طعامها في

[1] موقف السيّارات باللهجة اليمنيّة.

غيابه. ما كان يشغل باله، هو أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه، وأن يغدو بطلاً في نظر حزبه ورفاقه. ولقد نال مبتغاه، هذا الأب الأناني، ولكن على حسابنا أنا وإخوتي الستّة، نال المجد على حساب فقرنا وعرينا ومعاناة شظف العيش، أمّا أمّي فأقسم أنّها ماتت كمداً بسببه ولم تتكلم.

قمتُ ودفعتُ الحساب، ثمّ قصدت حوانيت بيع القات الواطئة السقوف، الضيّقة كالتوابيت. اشتريتُ ربطة قات أوراقها حمراء كاللهب، قرّبتها من أنفي لأشمّ شذاها العطِر، لكنّ أنفي لم يستجب. قلت في نفسي متهكّماً إنّ أنفي الذي ينتمي إلى الحقبة السوفييتية يعمل الآن بطريقة معكوسة، ويبدي رأيه دون مجاملة في الطريق الذي اخترته لحياتي.

وقفتُ قبالة السفوح الغربية التي سنهبط إليها بعد قليل. كانت السحب الرماديّة المشبعة ببخار الماء تصعد من أعماق سحيقة وتتسلّق المرتفعات. إنّها تجري وتعبرني وتتابع صعودها إلى السماء، شعرت بنفسي فرحاً خفيفاً كأنّني قادر على الطيران. تجمّع الركّاب ثانية، وغادرنا مناخة التي تبدو كبيضة نسر تحتمي في كنف جبال شاهقة وعرة المسالك.

عندما هبطنا إلى الأودية الضيّقة الملتوية، حيث يبدو الشريط الإسفلتي وكأنّه يتّخذ مساراً حلزونياً، تقيّأت امرأة عجوز، واستغربت أنّ أنفي – لا جزاه الله خيراً – قد عاود العمل وشمّمني تلك الرائحة المقيتة. خطرت ببالي الدمّلة التي نمَت على أنفي أمس، وشككت أنّ لها علاقة باضطرابات حاسّة الشم عندي، نظرتُ في المرآة الجانبية، ودققتُ النظر، فتأكّدت من أنّه لا أثر لها.

راحت عيناي تتدحرجان على قسمات وجهي... لقد ورثت عن أمّي الفلّاحة بشرة بلون تراب الحقول، ومسحة نورانيّة توحي

بالسكينة وسموّ النفس. ومن أبي ورثت ملامح الوجه النبيل الدالّ على عراقة الأصل: الجبين الواسع المستوي، الذقن البارزة، الفك السفلي العريض، الشعر الخفيف الفاحم السواد للحاجبين والشاربين، وعينان دعجاوان تفتتن بهما النساء ويوسم صاحبهما بالشجاعة.

في أحد المنحنيات تعرّضنا لحادث، حافلتان كانتا تتسابقان سدّتا الطريق، فاضطرّ السائق إلى الابتعاد عن طريقهما والارتطام بالسياج الحديدي... كنّا على وشك السقوط إلى قعر الوادي والتعرّض للموت لا محالة. أصيب البعض منّا برضوض خفيفة، ونزف دم قليل من رأس السائق. وأمّا أنا فأصيبت سبّابتي اليمنى بالتواء، وأخذت ترسل ذبذبات الألم إلى سائر جسدي، وكأنّها تعرّضت للبتر.

لم يكن لديّ وقت أُضيّعه، سحبت حقيبتي وابتعدت مسافة حتى اختفيت عن أنظار السائق وبقيّة الركاب، ووقفت منتظراً قدوم سيّارة أخرى تُقلّني. شعرت بالندم لأنّني لم أُقدم على خطوة شراء سيّارة خاصّة بي، كانت ستفيدني في إنجاز مهمّاتي الصحافيّة في أسرع وقت ممكن. اعتبارات غبيّة ووهميّة منعتني من اقتناء سيّارة رشيقة من أحدث الموديلات. كنت أخشى من القيل والقال، وأن أُتّهم بأنّني بدّلتُ جلدي. حساسيّتي المفرطة من أن تظهر آثار النعمة عليّ لا معنى لها، والدي الشيوعي المُتزمّت تُوفّي، والمجتمع تغيّرت أفكاره كثيراً، ولم يعد أحد يبالي إن كنت في المعارضة أو في السلطة. في الماضي كان أيّ شخص يريد أن يظهر بمظهر البطل يذهب إلى المعارضة، وكان المجتمع يتواطأ معه ويحوّله إلى نجم... أمّا اليوم، فإنّ المجتمع قد ملّ من هذه اللعبة السمجة، وأصبحت هناك قناعة عامّة يردّدها الجميع مفادها: «اِلحق نفسك واعثر على موطئ قدم لك في السلطة». لقد نضج المجتمع، والبطولة تتغيّر من عصر لآخر، لذا أنا بطل بمقاييس هذا العصر.

لفت نظري في الأسفل مسجد صغير، أصغر مسجد وقعت عليه عيناي، بالكاد يتّسع للإمام وصفّ واحد من المصلّين خلفه. أعجبتني قبّته وصومعته المتواضعتان، وجدرانه المطليّة بالنورة البيضاء، وأشجار الموز الخضراء الملتفّة حوله، وماء الوادي المتلامع كالألماس المترقرق تحته. لا أدري من أين انبعثت لديّ رغبة مفاجئة في النزول إلى هناك، مع أنّي علماني لا أُصلّي. سخرت في نفسي من هذه الرغبة، وفكّرت أنّ المظهر الأثري للمسجد هو ما جذبني إليه.

أشرتُ لسيّارة ربع نقل «تويوتا هايلوكس» فتوقفتُ، كانت المقاعد كلها مشغولة، فاضطررت إلى الجلوس في الصندوق الخلفي، وسط أقفاص الدجاج وجوالق القات، ومع سبعة أشخاص من مختلف الأعمار، كانوا جميعهم دائخين وصامتين بسبب حرارة الجوّ الخانقة، وتسلّط وهج الشمس على أدمغتهم. تابعنا الهبوط ساهمين، بنظراتٍ مُتحجِّرة، وكلّ واحد غارق في محاسبة نفسه، كأنّنا حفنة من المذنبين تقرّر إرسالهم إلى الجحيم.

عندما عبرنا باب الناقة رأينا أخيراً السهل التهامي المنبسط الذي لا يحدّه البصر ويمتدّ حتى آخر الأفق. استقبلتنا الرائحة المتميّزة لأشجار السيسبان التي افترشتْ أجزاءً واسعة من الأديم. كان الجوّ مُغلفاً بالغبار وبضباب خفيف، والهواء ساخناً لزجاً من شدّة الحرارة، وكلّ شيء يبدو كأنّه في طريقه للذوبان.

نزلت في مدينة باجل أمام صيدليّة مفتوحة، اشتريت منها دواءً للوقاية من الملاريا، ومشدّاً طبّياً ليدي. قرب الصيدليّة رأيت مطعماً مزدحماً، خمّنت أنّه يُقدّم وجبات جيّدة. دخلت وطلبت وجبة دجاج مقليّ، أكلت بسرعة وأنا غارق في بحيرة من العرق، وعيناي تحرقانني من ملوحة العرق الذي انصبّ عليهما من جبيني. حينذاك فهمت لماذا خلق الله حاجبين كثيفين لبعض الناس!

استخدمت يدي اليسرى في الأكل، لأنّ سبّابة يدي اليُمنى تورّمت وأصبحت تتأذّى من أقلّ لمسة. تساءلت في نفسي كيف سأكتب تقريري الصحافي ويدي معطوبة؟! أفلتت منّي «أُف» ممطوطة، وسيطر عليّ شعور بالتشاؤم من المهمّة برمّتها.

تمكّنتُ بمساعدة مدير المطعم من الحصول على سيّارة أجرة مكيّفة، فتابعت طريقي وشرعت في مضغ القات. وصلت إلى مدينة الحُدَيدة الساعة الواحدة والنصف ظهراً. أجريت اتّصالاً مع زوجتي لتطمئنّ. غيّرتُ السيّارة، واتّجهت إلى قرية باب المنجل التي ذكر السائق أنّه يستطيع أن يوصلني إليها في غضون أربع ساعات. كنت حريصاً على الوصول قبل مغيب الشمس، لأنّني أودّ تكوين فكرة عن القرية ومعالمها في ضوء النهار، وربّما إذا سمح الوقت فسألتقط بعض الصور. لكنّ الأمور لا تسير كما نخطّط لها.

بعد انتهاء الخط الإسفلتي، انتقلنا إلى طريق ترابي، وفي نقطة منه انغرزت عجلات السيّارة في الرمل. حاولنا دفعها للخروج ولكنّنا لم نفلح. اعتذر السائق الأسمر البدين عمّا حدث – المشكلة أنّني قد دفعت له أجرته مقدّماً – ووعدني بأنّه سيتصرّف. جلستُ على حقيبتي وأنا ألوك خيبتي. استبدل السائق شريطاً بآخر للفنّان نفسه – فيصل علوي – وراح يُسلّي نفسه بالرقص.

انقضت ساعتان ولم تمرّ لسوء حظي أيّ سيّارة، مرّت العديد من الدرّاجات الناريّة، ولكنّني رفضت ركوب أيّ منها، فلست مستعدّاً للمجازفة بتعرّضي لحادث آخر. وعندما دنت الشمس من المغيب يئست، وقبلت بوسيلة النقل الأخيرة المتاحة... دفع السائق ذو الكرش للولد صاحب الحمار مبلغاً من المال لم أتبيّن مقداره، ركبت على الحمار، وحمل الولد حقيبتي فوق رأسه ثمّ انطلقنا. ودّعنا

السائق الذي قال إنّه سينام بداخل سيّارته. تركناه وهو لا يزال يستمع إلى أغاني فيصل علوي بنشوة واستغراق المنفصل عن العالم.

بعد ساعة أو أكثر لاحت من بعيد أضواء صفراء وبيضاء، كان الحمار يسعى مسرعاً عارفاً بالطريق ولا يحتاج إلى من يقوده، وخلفنا كان الولد – عمره أربعة عشر عاماً – يلهث وهو يحاول اللحاق بنا. تطلعت إلى السماء وذهلت... ملايين من النجوم التي خطفْت بصري وانتزعت منّي صرخة المفاجأة. لأوّل مرّة في عمري أرى هذا المشهد السماوي المهيب. انبهرت وشعرت بالأسى، لأنّنا نحن أبناء المدن مكتوب علينا أن نعيش تحت سماوات فقيرة بالنجوم. صراصير الليل كانت تصدر صريراً عارماً وثقيلاً على الأسماع، كفرقة موسيقيّة مهووسة بإصدار صوت وحيد وأبدي: *صصصصصصصصص*.

حين وصلنا أخيراً إلى قرية باب المنجل هبّت الكلاب الضارية للترحيب بنا بنباحٍ يصمّ الآذان، لكنّ حماري الباسل الذي بدا لي في تلك اللحظة يحمل رتبة عقيد، واصل طريقه غير عابئ بها. طلبت من الولد أن يوصلني إلى بيت رئيس المجلس المحلي. قال الولد: «جابر شنيني؟» قلت له: «هو». ولمّا طرقنا الباب، برز لنا كهل بشوش، قصير القامة، متين البنيان وجسمه مشدود، بشرته غامقة، وشعر رأسه أبيض كالقطن المنفوش. رحّب بي وطلب منّي الدخول. نزلت من فوق الحمار وأنا أشعر بآلام فظيعة في مقعدتي. كافأتُ الولد بمبلغ إضافي وصرفته.

تنازع أولاد الكهل السبعة أو الثمانية حقيبتي، أراد كلّ واحد منهم أن يستأثر بحملها، فانفتحت مع الشدّ والجذب وتبعثرت محتوياتها على الأرض. توقفوا جميعهم عن الصخب وخرسوا متجمّدين في أماكنهم للحظة واحدة، ثمّ فرّوا متدافعين إلى داخل البيت كالجديان وهم يقهقهون بسعادة يُحسدون عليها. جمع جابر

شنيني أغراضي بعدما أشبعهم شتماً، ثمّ ناول الحقيبة لزوجته الحبلى التي كانت تسترق النظر إلينا بخفر من وراء الباب.

اهتممتُ أنا بأخذ الكاميرا والمسجّلة، ولوح شوكولاتة دسسته بسرعة في جيبي. طلبتُ من جابر شنيني أن نذهب فوراً إلى بيت الطفلة جليلة التي يزعم جدّها أنّها تعرّضت للاغتصاب. استأذن للحظات، ثمّ عاد وقد غطى رأسه بكوفية خيزران، وفي يده عصا غليظة ليتوكّأ عليها، وفي اليد الأخرى مصباح يدوي.

في الطريق سألته: «إلى أين وصل الموضوع؟». ردّ وأنفاسه تتلاحق: «هه الموضوع.. آه.. البنت جليلة عرضوها على طبيبة روشيّة في نفش يوم المشكلة، وأمش رفعت الروشيّة تقريرها إلى الشرطة». قلت: «وماذا كانت النتيجة؟». قال: «لا ندري.. لأنّ الدكتورة تاتيانا كتبت التقرير باللغة الروشية، فأرسلته الشرطة إلى مكتب ترجمة معتمد في الحديدة». لاحظت أنّه يعاني من عيب في نطق حرف السين، وأنّه يُحوّل كلّ السينات التي ترد في سياق كلامه إلى شينات، فخفتُ على نفسي أن يُعديني بشنشنته المُربكة. قلت وأنا أضغط على لساني لكيلا أخطئ: «ومتى ستصل الترجمة العربيّة للتقرير؟». قال: «غداً الخميش.. وشيُقرأ في حضور جميع الغرماء». سكتنا، وقلت في نفسي إنّني وصلت في التوقيت المناسب.

انفجر جابر شنيني بالضحك. سألته ما الذي يُضحكه؟ فقال: «المشكلة أنّ شيخنا بكري حشن معه مصيبة الله... طويييل!». ثمّ مدَّ ذراعه وأمسكها من المرفق وراح يضحك ويسعل حتّى اختلط ضحكه بسعاله، ولم أعد أعرف على أيّهما استقرّ، ثمّ أدخل أصبعه في فمه وأخرج تكويرة رماها بعيداً. أدركت متأخّراً سبب شنشنته، فقد كانت شفته السفلى محشوّة بالشمّة السوداء «تنباك مطحون». قلتُ وقد زويتُ حاجبيّ: «انتبه لكلامك يا جابر.. الشيخ بكري أنكر

التهمة، وقال إنّ الفاعل هو شخص آخر، وإنّهم استغلّوا الحادثة لابتزازه». قال: «أنا لا أقول هذا الكلام إلّا لك وحدك، لأنّك صحافي موثوق به من طرف الدولة». احمرّ وجهي وشعرت كأنّ أحدهم قد عرّاني من ملابسي. تابعنا سيرنا بصمت متوتّر في أزقّة ضيّقة ملتوية.

وصلنا إلى بيت متواضع تفوح منه رائحة القِدم، بابه موارب، ويتسرّب منه ضوء أصفر باهت وضوضاء أطفال يلعبون بالكرة. دفع جابر شنيني بعصاه الباب الخشبي المُغلّق المُخلخل، وصاح منادياً: «يا حاج هادي». وقفنا في باحة البيت. ترك الأطفال اللعب بالكرة وركّزوا أنظارهم عليّ، لعلّه لم يكن من المألوف في هذه القرية أن يظهر أحد ما بالقميص والبنطلون.

ظهر في باب الديوان رجل شيبة في الخامسة والستين، يرتدي إزاراً أبيض يصل إلى منتصف ساقيه، وفانيلة بيضاء نصف كمّ، وعلى رأسه كوفيّة خيزران مائلة للخلف قليلاً، ويشدّ خصره بحزام جلدي، «كَمَر»، وفي يده عكاز. بشرته سمراء، شعر ذقنه وشنبه مزيج من السواد والبياض... تغور عيناه الصغيرتان في تجويف تحت جبينه العريض كجبهة الثور. عرّفته بنفسي وبالمهمّة التي جئت من أجلها، فوعد عن طيب خاطر بأن يتعاون معي.

ولجنا إلى الديوان الذي كان يحوي ثلاث قعائد، تتوسّطه مَداعة[2] تصل قصبتها إلى القعادة[3] المميّزة لكبير العائلة، وفي الجهة الأخرى كانت خمس بنات صغيرات يلعبن لعبة البيت، وقد رصفن الكثير من العلب الفارغة، والقناني والملاعق البلاستيكيّة،

2 الأرجيلة.

3 سرير قوائمه من الخشب ومُشبّك بالحبال، يتميز بارتفاعه عن الأرض أكثر من أسرّة النوم المعروفة.

واستخدمنها كأدوات للمطبخ. لم ينتبهن لحضورنا لشدّة انهماكهنّ في اللعب. نادى الجدّ على حفيدته:

– يا جليلة... جليلة.

التفتت الفتيات إلينا وكففن عن اللعب، وقفت من بينهن واحدة قدّرت عمرها بثماني سنوات، حين رأتني غارت ابتسامتها، وتغيّر لونها، وغرقت عيناها في بحر من الخوف. صرف الجد بقيّة البنات، أشرتُ لجليلة بأن تقترب، فجاءت إليّ وهي تعرج.. ثمّ جلستْ. طلبتُ من الجدّ ومن مرافقي جابر شنيني أن يخرجا هما أيضاً، غادر جابر بسرعة، وبعد تردّد وافق الجدّ على طلبي، فخرج وأوصد الباب. حين أمسينا وحدنا شرحت لها من أكون، والعمل الذي أقوم به، وطلبت منها أن تتكلّم بصدق وأمانة وصراحة تامّة عمّا جرى لها، ووعدتها بأنّني سأنشر كلامها كما هو دون زيادة أو نقصان في الجريدة. أخرجت المسجّلة من جيبي وسألتها: «موافقة؟».

رفعت يدها مفتوحة إلى الأعلى وشهقت.

كانت هذه أغرب «نعم» أسمعها في حياتي.

الخميس (62)

قمت من النوم وتساءلتُ أين أكون؟ أيقظني الحرّ والشعور بالعطش. كنت نائماً على قعادة في غرفة واسعة جداً، يستخدمها جابر شنيني ديواناً ومكاناً لإيواء ضيوفه. فوقي رفّ صُفّتْ عليه أطباق وكؤوس للزينة، وفي الجدار المقابل كانت هناك سحلية ضخمة جاثمة في مكانها لا تتحرّك، ربّما كانت في مكانها منذ أمس تراقبني من عليائها وتقول من هذا الغريب؟

خلعت المشدّ الطبّي وتفقدت سبابتي، كان الورم قد زال، وأصبح بإمكاني استخدامها ولكن بحذر، فما زال الألم باركاً عليها. تفحّصت يديّ وقدميّ... كانت هناك خمس لسعات للبعوض، تركت أثرها على جلدي حبوباً حمراء صغيرة. دخلتُ إلى الحمّام ومنشفتي على كتفي، ومعي آلة الحلاقة وفرشاة أسناني. بعد الحلاقة اغتسلت، لكنّني نسيتُ أن أحمل معي من صنعاء صابوناً، ومضيفي لم يفكر في توفير واحدة. لم يكن الحمّام مجهّزاً بمرآة، كنت قادراً على حلاقة ذقني دون الحاجة إليها، ولكنّني كنت قلقاً من ناحية أنفي الوضيع، كنت أخشى أن يُفرز دُمّلة جديدة تفقدني الحضور القويّ لشخصيتي.

مع رشاش الماء انسابت كلمات جليلة من تلقاء نفسها وساحت على جسدي... الكلمات التي عذبتني طيلة الليل:

«أيقظتني عمّتي نعمة في وقت مبكر، كان ذلك اليوم هو دوري في رعي الغنم. ارتديت قميصاً أسود بزهور صفراء. كان جدّي ينتظرني لأفطر معه. جدّي يصحو وقت صلاة الفجر، وحين يعود من المسجد يكون إفطاره معدّاً، باستثناء اليوم الذي يحلّ فيه دوري للذهاب إلى المرعى، فإنّه يطلب تأخير إفطاره إلى أن آتي فيطعمني بيده. نعم جدّي يحبّني كثيراً... وبعد شروق الشمس بقليل، وضعت على رأسي قبّعة عريضة الحواف وخرجت أرعى أغنامنا، عددها ثلاث وثلاثون، توجّهت بها إلى الوادي لتشرب. كان معي كلبنا مرباط. وصلت إلى وادي الدود وهناك كان أولاد من دير بني مساعد يسبحون في الماء عراة، عندما رأوني قالوا لي أن أخلع ملابسي وأنزل لأسبح معهم، بعضهم تكلّم بكلام فيه قلّة أدب. كان بينهم ولد كبير، شنبه قد طلع، جالس على صخرة مرتفعة، ظهره مكشوف ويلبس مئزراً بنّياً، وعلى جانب الصخرة طرح قميصه السماوي ليجفّ، لمّا رآني تضايقتُ من كلامهم واضطربت، صرخ فيهم وهدّدهم بأنّ الذي سيفتح فمه بكلمة معي سيدقّ رأسه ويسحقه كما تُدقّ وتُسحق قرون الفلفل. ذلّوا من صوته، وما عاد واحد منهم يرفع رأسه نحوي. سَقيت الغنم حتّى ارتوت، ثمّ قصدت مراعي القرمة. في الطريق، حرن كلبي مرباط في مكانه وأخذ ينبح لسبب لا أعرفه، ضربته بعصا وأجبرته بالقوّة على أن يلحق بالقطيع. عندما وصلنا إلى القرمة تركت الغنم ترعى، وجلستُ أنا آكل جبيزاً. فجأة اختنقتُ بلقمة وقفتْ في بلعومي، فأخذت أكحّ وأحاول التنفس... كنت أعرف أنّ هذه الحالة تحدث عندما يذكرك أحدهم بسوء، وإن كنت تأكل فإنّ شخصاً ما ينظر إليك بعين خبيثة... كان المكان قفراً خالياً، تلفتُّ حولي فلم ألمح أحداً،

استدرتُ فرأيت الشيخ بكري حسن يقف خلفي كالجنّي على مسافة بعيدة ونظره مُسلط عليّ».

نفد الماء فتوقفت كلمات الطفلة جليلة عن الانهمار من ذاكرتي، لماذا تعذبني روحي باستعادة صوتها الأغنّ المرتعش؟ ألا يكفي أنّني سجّلت كلماتها على شريط التسجيل؟!

ارتديتُ ملابس جديدة، تفقدت شنطتي السوداء التي تضمّ أدواتي الصحافية، كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً. دون استئذان، دخل جابر شنيني وهو يحمل مقلاة وخبزاً، أكلنا فاصوليا بيضاء مع البيض. اتّصل بي رئيس التحرير، وقال لي إنّ صحيفة الأيّام – صحيفة مستقلة معارضة تصدر من عدن – قد نشرت حواراً مفصّلاً مع الطفلة جليلة عن حادثة الاغتصاب، وإنّ الرأي العام متعاطف مع روايتها. قلت له إنّني قد أجريت معها حواراً فور وصولي من صنعاء ليلة أمس. طلب منّي بشكل صريح أن أُمنتج الحوار بحيث يبدو الفاعل مجهولاً، ثمّ أرسله بأقصى سرعة إلى الصحيفة. شدّد عليّ أنّ الحوار الذي سننشره لا بدّ من أن يؤدّي إلى تغيير الصورة لمصلحة الشيخ، وأنّ مهمّتنا التي تقتضيها مصلحة الوطن هي أن ينقلب الرأي العام إلى النقيض، ويتعاطف مع الشيخ بوصفه متّهماً ظلماً وزوراً... وعدته بالعمل على الحوار بعد الظهر، وبأنّني سأرسله إليه بالإيميل قبل غروب الشمس.

عندما أغلقت الخط شعرت بغصّة، وفقدت شهيّتي كليّاً للأكل. عليّ أن أتناول حبّة الملاريا التي ستمنحني مناعة ضدّ المرض مدّة أربع وعشرين ساعة. أخذت قنّينة المياه المعدنية فوجدتها فارغة، اضطررت لأن أبتلع الحبّة دون ماء.

حدث الاغتصاب ظهر يوم الاثنين الماضي، وفي العصر قدّم الحاج هادي بلاغاً إلى الشرطة، متّهماً فيه الشيخ بكري حسن

باغتصاب حفيدته جليلة. برفقة مندوب من البحث الجنائي ذهبوا بالطفلة إلى المستوصف في بلدة الجُرُوم حيث عاينتها طبيبة روسيّة، ونصف دستة من الممرّضات الهنديات. كانت تنزف واستدعت حالتها خياطة لأماكن التهتك. في الليل اعتُقل الشيخ بكري حسن وأودع الحجز. ومن سوء حظ الشيخ أنّ صحافياً يعمل مراسلاً لصحيفة الأيّام العدنيّة، كان في زيارة لذويه، فكتب عن الحادثة. وصباح يوم الثلاثاء نشرت صحيفة الأيّام الخبر بمانشيت عريض بالصفحة الأولى. وفي غضون ساعات كانت اليمن بأسرها تعلم بالقصّة.

شعرت الحكومة في صنعاء بأنّ هناك مؤامرة مُدبّرة ضدّ أحد رجالات حزبها المُخلصين فبدأت تتحرّك. كان دليل السلطة على وجود المؤامرة هو السرعة التي تعاملت بها المعارضة مع الحادثة، وتضخيمها إعلامياً لمصلحتها، والزجّ بشكل مُغرض باسم الحزب الحاكم في الموضوع.

في اليوم التالي للاغتصاب، الثلاثاء، سلّمت الطبيبة الروسية التقرير بلغتها إلى الشرطة، فأُرسِل إلى مكتب معتمد للترجمة في مدينة الحديدة. في الظهيرة كنت أنا في مكتب رئيس التحرير، وكلّفني بمتابعة هذه القضيّة الشائكة.

يوم الأربعاء ليلاً كنت قد وصلت إلى قرية باب المنجل. تأخّر وصول التقرير الطبّي المترجم إلى العربية، بحجّة الإجراءات البيروقراطيّة... كانت هناك شخصيّة كبيرة تبذل جهوداً حثيثة لإطلاق سراح الشيخ بكري حسن، وتحاول عرقلة مسار التحقيق، لكنّ مدير قسم شرطة باب المنجل رفض أيّة تدخلات، وأصرّ على احتجاز الشيخ إلى حين وصول التقرير الطبّي.

كانت القضيّة تتحرّك بسرعة، بسرعة شديدة جدّاً، والمطلوب منّي أن أتدخل بكلّ قواي لأغيّر المزاج الشعبي، وأكسب الرأي العام

في صفّنا. أعترف بأنّ المسؤولية الملقاة على عاتقي كبيرة، حمولة تقصم سنام الجمل.

وصلنا إلى قسم الشرطة الساعة التاسعة وعشر دقائق. كان الحوش مزدحماً بنساء ورجال وأطفال من مختلف الأعمار، وكأنّ سوق القرية الأسبوعي انتقل إلى هنا. الرواق الداخلي كان يعجّ بالعسكر وبرجال من قبيلة الشيخ بكري حسن مدجّجين بالسلاح، وكلا الطرفين متوتّر، والأصابع على زناد البنادق.

وخزتني نظرة... تطلعتُ حواليّ فرأيت بنتاً سمراء كالكاكاو تحدّق فيّ بعينين واسعتين وبريق الشهوة يندلعُ منهما كنيران متأجّجة تحرقُ كلّ شيء في طريقها. من نظرة واحـدة لم أكرّرها، شعرت بلفحة نار تلهب قلبي وترفع حرارته إلى درجة الغليان، فكّرتُ في نفسي أنّها بنت صغيرة بلهاء، يميل قلبها بخفّة إلى أيّ قادم من العاصمة، وأنّها بلا تجربة في الحياة، غضّة طريّة العود، لم يتجاوز عمرها الخمسة عشر ربيعاً.

منعني من الدخول إلى مكتب مدير القسم جندي عملاق أسود البشرة، من طائفة الأخدام، مُخيف الطلعة. أريته بطاقتي الصحافيّة، تأمّلها وهو يمسح بكمّ قميصه العرق الذي كان يسحّ بغزارة من جبينه، ثمّ سمح لي بالدخول. حاول منع جابر شنيني من الدخول، لكنّ الأخير كشّر عن أنيابه وجحظت عيناه وتكلم بجلافة مع الجندي: «أنا جابر شنيني رئيش المجلش المحلي أو ما عرفتني؟؟» وأبعد ذراع الجندي بفظاظة ودخل.

كان كرسيّ مدير القسم خالياً. وفي الغرفة الطفلة جليلة وجدّها هـادي. أردت أن أقترب منهما وأسلّم عليهما، لكنّي لم أستطع... شيء ما صنع حاجزاً نفسياً بيننا وجعلني غير قادر على القيام بهذه الخطوة البسيطة. بجوارهما كانت هناك امرأة في الخامسة والثلاثين،

عذبة الملامح، حجابها نازل على كتفيها، وشعرها الأسود المتدرّج مكشوف.

أسرّ لي جابر شنيني باسمها: «شلام مهدي»، شارحاً أنّها ناشطة في إحدى جمعيّات حقوق الإنسان. أشار جابر إلى شابّ أسمر نحيل كعود القصب، ملامحه حادّة وشعره جعد، قال إنّه الصحافي، ابن الكلب، الذي نشر خبر القضيّة في جريدة «الأيّام» العذنيّة. وحين نطق اسمه «شامي قاشم» لم أتمالك نفسي من الضحك، فتضايق منّي وراح يهرش ما بين ساقيه وفمه مائل جهة اليمين يسيل منه لعاب أسود.

ظهر على حين غرّة من إحدى الزوايا كهل غزا رأسه الصلع، يرتدي بذلة بنّية وربطة عنق ورديّة لا تناسب إطلاقاً هذا الطقس الخانق، وجيوب معطفه منتفخة بصورة تجعل منظره مضحكاً. عرّف عن نفسه وهو ينظر بارتياب إلى المشدّ الطبّي على يدي اليمنى:

– مرحباً أستاذ مُطَهَّر، أنا الأستاذ حمود شنطة محامي الشيخ.

تقلصت معدتي وكأنّ أحدهم يدغدغني، فجاوبته متهكّماً دون مراعاة لمشاعره:

– تشرّفنا... ولكن أين الشنطة؟؟

ارتجّ المحامي حمود في وقفته وعبس، ثمّ قال لي وسبّابته تنخر في صدري بغلّ:

– أنا أكره الشنط، وأكره الذين يحملون الشنط، أمقت أولئك الذين يتشبّهون بالفتيات ويُعلقون الشنط على أكتافهم، لقد عرفت من تجاربي في الحياة أنّ الذين يعلقون الشنط على أكتافهم هم مخنّثون.. أنصاف رجال.

كنت أنا أعلّق شنطة سوداء على كتفي، وكذلك الصحافي الذي ، يعمل مراسلاً لصحيفة الأيّام العدنيّة. قلت له وفمي ينضح بابتسامة ساخرة:

– ما دام الأمر هكذا، فلماذا لا تُغيّر لقبك إلى لقب أكثر رجولة؟ مثلاً أبو حامل الأثقال؟!

الجندي الخادم العملاق الذي كان يتابعنا بطرف عينه، أصدر في البداية صوتاً يشبه خوار بقرة، ثمّ انفجر ضاحكاً حتى ارتجّت جدران الحجرة من ذبذبات قهقهاته، وجاراه الجميع مقهقهين، حتى الصغيرة جليلة استراحت من مخاوفها للحظات قصيرة وضحكت.

احمرّ وجه المحامي حمّود احمراراً شديداً حتى صار كبطيخة حمراء، وركز يده قريباً من وجهي وشتمني صائحاً:

– (...) أمّك.

سبّني ثمّ راح يدور من زاوية لأخرى محاولاً التنفيس عن غضبه، بينما كنّا جميعاً نحاول كتم ضحكاتنا الشقيّة.

اقترب منّي الصحافي سامي قاسم وصافحني بحرارة، شعرت بألم فظيع في سبّابتي وضربات كالبرق في فقرات ظهري، ولكنّني تحمّلت ولم أسحب يدي:

– الأستاذ مُطَهَّر فضل؟

– نعم.

– حيّاك الله... أنا من المعجبين بمقالاتك وأسلوبك في الكتابة الصحافيّة.

– شكراً لك... أنا أعتبر نفسي صحافيّاً مبتدئاً.

– صحيح أنت شاب من جيلنا، ولكنّك انطلقت بسرعة الصاروخ وحققت شعبيّة جارفة بين القرّاء.

- ربّما يعود الفضل لعلاقات والدي، لأنّني بدأت أكتب عموداً أسبوعياً وأنا ما زلت طالباً في الثانوية.

- أتذكره. «قطاف المنجل» أليس كذلك؟ رحم الله والدك لقد كان مناضلاً جسوراً... أكيد أنت في مهمّة صحافية من طرف جريدة «النجمة الحمراء»؟

ارتبكت. كان لا يزال يظنّني أعمل لحساب جْريدة الحزب الشيوعي. تلعثمت وأجبت بصوت خفيض:

- كلا.. أعمل الآن في جريدة «الشعب».

سحب يده من يدي وكأنّما وخزته شوكة، وتلاشت ابتسامته وتكدّرتْ ملامح وجهه فجأة:

- أنت معهم!

استجمعت ثقتي بنفسي:

- أنا لست مع أيّ أحد... أنا مع الحقيقة.

هز رأسه موافقاً:

- أتمنّى ذلك يا صاحبي... الناس تثق بك وبقلمك وبتاريخ والدك النضالي.

ابتسمتُ وتنفّستُ بارتياح، وحين نظرت في عينيه اللوزيتين كانتا مخضلّتين بالدموع، كوردتين تكاثف عليهما الندى... تركني ومضى مُنضمّاً إلى جماعته. لقد انقسمنا إلى مجموعتين دون أن نخطط لذلك.

سألتني جليلة:

- هل أخرجت كلامي في الجريدة؟

نكّست رأسي، قلت لها وأنا أحاول افتعال ابتسامة:

- ليس بعد... ربّما بعد يومين أو ثلاثة.

أراحت رأسها على خدّها وسرحت بخيالها بعيداً.

تأمّلتها مجدّداً في ضوء النهار... حقاً إنّها بنت جميلة جداً، جمالها لم تقع عيناي على نظير له في أيّ مكان. بشرتها ذهبية فاتحة كالتفّاح الصَّعْدي، وجهها مُـدوّر كالبدر، وعيناها مسطحتان كعيني السمكة، وحدقتاها عسليّتان تقطران عذوبة وحلاوة، رموشها سوداء طويلة، خدّاها مستويان يفصل بينهما أنف نحيل، فمها وردي مزموم يوحي بالجدّ وعلوّ الهمة، حاجباها هلاليّان فاحما السواد، وجفنان واسعان يُضفيان عليها سمتاً جليلاً... شعرها غزير أسود، ليس مسترسلاً ولا جعداً، ولكنّه حريري الملمس، خصلاته ملتفّة حول نفسها، ولذلك هي لا تضفره، بل تتركه ينمو على سجيّته، مُتكاثفاً ومتداخلاً في بعضه كشجيرات برّية.

دخل رجل حنطيّ اللون، تُعشّش على كتفيه رتبة عقيد، قدّرتُ أنّـه مدير قسم الشرطة. عمره يُقـارب الستين عـامـاً، حليق الذقن والشاربين، شعيرات قليلة تغطّي هامته، وقور، قصير القامة، جسده مكتنز، نظراته تنمّ عن ذكاء حادّ. كان يحمل بيده أوراقاً. جلس على الكرسيّ الشاغر خلف المكتب الحديدي، وتـوزع حوله عـدد من الجنود المسلحين. دار بنظره علينا ثمّ طلب إحضار الشيخ من الحجز – كنّا جميعاً على أعصابنا – ران صمت ثقيل حتى إنّنا كنّا نسمع طنين الذباب والبعوض بوضوح قاتل.

دخل الشيخ بكري حسن دون أصفاد، ولم يجرؤ أيّ جندي على الإمساك به من ذراعه. كان يبدو في الخامسة والخمسين، أسمر مع كلف غامق أعلى خدّيه، متوسّط القامة، قويّ البنية، حليق الذقن وشارباه رفيعان، عيناه السوداوان برّاقتان وبياضهما أحمر يكاد ينزّ دماً، حاجباه خفيفان ومعقوفان عند طرفيهما إلى الأسفل. في وسط جبينه شجّة تبدو كخرطوم فيل. شعره أسود تخالطه شعيرات بيض، خشن كصوف الغنم بسبب إهماله الاعتناء به، ولو أدخل أحدهم

أصابعه فيه لما تمكّن من إخراجها بسهولة، ملتوٍ ومعقّد كشبكة صيد ملفوفة على عجل ومعلقة بمسمار. كان يرتدي مئزراً أبيض وصديريّة سوداء اللون، وعلى كتفيه فرد شالاً أحمر مُقصّباً بخيوط ذهبيّة، ويحزم خصره بخنجر. كان يقف بصلف وينظر إلى من حوله بازدراء. انتبهت إلى أنّه ما يزال محتفظاً بمسدّسه الشخصي، حيث يبدو متدلياً من حزامه، وعلى ظاهر الجراب ستّ رصاصات.

نظر مدير القسم في عينيه، واجهه بنظرة متحدّية، تحرّكت شفتاه وافترّت عن امتعاض لم يُبال بحجبه عن الأنظار:

– التقرير الطبّي يؤكد حدوث الاغتصاب.

قطّب الشيخ حاجبيه، والتفت إلى الطفلة جليلة ورشقها بنظرة تهديد رهيبة. اضطربت جليلة في جلستها، وتحاشت نظرة الشيخ التي تشبه الرصاص الأحمر في جنح الظلام. وضع جدّها هادي ذراعه على كتفها وضمّها إليه ليُشعرها بالحماية.

قفز المحامي حمّود شنطة إلى جوار مدير القسم ولوّح بسبّابته في الهواء:

– يا أفندم أحمد هذا التقرير الطبّي مُلفّق.. الدكتورة تاتيانا متواطئة معهم.

صرعه مدير القسم بلفتة غاضبة زاعقاً في وجهه: «اخرس». انكمش المحامي حمّود شنطة وتراجع إلى زاوية قصيّة.

تابع مدير القسم بلهجة صارمة ونظراته تحوم كالصقر حول الجميع:

– بعد غد، أي يوم السبت، سيُحال ملفّ القضيّة إلى النيابة، وسيُرحّل الشيخ بكري حسن إلى النيابة في بلدة الجُرُوم.

وضع الشيخ يديه على المكتب الحديدي الصدئ وانحنى مخاطباً مدير القسم:

– هذه القضية لا تعنيني... عيال صغار تقاحبوا ما دخلي بهم؟؟

شدّ قامته ووضع يده على مقبض خنجره:

– أنا سأخرج وأرجع إلى بيتي، وإذا حاولتَ منعي أقسم أنّني سألعب برأسك كأنّه كُرة في مزرعتي.

استدار خارجاً وانصرف. لحق به مدير القسم وهو يناديه: «يا شيخ... يا شيخ». خرجا، فلحقنا بهما جميعاً. أثناء خروجه، قام مدير القسم بحركة خاطفة لم ينتبه لها أحد من الموجودين: شدّ بقبضته على عضد الجندي الخادم وكأنّه يدفعه للخلف، فتوارى الأخير إلى الداخل ولم يمشِ في إثرنا...

صاح الشيخ في مرافقيه المسلحين: «يا الله يا رجال».

أحاط به مرافقوه من كلّ جانب، وخرجوا إلى الحوش. أعطى مدير القسم أوامره التي عبرت من فوق رؤوسهم طالباً إغلاق البوابة. اندفع الشيخ وزمرته شاهرين السلاح يريدون الخروج بالقوّة، عمّر الجنود بنادقهم واستعدّوا لإطلاق النار. علا صراخ النساء وتدافع الناس مبتعدين. دمدم مدير القسم بصوت طغى على الضجيج آمراً الشيخ بالتراجع إلى الخلف. كنّا قد اندفعنا خلف مدير القسم ووقفنا خلف ظهره، ولكن عندما شهَرَ كلّ فريق سلاحه في وجه الآخر وأصبحت المذبحة وشيكة الحدوث، تفرّقنا... المحامي حمّود انبطح على بطنه غير مبالٍ ببذلته الأنيقة، الحاج هادي احتضن حفيدته وقرفص ملتصقاً بالجدار وظهره للمُتقاتلين، الصحافي سامي ورفيقته سلام المدافعة عن حقوق الإنسان فرّا إلى الرواق الداخلي، أمّا أنا فهرولت يساراً على مصطبة مرتفعة، ووقفت بعيداً أراقب تطوّرات الموقف المشحون برائحة الموت، فيما كان أهالي القرية قد تدافعوا

متراجعين للوراء. قعدت ورحت أفتش بسرعة في شنطتي عن الكاميرا.

من بين الحشد أرسل مجهول حجراً إلى رأس الشيخ بكري حسن، فترنّح وعوى ككلب مضروب، سحب المسدّس وعمّره، واستدار إلى جهة اليسار، جهتي، التي جاء منها الحجر. صوّبه عشوائيّاً باتجاه الناس الذين كانوا أصلاً في حالة بلبلة واضطراب، وصاح فيهم مهدّداً: «من الذي رجمني بالحجر... تكلموا من هو وإلّا قتلتكم كلكم». ابتعد الخلقُ عن فوهة مسدّسه وكأنّهم ذباب يفرّ من وجه أنبوبة مبيد حشري، وكثيرون منهم اصطدم بعضهم ببعض وسقطوا على الأرض، وكلّ واحد منهم يدوس على من تحته محاولاً النجاة بروحه من دلّال المنايا الواقف على مقربة منهم.

تجمّدت يدي ولم أجرؤ على إخراج الكاميرا من الشنطة، سحنة الشيخ المرعبة جعلتني أقرّر أنّ من الأسلم لي تجنّب استفزازه، لأنّه إن رآني أصوّر ومشاعره متأذّية من الإذلال الذي مُني به، فقد يكفّ عن المطالبة بغريمه، ويُخرّقني برصاصاته للتنفيس عن غضبه العارم.

انقضّ مدير قسم الشرطة على الشيخ من الأمام مستخدماً جسده ساتراً لحماية الأهالي من أيّ طلقات عشوائيّة، واستخدم كلتا يديه للسيطرة على المسدّس رافعاً فوهته إلى الأعلى. تجاذبا المسدّس وتدافعا وكلّ واحد منهما يرمي ثقله على الآخر.

لاإرادياً قفزتُ في الهواء، ووقعت شنطتي على الأرض. وميض خاطف استغرق أجزاءً من الثانية عبر عينيّ من الداخل إلى الخارج، ثمّ سمعتُ صوتاً هائلاً أقوى من الرعد، أرعش جسدي وفكّك أوصالي.

برز من السطح الجندي الخادم الضخم الجثّة وهو يحمل رشاشاً ثقيلاً (DShKM) المضادّ للطائرات. أطلق طلقة واحدة في الهواء

كانت كفيلة بأن يتصنّم الجميع في أماكنهم دون حراك، ويعمّ المكان سكون مفاجئ وكأنّنا في بريّة مقفرة.

صوّب الجندي الخادم الرشاش الثقيل الوزن إلى صدور المسلحين التابعين للشيخ وصرخ فيهم آمراً بصوت مدوٍّ ترتجف منه الأبدان: «اطرحوا السلاح.. نفّذوا الأمر.. بسرعة».

ألقوا بنادقهم على الأرض فاغري الأفواه، وقد شلّ الخوف إرادتهم. انتزع مدير قسم الشرطة المسدّس بسهولة من يد الشيخ الذي خارت قواه وتخلّى عن كلّ مقاومة. فتح العسكر الباب الصغير، وخرج أتباع الشيخ واحداً وراء الآخر مُنكّسي الرؤوس وهم يحكّون مؤخّراتهم. أُغلق الباب الصغير عقب طردهم، وقام جنديّ قصير القامة بلمّ البنادق من الأرض وعلّقها على كتفه. أشار مدير قسم الشرطة بذراعه الممدودة للشيخ بالاتّجاه إلى الحجز، فتحرّك الأخير بتثاقل، وهو يتنفّس بقوّة مُخرجاً بخاراً حارّاً من فمه المفتوح، وقبل أن يتوارى طاف ببصره على أهالي القرية، وتحدّاهم أن يُحدّقوا في عينيه الحمراوين الضاريتين كعيني نمر مُتأهّب للافتراس. غاب في الداخل، يُواكبه مدير قسم الشرطة وثلة من الجنود، وشيّعته صيحات استنكار تفجّرت من مئات الحناجر بإيقاع صاخب متصاعد: «وييييه... ويييييييه... وييييييييييه».

فُتحتْ البوابة على مصراعيها، فتدفق منها الناس خارجين سعداء مستبشرين، وابتسامات النصر تتلألأ على شفاهم، رؤوسهم مرفوعة، قاماتهم منتصبة، صدورهم بارزة للأمام، وجميعهم يتكلمون في وقت واحد بأصوات جهيرة مُلعلعة، وكأنّما يردّدون النشيد الوطني بطريقتهم الخاصة.

«عندما وصلت إلى القرمة تركت الغنم ترعى، وجلست أنا آكل الجبيز[1]. كنت جائعة جداً ورحت آكل بسرعة، فاختنقت بلقمة انحشرت في بلعومي، وأخذت أكحّ وانقطع نفسي. فجأة ضربني شخص مجهول على ظهري من الخلف، فخرجت اللقمة من فمي وانكببت على وجهي، ضغط الشخص المجهول رأسي على الأرض، فامتلأت عيناي بالتراب، ودخل إلى منخري وفمي أيضاً. فلم أقدر على الصراخ ولا على تحريك رأسي. قيّد يديّ خلف ظهري بحبل، ثمّ رفع قميصي إلى خصري وجردني من ثيابي الداخليّة، وبصعوبة تمكنت من الالتفات، لم أعرف من يكون، كان ملّثماً، يغطّي وجهه بسماطة[2] بيضاء مُنقطة، ويرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أحمر. قلبني على ظهري ثمّ وضع كيس نايلون أسود على رأسي فيه فتحة صغيرة عند أنفي لأتنفس. بعد ذلك لم أعد أرى أيّ شيء. فتح ساقيّ وأحسست بذاك الشيء يؤذيني. لم أعرف متى ذهب ولا إلى أين. ولم أسمع أبداً صوته. اختفى فجأة كما ظهر فجأة».

أنهيت الصياغة النهائيّة لحوار جليلة خلال فترة ما بعد الظهر. وعملتُ على تحميل صورها في كمبيوتري المحمول. بعد ذلك كتبتُ تغطية صحافيّة للأحداث التي جرت صباح اليوم في قسم شرطة باب المنجل. بعد المغرب لفظتُ تكويرة القات من فمي، وتناولت مع جابر شنيني كوباً من حليب بقرة حُلبت للتوّ، ثمّ انطلقنا بسيّارته «تويوتا هايلوكس» إلى بلدة الجروم.

أنزلني عند محلّ إنترنت، ثمّ واصل طريقه لمتابعة مصالحه التجارية المتشعّبة. أرسلتُ الحوار والصور والتغطية الصحافيّة إلى بريد الجريدة الإلكتروني، وتردّدتُ في الاتّصال برئيس التحرير

[1] قرص مخبوز من الدجرة «اللوبياء».
[2] عمامة.

لأبلغه بإنجاز المهمّة. معرفتي بعاداته جعلتني أُحجم عن ذلك، ففي هذه الساعة يكون قد وصل إلى مكتبه، وعلّق معطفه على الشمّاعة، واختلى بسكرتيرته الحسناء التي تصغره بثلاثين عاماً، ثمّ بعد ذلك سيكون مشغولاً بكتابة افتتاحيّة عدد الغد. رجل مُنظّم، ويعرف كيف يدخل «النظام» في كلّ شيء.

مررتُ بسرعة على أربعة أو خمسة مواقع سياسيّة، ثمّ فتحت حسابي في الفايسبوك، لم أستطع التركيز على أيّ شيء، فدفعتُ الحساب وغادرت محلّ الإنترنت، وأنا أكاد أختنق من الحرّ ودخان السجائر وزهومة عرق الزبائن.

رحتُ أمشي في الشارع الرئيس للبلدة باحثاً عن مطعم يحسنُ في عيني، لم أكن أفكّر في طعام محدّد، كنت أشعر بالجوع فحسب. اعترضني العديد من الشحّاذين رجالاً ونساءً وأطفالاً. لم يكونوا مدّعين، ملامحهم كانت تعكس حالة الفقر المدقع التي يكابدونها. مررتُ بالعديد من المجانين العراة ولا شيء يستر عوراتهم سوى تراكم الأوساخ. النساء كنّ يرشقنني بنظرات متفحّصة ولا يُحوّلن أبصارهنّ عنّي. يا لهنّ من جريئات... ولا واحدة منهنّ غضّت بصرها! الدرّاجات الناريّة تطير عشوائيّاً كالذباب، وأكثر من مرّة كادت تصدمني إحداها. القمامة في كلّ مكان، وقراطيس النايلون لاطية بالأرض كالوباء، إنّها البديل المعاصر من تلك النباتات الشوكيّة الضارّة التي كانت تنمو في الحقول.

سمعتُ أحدهم يناديني، التفتُّ فرأيت مراسل جريدة «الأيّام» سامي قاسم يتعقبني بخطوات سريعة. تصافحنا وسألني عن وجهتي، فقلت له إنّني أبحث عن مطعم جيّد، قال إنّه يعرف واحداً، وشبك يده في يدي وسحبني معه وكأنّني صديق قديم. تابعنا السير في نفس الاتّجاه لمسافة قصيرة، ثمّ انعطفنا إلى شارع جانبي عريض في بدايته

ثمّ يضيقُ بالتدريج حتى يتفرّع إلى أزقّة ملتوية في آخره تقود إلى البلدة القديمة. يكتظ الشارع بالمحالّ التجارية: ذهب، إلكترونيات، ملابس جاهزة، أقمشة، عطور، صرافة، استديوهات تصوير. وصلنا إلى مطعم شعبي يقال إنّه شهير جدّاً، خارج المطعم افترشت الأرض جماعات من الزبائن وراحوا يأكلون بشهيّة. شممتُ رائحة لحم مقليّ بالزيت والصلصة والبهارات فسال لعابي وأخذت معدتيْ تقرصني من الجوع. لمّا دخلنا وجدناه مكتظاً وكلّ الطاولات مشغولة، أمّا الحرارة فكانت تفوق الوصف وكأنّنا ولجنا إلى تنّور. شعرتُ بالإحباط وفكّرتُ أنّ من الأفضل البحث عن مطعم آخر. جرّني سامي قاسم من كمّي إلى رواق داخلي يُفضي إلى درج، رأيت لافتة مكتوباً عليها: «قسم العائلات». صعدنا إلى الطبقة الثانية، وتسرّبت إلى أنفي رائحة بخور زكيّة، كانت هناك حجرات عديدة، وحلّت الستائر الزرقاء الشفافة محلّ الأبواب. تلاشت الأصوات المزعجة، وخفّت وطأة الحرّ، لقد تبدّل الوضع وكأنّنا دخلنا إلى جنّة صغيرة هادئة ونظيفة وهواؤها معتدل بفضل أجهزة التكييف.

اتّجهنا صوب حجرة ستارتها الزرقاء مرفوعة، فوجئت بوجود الناشطة سلام وشخص آخر لا أعرفه. جلسنا دون تعارف، وانجرفنا تلقائيّاً إلى حوارهما الصاخب.

قال الشخص الذي لا أعرفه: «أقول لكِ هذه البنت كانت طالبة عندي وأعرف قصّتها جيّداً».

أجابته سلام: «طيّب، هل لديها استعداد للذهاب معنا إلى قسم الشرطة لتبلغ عنه؟».

– لا.

– طيّب، هل من الممكن على الأقلّ (تشير إلى سامي) أن تروي ما جرى عليها للصحافة؟

- مستحيل... أيّ بنت في الدنيا ترضى أن تفضح نفسها وأهلها؟!

- إذاً ما الفائدة يا حسين؟؟

هنا تدخّل سامي قائلًا: «عن أيّ بنت تتكلمون؟؟».

أجابته سلام: «حسين يزعم أنّ هناك بنات صغيرات أخريات تعرّضن للاغتصاب على يد الشيخ بكري وهو يريد منّي مقابلتهنّ».

«ما المانع؟ اذهبي وسجّلي اعترافاتهنّ.. قد تنفعنا كورقة ضغط على الشيخ»، قال لها سامي.

أردتُ أن أعلق مُعترضاً على التغرير بالصغيرات والزجّ بهنّ في أتون معركة سياسيّة بطريقة قذرة، ولكنّ دخول النادل ووضعه مدرة اللحم والخبز على الطاولة جعلني أؤجّل اعتراضي إلى ما بعد العشاء!

حقاً كان اللحم المُقطّع قطعاً صغيرة لذيذاً للغاية، لم أذق مثله في حياتي، فاندفعتُ آكل كالأسد. بعد هنيهة عاد النادل ووضع أمام كلّ واحد منّا زجاجة مشروب غازي.

كانوا يُعيدون ويزيدون في حديث سمج عن البنات اللائي اغتصبهنّ الشيخ بكري حسن، ويوردون تفاصيل غير معقولة، فيحسب من يستمعُ إليهم وكأنّ للشيخ عضواً طوله سبعون ذراعاً!

أرهفتُ سمعي عندما صرّح حسين بأنّه سيحشد يوم السبت المقبل طلّاب المدرسة التي يعمل فيها للتظاهر أمام مقرّ النيابة. شيئاً فشيئاً لاحظوا صمتي وعبوسي، فراحوا يتحفّظون في الكلام، ثمّ بدأتُ أشعر بالانفصال عنهم، وبأنّ نظراتهم إليّ تغيّرت ولم تعد مريحة.

نهضنا بعدما أمسى التوتّر بيننا غير محتمل. لم أعرف من دفع الحساب، ولا كلّفتُ نفسي مشقة السؤال. ودّعتهم بسرعة مُتصنّعاً

التثاؤب، وامتطيت أوّل درّاجة ناريّة مرّت بي. غادرت البلدة عائداً إلى قرية باب المنجل وأنا أشعر بالضيق والانزعاج من الأمسية برمّتها.

قبل النوم اغتسلتُ لأتخلّص من رائحة العرق، لبستُ سروالاً داخليّاً نظيفاً، وبسبب الحرّ لم أغطّ جسدي بأيّة ملابس أخرى. فتحتُ النافذة وتمدّدتُ تحتها مباشرة. ورغم أنّني عارٍ تقريباً ولا شيء يغطّيني فقد وجدت صعوبة بالغة في النوم. كنت أغمضُ عينيّ وأُصدرُ الأوامر لعقلي بأن يكفّ عن التفكير في الحَرّ.

بعد ساعتين أو ثلاث ربّما، بين اليقظة والنوم، شعرتُ بالعطش، رفعتُ جذعي قليلاً، تناولت قنّينة الماء، وشربتُ من فوهتها حتى فرغت، ثمّ دحرجتها باتّجاه الباب وعاودتُ الاستلقاء. شعرتُ بأنّ هناك رأساً يطلّ عليّ من النافذة المفتوحة على مصراعيها، نظرت ولكنّني لم أتبيّن شيئاً بسبب الظلام... غلبني النعاس ولم أتحقق من الأمر.

الجمعة (61)

في الصباح، تذكّرت أنّني لمحتُ رأساً يطلّ عليّ من النافذة، ولكنّني لم أحسم أمري هل كان هذا حقيقة أم أضغاث أحلام.

قبل صلاة الجمعة، اتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد وتكلّم معي بلهجة غاضبة. قال إنّه نشر التغطية الصحافيّة، ولكنّه لم ينشر الحوار الذي أجريته مع الطفلة جليلة لأنّها تبدو فيه كضحيّة تستثير التعاطف! سألته ماذا يريد بالضبط، فقال لي بالحرف: «أريد منك إعادة كتابة الحوار، أريدك أن تعمل على توسيخ الطفلة قليلاً». وعدته بأن أعمل على الحوار مرّة أخرى، وأنّه سيكون جاهزاً للنشر الليلة. طلب منّي إجراء مقابلة مع الشيخ بكري حسن لتقديم وجهة نظره هو أيضاً للقرّاء وللرأي العام.

في العصر، وأنا في المقيل أمضغ القات، وأعمل على «منتجة» الحوار، اتّصل بي رئيس التحرير مرّة أخرى، وقال إنّ الصورة التي بعثت بها للطفلة جليلة لا تخدم قضيّتنا: «إذا نشرنا هذه الصورة فستجلب لها تعاطفاً والناس سيحبّونها لأنّها تبدو جميلة... لا ينبغي أن يلاحظ الناس أبداً أنّها جميلة... أعد تصويرها مرّة أخرى، والتقط

لها صوراً من زوايا غير واضحة، وإن كانت الصور مُغبشة فسيكون هذا أفضل». وكعادته أغلق الخطّ في وجهي دون كلمة وداع.

بعد ساعة أنهيت الصياغة الجديدة للحوار، وكان التعديل الجوهري الذي قمت به هو تصريح جليلة بأنّها عندما ذهبت للوادي ورأت الأولاد يسبحون عراة تعرّت هي أيضاً وسبحت معهم، واعترفت بأنّهم قد تحرّشوا بها، وعندما ذهبت إلى مراعي القرْمة تبعها ولد منهم طلع شاربه يرتدي مئزراً بنّياً مُقلماً وقميصاً سماويّاً، وأنّه هو الذي أدخل ذاك الشيء «القويّ» فيها برضاها.. وأنّني عندما سألتها لماذا تدّعي على الشيخ بكري حسن ولا تكشف الحقيقة؟ ردّت عليّ بأنّها تريد حماية الولد لأنّه صاحبها وتخشى عليه من انتقام أهلها. كانت صياغة متينة للأحداث، سوف ينشرح لها صدر رئيس التحرير الصعب المراس. لفظتُ القات وغسلت فمي، ثمّ غادرت منزل مضيفي ورحت أبحث عن جليلة التي وجدتها تلعب في المراجيح المصنوعة من جذوع الشجر مع أترابها في برحة رمليّة، فطلبت منها أن ترجع معي إلى بيتها، وتلبس خماراً لتكون في هيئة مناسبة. التقطت لها صورة – ستتداولها وسائل الإعلام في ما بعد على نطاق واسع – جانبيّة في الظلّ، وخمار أبيض يستر رأسها وصدرها بحيث تبدو أكبر من عمرها الحقيقي بعدّة سنوات. غادرت متعجّلاً وأنا أتمنّى في سرّي أن لا أراها بعد اليوم أبداً.

مشيت باتّجاه قسم الشرطة، شعرت بضيق غير مفهوم من الأطفال الذين كانوا يلعبون بكريّات زجاجية، ويحفرون حفراً صغيرة في الأرض ويتبارون لإدخالها في تلك الحفر، تمنّيت لو أنهرهم ليتوقفوا عن اللعب. كان جزء من روحي يردّد بصوت خافت أنّني قد وقعت في حفرة... واحدة من تلك الحفر التي تصادفنا حتماً على درب الحياة ولا نملك أن نفلت منها.

كنت أنوي بعد إنهائي المقابلة الصحافيّة مع الشيخ أن أسافر في نفس الليلة إلى صنعاء وأرقد في بيتي. كنت مصمّماً على الخروج من «حفرة جليلة» في أسرع وقت ممكن.

وصلتُ إلى القسم وقد هربت الشمس، تاركةً خلفها سحابة صغيرة مسكينة تسبح في بحر من الدم. فتح لي العسكري غرفة الحجز فدخلتُ وأغلقَ الباب خلفي. كان الشيخ بكري حسن يصلّي صلاة المغرب بخشوع يُحسد عليه. التقطتُ له صورة، وفكّرت أنّ نشرها سيعطي عنه انطباعاً حسناً في أذهان القرّاء. بعدما سلّم، اقتربت منه وشرحت له ما أريد. استمع لي دون مقاطعة ثمّ قال بهدوء: «اطرح أنت الأسئلة وأجب عنها... هذا شغلك وليس شغلي». صدمني جوابه الباتر كحدّ السيف، ولم أملك إلّا أن أبلع ريقي وأهزّ رأسي بالإيجاب.

وأنا خارج صادفتُ مراسل جريدة «الأيّام» العدنيّة سامي قاسم. سألته ما الذي أتى به، قال إنّه يريد إجراء حوار صحافي مع الشيخ، قلت له إنّ الشيخ يرفض الإدلاء بأيّة تصريحات أو حوارات لوسائل الإعلام. بصق جانباً – وهي حركة أشعرتني بالاستفزاز – وقال إنّه مكلّف من صحيفته، وإذا رفض الشيخ فإنّه سيكون قد قام بواجبه.

اتّصلت بمضيفي جابر شنيني وطلبت منه أن يحضر ويُحضر معه حقيبتي. بعد برهة خرج سامي قاسم ممتقع الوجه. سألته ماذا حدث؟ ردّ بصوت واهن: «الشيخ رفض أن أجري معه حواراً». لاحظت ارتعاش يديه واتساع بقعتي العرق تحت إبطيه. قال وهو يتلفت زائغ البصر: «الشيخ هدّدني.. أقسم بالله ثلاث مرات أنّه سيقتلني». شعرتُ أنا أيضاً بعدوى الخوف تنتقل إليّ، وأحسست بنبض قلبي يتسارع. قلت له محاولاً طمأنته: «لا تقلق، هذه ثرثرة

رجل فقد السيطرة على أعصابه». التقت عيوننا وأدركتُ كما أدرك هو أنّني أنظر في عينيْ رجل ميّت. سألته إلى أين سيتّجه، فقال إنّه ذاهب إلى الجروم، قلت له إنّني متّجه إلى هناك أيضاً وعرضت عليه أن نوصله معنا فوافق شاكراً.

كان سامي قاسم يعيش في بيت والده في البلدة، ويمتلك، بجانب عمله مراسلاً صحافياً، محلّاً صغيراً للاتّصالات الهاتفية فيه فاكس وآلة تصوير وثائق، يعمل فيه أحد أشقائه. عندما حضر جابر شنيني بسيّارته الهايلوكس وقعتُ في موقف محرج، لأنّ جابر رفض بعناد صعود زميلي الصحافي المُصفرّ الوجه معنا برغم كلّ محاولاتي لإقناعه، واستشففتُ من غمزة عينه أنّه يريد الانفراد بي. اعتذرت لسامي قاسم وصعدتُ مضطراً، فلم يكن هذا وقتاً للبطولة، وليقل عنّي إنّني نذل، فما يهمّني في هذه اللحظة هو أن أغادر قرية باب المنجل والساحل برمّته في أسرع وقت ممكن.

وكأنّما استشعر جابر شنيني رغبتي الخفيّة في التحليق بعيداً، راح يضغط على دوّاسة البنزين منطلقاً بسرعة متهوّرة. بحثت عن حقيبتي فلم أجدها، سألته عنها، فقال لي بكلّ برود وشفته السفلى بارزة للأمام كمنصّة لإلقاء الخطابات:

– آشف لم أحضرها.. هناك تطوّرات.

شعرت بدوخة وكأنّني ملفوف في سجّادة وأحدهم يدحرجها. تابع جابر كلامه وفتات النشوق يتطاير في الهواء مع الرذاذ الخارج من فمه:

– المعارضة شتنظم غداً مظاهرة تضامن مع جليلة أمام النيابة في الجروم.

– وأنا ما شأني بهم... أنا مهمّتي انتهت.

- لا تشتعجل... هناك أوامر عليا بأن نعمل مظاهرة مؤيّدة للشيخ، وأنت مطلوب منك تغطية صحافية للمظاهرة.

شعرتُ ببخار الغضب يتصاعد من دماغي الساخن واحتددتُ عليه:

- أنا لا أتلقّى الأوامر منك يا جابر.. مفهوم؟

بصق لعابه الأسود خارجاً ثمّ أصدر ضحكة مصطنعة تشبه نهيق حمار وقال مُرصّعاً سحنته بابتسامة ظافرة:

- قلت لك يا أشتاذ لا تشتعجل.. عندما نصل الجروم شأتركك في محلّ الانترنت لتكمل شغلك، وأنا شأحضر اجتماعاً طارئاً للحزب.. هل تعرف من الذي شيرأش الاجتماع؟

طبعاً لم أكن أعرف، ولكنّني خمّنت من لمعة عينيه أنّه شخص مهمّ. همس بالاسم، ولم أصدّق ما أسمع.. أنزلني عند محلّ الإنترنت وذهب.

أرسلتُ حوار جليلة وصورتها على إيميل رئيس التحرير. تصفّحت المواقع الإخباريّة والصحف وأنا مشوّش الذهن. كنت أتساءل في نفسي هل يمكن أن تحضر تلك الشخصية بشحمها ولحمها اجتماعاً حزبياً تافهاً في بلدة تافهة بعيدة وتائهة في الساحل.. وما الذي يجعل هذه القضيّة تأخذ كلّ هذه الأهمّية.. شعرت بفقدان القدرة على التركيز فلم أتابع التصفح، ورحت أبارز الكمبيوتر بمباراة شطرنج لتهدئة أعصابي.

في الساعة العاشرة والنصف عاد جابر شنيني ليأخذني. كنت أتحرّق شوقاً لمعرفة الأخبار. بعد إلحاح تكلم جابر الذي خلا فمه من النشوق لأول مرّة منذ عرفته:

- حضر معاليه الاجتماع... وأصدر إلينا التوجيهات بتنظيم مظاهرتين، الأولى مؤيّدة للشيخ بكري حسن تتّجه إلى قسم الشرطة

في قريتنا وتطالب بالإفراج عنه، والثانية مضادّة للشيخ وتتّجه إلى مقرّ النيابة في الجروم وتطالب بتسليمه.

صمت جابر وشرد فكره بعيداً. أغاظني صمته فوخزته ليواصل كلامه:

– هل هذا كلّ شيء؟

– لا.. لقد أعطى لكلّ فرد منّا أوامر محدّدة. صدّق أو لا تصدّق، كلّ واحد لديه مهامّ تناقض زميله الآخر... أنا لست ذكيّاً بما فيه الكفاية لأفهم الغرض من كلّ هذا. من حسن الحظ أنّني لست مسؤولاً كبيراً.

شعرتُ بأن جابر يتكلم مع نفسه أكثر ممّا يتكلم معي.. كان في طيّات كلامه إيحاء بوجود مؤامرة أو خديعة لإطاحة رؤوس كبيرة. قلت له:

– من يدري.. ربّما تصير يوماً ما محافظاً لإقليم الساحل!

اتّسعت عينا جابر ولمحتُ اختلاج قصبة أنفه. لقد شعر بالمكر المُتخفّي في كلامي كميسم يكاد يلسع جلده. تكلم ببطء وحرص وازناً كلّ حرف:

– معاليه ذكرك بالاسم.. وأسند إليك المهامّ التي سأخبرك بها حالاً.

السبت (60)

أويت إلى الفراش عند منتصف الليل تقريباً، وظللت أعاني من الأرق أربع ساعات. بالكاد نمت ساعتين قرب الفجر، ثمّ أتى جابر شنيني ليوقظني. حلقت ذقني ثمّ اغتسلت، وخرجت من الحمّام المُلحق بغرفة الضيوف وأنا عارٍ أغطّي وسطي بمنشفة حمراء. فوجئت بفتاة سمراء في الخامسة عشرة واقفة عند النافذة وتتطلع إليّ بجرأة. في أنفها قرط ذهبي مستدير على شكل تويج زهرة. كانت طويلة نحيلة، وصدرها أملس لم تتبرعم ثماره. اقتربت منها مسحوراً مبهوراً. بدت لي جميلة إلى درجة لا يحتملها قلبي. فكّرت أن أسجد لها لتسمح لي بأن ألمسها. خطفتني خطفاً، ولم أستطع رفع عينيّ عنها. يا له من جمال فطري تغار منه النجوم، دون مساحيق ولا مسحة تدخّل بشريّة فجّة. بشرتها غامقة كالليل، وأسنانها بيضاء كالحليب، وتكوين وجهها بديع، كسماء صافية تشعّ زرقة، روعة في قسمات الجبين والعينين والفم جعلتني أطفو خارج الزمان والمكان. التفتْتُ، كان هناك ولد صغير يتكلّم ويحاول أن يشبّ على أصابعه لينظر من النافذة. اقتربتُ منها ووقفتُ لا يفصل بيننا سوى الجدار. كانت تغطي شعرها الجعد بحجاب أسود، وترتدي قميصاً أزرق موشّى بزهور برتقاليّة. نظرتُ

بعمق في حدقتيْ عينيها، وأحسستُ بالحبّ يُبلّل عروقي، كما يصعد الماء من جذور الشجرة، ويتوزّع على جذعها وغصونها، ويفيض حتى يصل إلى كلّ ورقة من أوراقها. كانت هي الأخرى تتأمّل وجهي بشغف، لم ترمش ولا مرّة، بدا كأنّها تريد أن تحتفظ بملامحي وأن لا يُفلت أيّ تفصيل من ذاكرتها.

فُتح الباب الخشبي وصدر عن مفصّلاته الصّدئة صرير بوّابة قلعة عتيقة، فأجفلتْ غزالتي السوداء، وأمسكت بيد الطفل وابتعدت. كان الداخل هو الولد الأكبر لجابر، جاء يحمل فطوري.

وأنا ألتهم بسكويت «ماري» مع الشاي – وهي عادة القوم هنا أن يبدأوا يومهم بهذه الوجبة الخفيفة – تذكّرتُ أنّها هي نفسها الفتاة التي رأيتها في قسم الشرطة ولفتت انتباهي. كانت تدور في ذهني خواطر غريبة، مثلاً تمنّيتُ لو أنّ زمن العبوديّة يعود وأفعلُ كأجدادي الشيوخ الذين إذا أعجبتهم بنت خطفوها عنوة وجعلوها جارية عندهم. لا أدري من أين ظهر هذا الوحش البدائي من لاوعيي وقادني من أنفي للتفكير بهذه الطريقة. جمال الفتاة أفقدني صوابي، لقد أثارت فيّ الموجة الشهوانيّة الأعظم للجنس. لم يسبق لأيّ أنثى أن أثارتني لهذا الحدّ. عمري الآن ثلاثة وثلاثون عاماً، ولأول مرّة في حياتي أشعر بهذا الهياج الجنسي المُنفلت من كلّ عقال. تمنّيت لو ألتفّ بها كاللبلاب على الشجرة، وأن تحلّ نهايتي على هذا الوضع، حينئذ سأموت راضياً وقد شبعت من الدنيا.

تأكّدت من وجود الكاميرا والمسجّلة وكمبيوتري المحمول في حقيبتي وتأهّبت للخروج. عاد الولد البكر يحمل سندوتش فاصوليا مع كوب شاي أحمر آخر. شربت الشاي على عجل، ودسستُ السندوتش في الحقيبة لآكله في الطريق.

الساعة الثامنة كنّا أمام بوابة قسم الشرطة. تمكّن أنصار الحزب الحاكم من حشد قرابة مئة شخص، ثلثهم من النساء، شكّلوا بأجسادهم حاجزاً بشريّاً يمنع الدخول أو الخروج من بوّابة القسم. كانوا يطالبون بإطلاق سراح الشيخ، وهم بالطوق الذي شكّلوه فرضوا أمراً واقعاً، وتمكّنوا من الحيلولة دون ترحيل الشيخ وتسليمه للنيابة. رحت ألتقط الصور من زوايا عديدة، وسجّلت تصريحات لرجال ونساء من المتظاهرين. كنت متوتّراً، لا أعرف إلى أين ستفضي هذه القضيّة. ما أنا متأكد منه هو أنّ مدير القسم، العقيد أحمد فتيني سوف يتلقى سيلاً من الاتّصالات والتهديدات لمنعه من تسليم الشيخ للنيابة، ولكي يقبل بإطلاق سراحه بكفالة. وبما أنّ المتظاهرين تغلب عليهم العصبيّة الزائدة، فهذا يرجّح فرضية أنّ العقيد رفض التراجع عن قراره، وسيواصل تحدّي الشيخ ومَن خلفه حتى النهاية.

الساعة التاسعة تقريباً وصلت سيّارة العقيد أحمد فتيني ومعه حرّاسه المسلحون. لم يسمح له المتظاهرون بالدخول إلى القسم. حصل تبادل للسباب بين واحد من الحرّاس والمحامي حمّود شنطة وبسرعة تطوّر الموقف. رمى جابر شنيني أول حجر على الزجاج الأمامي للسيّارة، تبعه العشرات، فاضطرّ العقيد للانسحاب وقد تهشّم زجاج معظم نوافذ السيّارة. التقطت صوراً للسيّارة الهاربة، رغم أنّ الغبار الذي أثارته عجلاتها لم يسمح لي بتوثيق مشهد الفرار بوضوح. احتفل المتظاهرون بانتصارهم، وراحوا يرشقون بوابة القسم المغلقة بالحجارة، محدثين دويّاً هائلاً، أتصوّر أنّه ألقى الرعب في قلوب الجنود المختبئين في الداخل. تسلّق شاب كثيف الشعر السور وأسقط اللوحة المعدنية التي تعلو البوابة، ولم يبق أحد إلّا داسها بقدميه. شابّ آخر تسلقّ السور وهو يحمل هراوة، واقترب من عمود الإنارة الوحيد الذي يضيء مدخل القسم ليلاً، وحطم لمبته الشبيهة

ببطيخة فتناثر زجاجها كالملح. آخرون قطعوا الكهرباء. كانوا في حالة من الهيجان خارجين عن أطوارهم، وكأنّهم أطفال يحطّمون ألعابهم للاستمتاع. كان وضعاً غريباً، فهؤلاء الناس الذين يشعرون بضغينة خفيّة ضدّ الدولة، ها هم تتاح لهم الفرصة، وبإيعاز من الدولة نفسها، للتنفيس عن غضبهم المكبوت وإذلالهم المتراكم باستهداف أحد رموز هذه الدولة، والمؤسّسة الأكثر تمثيلاً لها في منطقتهم. قلت في نفسي: «يا لهم من محظوظين!». وثّقت كلّ ما جرى بكاميراتي، وشعرت أنا أيضاً بالحماسة. ثمّ بدا أنّ المتظاهرين يتأهّبون لاقتحام القسم... كان مسار الأحداث التصاعدي يشير إلى ذلك بصورة محتومة.

فجأة ظهرت سيّارة دون أرقام، وترجّل منها شخص ملامحه لا تخطئها العين – كان من المخابرات – وطلب منّي أن أصعد معه. نظرت في الساعة فوجدتها تشير إلى العاشرة بالدقيقة. ركبتُ معه وأنا مندهش قليلاً من هذه الدقة في المواعيد، ونحن الذين نعجز عن الانضباط في جميع مواعيدنا، دولة ومواطنين، ولكن يبدو أنّ جهاز المخابرات لا تنطبق عليه هذه القاعدة.

أُنزلتُ أمام مقرّ النيابة في بلدة الجروم. كان هناك الآلاف من البشر يتظاهرون تحت شمس الظهيرة اللاهبة. لمحتُ سيّارة مدير قسم شرطة باب المنجل واقفة قريباً من مبنى النيابة. معظم المتظاهرين كانوا طلّاباً وطالبات في المراحل الابتدائية والإعدادية، أُخرجوا من مدارسهم بالزيّ الرسمي.

شققتُ طريقي من بينهم بعسرٍ لا يوصف، الغضب والشحن الزائدان جعلاهم متراصّين ولا يشعرون بشيء. كنت بحاجة إلى جهد عضلي بالغ لأزيحهم واحداً واحداً عن طريقي. بدا لي كأنّهم تجرّدوا فجأة من طفولتهم وضعفهم، وصاروا غلاظاً وقحين لا يُبالون بأيّ

تربية أو تهذيب. كانوا يصرخون حتى انتفخت العروق في حناجرهم، وهم يطالبون الحكومة بالعدالة وبإنصاف جليلة. لا أنكر أنّني شعرت بالتأثر من هذا التضامن، الذي حفر في نفسي ندبة لم أُشفَ منها أبداً. كانوا أولاداً وبناتٍ في عمر الورود تحرّكوا للدفاع عن زميلة لهم. حتى لو كنت حجراً فإنّ رؤية هؤلاء الصغار كانت شيئاً يفوق قدرتي على التحمّل.

دخلت النيابة بعدما أظهرت للجنود بطاقتي الصحافيّة. كان الرواق مزدحماً، وفي حالة من الفوضى. اقترب منّي حسين البطاح منظم التظاهرة وهو يحمل نسخة من جريدة «الشعب»، ونعتني بألفاظ غير لائقة، كان في حالة هياج جنونية والشرر يقدح من عينيه، حاول الاعتداء عليّ، لكنّ العسكر أمسكوه وأبعدوه عنّي. لاحظتُ العيون تركّز نظراتها عليّ وتكاد تنهشني حيّاً. لقد نشر رئيس التحرير الحوار الذي أجريته مع جليلة وبالتالي صرت مكشوفاً. تصل الصحف من العاصمة إلى هنا بعد الظهر، ولكنّها لسوء حظي وصلت اليوم مبكرة. هل هذا خطأ في الحسابات أم متعمّد؟ هل هناك مَن له مصلحة في تعريض حياتي للخطر على أيدي الجموع الهائجة؟ مع هذا الرجل الذي نعمل معه علينا أن نتوقّع أيّ شيء.

خرجت جليلة من مكتب رئيس النيابة مخفورة بجنديّين، وخلفها جدّها والناشطة الحقوقيّة سلام. عندما رأوني توقفوا، بدا أنّهم لا يصدّقون أنّني أنا نفس الشخص الذي عرفوه. خاطبتني سلام وعلى وجهها امتعاض واشمئزاز: «وعاد لك وجه تأتي إلى هنا؟!». سألتها متغابياً: «ماذا حصل؟». ردّت ونار جهنّم تخرج من فمها: «بسبب الحوار التافه المفبرك الذي نشرته أصدر رئيس النيابة مذكّرة بحبس جليلة واعتقال الولد البريء الذي اتّهمته بهتاناً». أردت الدفاع عن نفسي ولكنّ لعثمة لعينة عقدت لساني. تكلّمت جليلة

بصوت مجروح: «لماذا... لماذا... أنت أيضاً اغتصبتني». سالت الدموع على خدّيها وأجهشت بالبكاء. سحبها العسكر بالقوّة إلى الحجز، ولحق بها جدّها وهو يصب عليّ دعاءه الحاقد الشرّير، أمّا الناشطة سلام فاكتفت بالبصق على وجهي، ثمّ خرجت إلى الشارع وراحت تحرّض العامّة ضدّي.

ارتجفت ركبتاي واصفرّ لوني عندما سمعتهم يهتفون بالشعار الذي لقنتهم إيّاه الناشطة الخبيثة سلام: «مُطَهَّر فضل يا ملعون، ضميرك مات يا مأفون». توتّر الجوّ بسرعة شديدة جداً، ورأيت الجنود يُطلقون الأعيرة التحذيرية لمنع الحشود من الدخول والوصول إليّ. ظهر أشخاص لا أعرفهم وطلبوا منّي المغادرة من الجهة الخلفيّة، وقالوا لي إنّهم قد أمّنوا لي وسيلة للهرب. قفزت من إحدى النوافذ، وقادني رجل ذو كتف مائلة بين أزقة ضيّقة، ثمّ وجدت سيّارة مرسيدس زرقاء ذات زجاج عاكس في انتظاري، صعدت في المقعد الأمامي، أغلقت الباب خطفاً، ونسيت في غمرة ذعري وارتباكي أن أشكر الرجل ذا الكتف المائلة. طارت السيّارة مبتعدة، ولم أحاول النظر إلى الوراء، كنت أتخيّل أنّ هناك حشداً متعصّباً من سفّاكي الدماء يتعقبني.

بعد دقائق قليلة خرجنا من بلدة الجروم، وشعرت بالاسترخاء مع البرودة المنعشة التي يبثّها المكيّف، والموسيقى الكلاسيكيّة المنبعثة من جهاز mp3. كانت الموسيقى تناسب ذوقي، قطعة رائعة ليوهان سباستيان باخ. ومن الحقيبة التي تفصل بين مقعدينا، أخرج السائق – الذي تفوح منه رائحة عطور ثمينة وله شارب مهيب يليق بضابط – علبتي بيرة مثلجتين، وناولني إحداهما. شربنا واستمتعنا بمذاقها الذي يُذكّر بالجنّة. تبادلت معه كلمات قليلة عامّة عن جودة البيرة وأنواعها، ثمّ لاذ كلانا بصمت لذيذ.

يبدو أنّني غفوت من شدّة التعب، فلم أنتبه إلّا ونحن نقف عند إشارة مرور في أحد شوارع مدينة الحُديدة. مسحت اللعاب الذي سال من فمي، ابتسم الرجل المغمّس بالعطر وناولني منديلاً ورقيّاً. سمعته يتكلّم من وراء السحاب: «صباح الليل!». كنت أشعر بالغثيان وفقدان الإحساس بالزمن، ووجدت صعوبة في فتح عيني اليسرى، نظرت في المرآة فوجدت قذىً أصفر عالقاً بأهدابها، وبياض العين محمرّ كبركة دم. قال الرجل المغمّس بالعطر: «يبدو أنّك صافحت شخصاً مُصاباً نقل إليك الميكروب، لنشترِ لك قطرة».

توقفنا أمام صيدليّة، نزل ولم يطلب منّي نقوداً، بعد دقيقة عاد وناولني قطرة للعين، شكرته وأردت أن أدخل يدي في جيبي، فحدجني بنظرة حـادّة جعلتني أتراجع محرجاً. بعد عشر دقائق وصلنا إلى فندق فخم، من فئة الخمس نجوم. تسلّمت مفتاح الغرفة المحجوزة باسمي، شكرت الرجل المغمّس في العطر على ما قام به معي، ثمّ صعدت إلى غرفتي.

كانت غرفة بديعة تطلّ على البحر، رميت حقيبتي على كرسيّ، واستلقيت على السرير غير مُصدّق أنّي نجوت حقاً. استخدمت القطرة لعينيّ، ثمّ اتّصلت بزوجتي. لست من النوع الذي يطيب له التواصل كلّ حين مع عائلته، لكنّ الكثير من الهواجس ساورتني في هذا اليوم، فتلهّفتُ للاطمئنان عليهم. أخبرتني حورية أنّ هاتفي المحمول – الذي أُعطي رقمه للعموم – لم يكفّ عن الرنين منذ الصباح. سكتّ ولم أُعلّق. شعرتُ بيدي التي تمسك الهاتف تتعرّق وأذني تسخن. قالت بصوت خافت مختلج إنّ العديدات من صديقاتها قد اتّصلن بها مستنكرات مادّتي المنشورة في جريدة «الشعب». قلت لها إنّني سأشرح لها كلّ شيء عندما أعود إلى البيت. صمتتْ وبدا لي كأنّها تخفي شيئاً ما... في تلك اللحظة بالذات لم أكن مستعدّاً لمعرفة

المزيد من ردود الأفعال. كنت أودّ أن أسألها هل قرأت الحوار، ولكنّني فضّلتُ إيقاف هذا النزف النفسي، وتمنّيت لها ليلة سعيدة وأغلقت الخط.

تشرّبت عيناي الدواء وجفّتا، وشعرت بتحسّن فوري في عيني اليسرى. اتّجهت إلى الحمّام، واغتسلت ساعة كاملة مستمتعاً بالماء البارد الذي هدّأ أعصابي وبثّ الحيويّة في دمي. ارتديت ملابسي وأنا أشعر بجوع شديد. فتحت حقيبتي وخاب أملي إذ كانت ألواح الشوكولاتة قد نفدت. خرجت إلى الشرفة وشعرت بدفقة ارتياح تغمر روحي وأنا أنظر إلى البحر المتلألئ. كانت الشمس في مواجهتي تماماً، واقفة في الأفق تحدّق في عينيّ، فبدت لي كأنّها شخص يتحدّاني ويستفزني بنظرته الأفقية الحقيرة المباشرة. عدتُ أدراجي وأرخيتُ الستائر الأرجوانية الثقيلة، وشغلت التكييف.

اتّصل رئيس التحرير وسألني عمّا حدث. حكيتُ له كلّ شيء بالتفصيل، فطلب منّي أن أكتب تغطية صحافية موسّعة، وأرسلها إليه على وجه السرعة. انكببت على كمبيوتري المحمول، وكتبت على نَفَس واحد دون توقّف أكثر من ثلاثة آلاف كلمة خلال ساعة واحدة، وأرسلتها عبر الإيميل على الفور، دون أن أُجري عليها أيّ مراجعة. وما هي إلّا عشر دقائق حتى اتّصل بي رئيس التحرير مرّة أخرى وطلب منّي أن أفتح الفايسبوك، وأدخل صفحة الناشطة سلام. شعرت من لهجته بشيء غير مريح، وكأنّه قائد عسكري يأمرني بصدّ غارة العدوّ.

(منشور) – سلام مهدي:

الرجل ذو النظرة البائخة: الصحافي مُطَهَّر فضل الذي لا يستحق أن يحمل اسم والده صاحب التاريخ النضالي العظيم هو شابّ وسيم، وذو موهبة في كتابة المقالات والتحقيقات لا أحد ربّما

في البلاد كلها يمتلك مثلها، ولكن مع الأسف الله «...» أحياناً ويهب نعمة لمن لا يستحق. كلنا قرأنا الحوار المُمنتج الذي نشره بلسان الطفلة جليلة في صحيفة الشعب الرسمية، مُبرهناً على أنّه قد خان الأمانة الصحافية، ولكنّني سأذكر أيضاً حادثة شخصيّة ستكشف زيف السمعة التي يحظى بها كصحافي محترم.. فقد جمعتنا ليلة أمس عزومة عشاء في مطعم، وعندما كنت أتكلّم مع الزميلين سامي قاسم وحسين البطاح عن الشيخ (ب) الذي اغتصب الطفلة جليلة في قرية باب المنجل وذكرت أنّ النظام بأكمله قد وقف مع المغتصب، ركّزت بصري على أخينا مُطَهَّر فألفيته يستمع إلينا في وضعيّة عدائيّة، لمحت فيها صورة من يرغب في تأديبنا وكان يضع يديه في فتحتي جيب البنطلون وذراعاه منفرجتان تعبيراً عن رغبته في التحدّي والتصدّي ورأسه مائل جانباً ناظراً إلينا بنصف عين، باستخفاف، بصلف، وكأنّه يقول في نفسه: «من أنتم أيّها الحثالة لتتكلموا عن أسيادكم هكذا». وكان حاجباه معقودين تعبيراً عن الوعيد والنذير بالشرّ الذي يمور بداخله. لقد لاحظت مرّات عديدة طيلة جلستنا التي امتدّت لساعة تقريباً أنّنا كلّما تطرّقنا إلى النظام بسوء كان يتّخذ هذه الوضعيّة العدوانيّة، وترتسم على وجهه تلك التكشيرة المستهزئة التي تبطن تهديداً خفيّاً، وكأنّما يتوعّدنا في نفسه بكتابة تقرير للأمن يوقفنا عند حدّنا نحن الرعاع. شيء في منتهى الخسّة والدناءة أنّه لا يتعاطف مع الطفلة المظلومة المغتصبة، بل ويبدو منحازاً لصفّ الشيخ الذي اغتصبها ومستعدّاً للدفاع عنه وحمايته من ألسنتنا، ولقد استشعرت رغبته في تكميم أفواهنا لكيلا نشوّه سمعة الشيخ!

تعليقات:
(ر.ع): هذا الصحافي مشارك في الجريمة ويجب أن يُحاكم.
(س.ق): مُطَهَّر فضل كان يسارياً معارضاً ولكنّه باع نفسه للنظام وهو الآن يمسح أحذية أسياده وينظفها من القذارة.
(ح.ب): هذا ليس مُطَهَّر، هذا مُنجّس!
(ع.ع): ليكن في معلوم الجميع أنّ زبانية النظام صَوّروه وهو يمارس الشذوذ وهم يبتزونه بهذا التسجيل ولذلك ينفّذ لهم جميع طلباتهم.
(ط.م): العمود الصحافي الذي يكتبه في جريدة «الشعب» نحيل مثل وتر الربابة وضئيل القيمة مثل ذبابة.
(م.ص): لقد أساء هذا المخلوق إلى سمعة قبيلتنا.
(ج.د): الله سينتقم منه وسترون.
(م.أ): كفّوا عن شتمه وتجاهلوه وإلّا فإنّ النظام سيكافئه بمنصب رفيع!
(ن.ح): لا أصدّق أنّ مُطَهَّر فضل يرتكب غلطة فادحة كهذه.. ينبغي أن نتحرّى أولاً.. ربّما جريدة «الشعب» هي التي قامت بمنتجة الحوار وليس مُطَهَّر فضل.

(منشور) – مُطَهَّر فضل:
الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي التي تتكسّب من نكاح الصغيرات، وكوّنت لها ثروة بالدولارات الحرام، واشترت لها قصراً فخماً في حيّ حدة الراقي، ما هي إلّا بوق للدول الأجنبيّة التي تريد حشر أنفها في شؤوننا الداخليّة. هذه السيّدة تهتمّ بقضايا الطفلات لأنّها تحسدهنّ، تغار منهنّ لأنهنّ يحصلن على اللذة، صدّقوني هذه المرأة مكبوتة جنسيّاً، وتشعر بمتعة تعويضيّة

عندما تُنقّب في سراويل البنات الصغيرات وتطالب بفحص طبّي لهنّ. حقاً جمعتنا المصادفات الغريبة للعشاء معاً في مطعم شعبي، وكان من سوء حظّها أنّها فتحت حقيبتها الواسعة، فلمحتُ عَرَضاً عضواً ذكريّاً صناعياً بداخلها - وهنا أوجّه لزوجها المحترم نصيحة لوجه الله بأن يُفتّش حقيبتها عندما تعود بالسلامة إلى عشّ الزوجية - أمّا الفندق الذي تنزل فيه فإنّني سمعت من أشخاص صادقين أنّها إنسانة متحرّرة جدّاً، وقد أكّدوا أنّها تمارس الجنس الفموي مع (الأخدام).

تعليقات:

(قاسم الطحان)، رئيس تحرير جريدة «المصابيح»: كيف حالك يا حبيب؟ سوف ننشر غداً ملفّاً عن الناشطين والناشطات، تجّار الشنطة، الذين يخونون الوطن ويتعاملون مع المنظمات الأجنبيّة المشبوهة، ونحن نستأذنك في نشر شهادتك عن الناشطة سلام مهدي ضمن الملفّ. تحيّاتي.

(غ.ن): لعنة الله عليها هذه المرأة الزانية، يجب على الشرطة أن تُداهم غرفتها في الفندق وتقبض عليها مُتلبّسة، وأن يُطبّق عليها شرع الله، وأنا سأكون أول من يرجمها إن شاء الله.

(ص.خ): مؤسف أنّها تستخدم ذاك الشيء البلاستيكي مع أنّ الشباب الحلوين موجودون.

(ز.ك): شكراً للعزيز على تنبيهه لنا. حقائب النساء تحتوي على بلايا يعلم الله ما هي. وأنا أطالب بتشكيل هيئة تأديبيّة تطوف على الشوارع والأسواق لتفتيش حقائب النسوان.

(د.م): شرموووطة.

(ف.ت): يا إخوان، ألا تعرفون اسم الفندق الذي تنزل فيه هذه الناشطة قبّحها الله؟ كاتب البوست نسي مع الأسف أن يذكر اسم الفندق.

(ع.خ): إلى الأخ (...) لماذا تسأل عن اسم الفندق؟ هل تريد أن تكون أنت أيضاً من حطب جهنّم؟!

(ف.ت): معاذ الله يا شيخ (...) أنا قصدي تجنّب ألنزول في هذا الفندق، لأنّني أسافر بكثرة لمحافظة الحديدة.

(ع.خ): بارك الله فيك يا أخ (...) لأنّ واجبنا النهي عن الفحشاء والمنكر، وفضح الذين يأتون الفاحشة من قومنا والتشهير بهم على رؤوس الأشهاد.

(هـ.و): منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات التي ترأسها سلام مهدي وأشباهها من المنظمات ترهن البلد للخارج.

(ج.أ): فندق النعيم!!

تناولت عشائي في مطعم الفندق ثمّ رجعت طائراً إلى غرفتي لأتابع الفايسبوك الذي صار ساحة حرب مشتعلة.. المئات يتبادلون ضربات السيوف، والطعنات تفتح جروحاً وتُريق دماً من صفّنا ومن صفّهم.

الساعة التاسعة اتّصل بي رئيس التحرير، وهي الساعة التي يكون فيها مزاجه رائقاً بعد أن يكون قد عبّ ثلاثة أقداح من الويسكي:

- كيف وجدت الفندق؟

- جميل ولكنّه خاوٍ من النزلاء.. يبدو مهجوراً.

- جيد.. يمكنك إذاً أن تستمتع بالمسبح وحدك.. اسمع، لقد حوّلتُ لك مبلغ مئة ألف ريال.

- أشكرك، ولكن أنا سآتي غداً صباحاً إلى صنعاء.

– لا.. لن تُغادر الحديدة حتى إشعار آخر.

– ولكن..

– سأحوّلُ لك مائة ألف أخرى.

– ما هذا الكرم المفاجئ؟

– لو تعرف من هو الشخص الذي اتّصل بي قبل قليل لبلعت لسانك وكففت عن معارضتي.

– من هو؟

– اسمع، طلبتُ من إدارة الفندق تزويدك بربطة قات وعروسة سجائر لتسهر.

– سجائر.. ولكنّني لا أدخن!

– إذاً فقد حان الوقت لتدخن.

– ما هو المطلوب؟

– أريدك أن تكتب مقالين عن مدير قسم شرطة باب المنجل، الأول فيه هجوم معتدل وسننشره عندنا، والثاني فيه هجوم وسخ، أقصى ما تتفتّق عنه مخيّلتك من وساخة، وسننشره في جريدة «المصابيح» باسم مستعار.

– هل فعلها؟

– نعم، قبل ساعة سلّم الشيخ بكري للنيابة.

– لا أدري، ولكن رأيي الشخص أنّنا قد انتهينا منه ولم تعد هناك مصلحة من قرص أذنه.

– من تحدّث عن قرصة أذن؟؟ هذا الرجل أمره وزير الداخليّة بإطلاق سراح الشيخ ولكنّه تجرّأ على عصيان الأمر.

– ولمَ لا تحيله الداخليّة للجنة تحقيق؟

– في هذا التوقيت لا نستطيع المساس به.. لا نستطيع توقيفه أو حتى نقله.

– مفهوم... سأقوم بما طلبته منّي.

– العقيد أحمد فتيني صبرنا عليه سنوات وهو يطرش.. يطرش طرشاً عفناً. بالمناسبة صاحبتك سلام ارتكبت غلطة مميتة في المادّة التي كتبتها عنك.

– كيف؟

– ألم تلاحظ شيئاً؟

– لا.

– هناك تجديف، سوء أدب مع الله.

– آه، تذكرت.

– فرصة مثل هذه لا تُفوّت، سأتّصل بالشيخ كفروت ليُكفّرها.

– جيد.

– ستكون اللبانة في أفواه خطباء الجمعة.

– ملعونة. تستحق.

انشغل رئيس التحرير رياض الكيّاد بالكلام مع شخص ما وأغلق الخط.

بالنسبة إليّ، تعوّدت على أسلوبه المُتعجرف في إنهاء مكالماته، الذي يظهر بوضوح أنّه يعتبر مَن يتعامل معهم بمثابة مُستخدمين أدنى منه، أقلّ شأناً من أن يأبه لآداب الحوار معهم. ولكي أتخلّص من الأثر النفسي المزعج الذي تركته مكالمة رئيس التحرير، تصفّحتُ موقعاً إباحيّاً ومارست العادة السرّية، وبعدما تخلّصتُ من التوتّر ومن مزاجي العكر، رحتُ أكتبُ وأتخيّل.

اتّصلت زوجتي عدّة مرّات، ولكنّني تجنّبتُ الردّ عليها، كنت أشعر بعقدة الذنب تتفاقم بداخلي، لأنّها كانت المرّة الأولى التي أُقدم فيها على فعل ذاك الشيء منذ زواجنا، لكنّني لا أنكر أنّه كان شعوراً رائعاً، تخيّل نفسي أضاجع تلك الفتاة السمراء الفاتنة.

سمعتُ طرقاً على الباب، توقفت عن الكتابة ونهضت لأفتح. ناولني عامل الخدمة ربطة قات شامي فاخرة، وعروسة سجائر. لاحظت أنّ عين النادل كانت تلاحق عروسة السجائر، أمرته أن ينتظر، أزلت غشاءها النايلوني الرقيق ونفحته علبة، فانصرف مسروراً. غسلت القات ثلاث مرّات، وقدّرت أنّ ثمنه لا يقلّ عن عشرة آلاف ريال.

منحت نفسي استراحة مدّة نصف ساعة، وأخذت أقطف الوريقات الخضراء الطريّة كنهود العذارى وأكوّرها في فمي. كنت قد عزمت على توزيع علب السجائر على معارفي من المُدخّنين، لكنّ منظر العروسة الممدّدة على السرير كان مغرياً للغاية، وقدّرت أنّه حان الوقت فعلاً للترفيه عن نفسي، والحصول على المتع الصغيرة التي تهبها الحياة. اتّصلت بخدمة الفندق وطلبت قدّاحة، وفّروها لي في غضون دقيقة، امتدّت يدي إلى العروسة وسحبت علبة، ودخنت أول سيجارة في حياتي.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أنهيت عملي، وأرسلتُ المقالين المطلوبين. وكما توقّعت، اتصل رئيس التحرير رياض الكيّاد يُحيّيني ويشدّ على يدي، قلت له رجاءً كفّ عن الشدّ، لأنّ سبّابتي ما زالت توجعني، فضحك حتى شرغ. أخبرني أنّ العقيد أحمد فتيني قد تأكّد عداؤه للدولة، وتكشّفت أفعاله الرعناء، لأنّه تسلّم من النيابة مذكّرة قبض قهري على الولد عطا الذي مارس التزاني مع جليلة، ولكنّه بدلاً من أن يُرسل العساكر لإلقاء القبض عليه، بعث إلى بني مساعد يُحذرهم ويطلب منهم إخفاء ولدهم. قلت له إنّه خائن للوطن ويستحق نزع الرتب التي تجثم على كتفيه.

عدت للفايسبوك، كنت أكتب وأتلقّى مئات التعليقات، كان عليّ أن أردّ على التعليقات، وفي نفس الوقت أن أترقّب ما تنشره

سلام مهدي وأمرّ سريعاً على غائطها. تقريباً الساعة السادسة صباحاً غمرني النعاس بلطفه.

الأحد (59)

ما كدت أغفو خمس ساعات حتى بدأ الإزعاج. كان هاتفي المحمول يرنّ بلا توقف، وراح الهاتف الداخلي للفندق يتمرّن على الرنين هو الآخر. ثمّ سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، ما لبث أن أخذ يتصاعد ويتقارب. نهضت دائخاً وفتحت الباب، وأنا غير قادر على الرؤية بسبب جفنيّ الملتصقين بالرمد الذي يشبه الغراء. أخبرني النادل أنّ سيّارة مُرسلة من طرف الشيخ بكري حسن تنتظرني في الأسفل، سألته لماذا أرسلها، فردّ بأنّه لا يعرف، صرفته وأنا أتعجّب من بلاهتي. غسلت عينيّ بالماء الحارّ والصابون واستخدمت القطرة، فاستعدت قدرتي على الإبصار بصورة مقبولة. أخذت هاتفي المحمول وفتحت أيقونة الرسائل، كانت هناك رسالة من محامي الشيخ حمّود شنطة تزفّ البشارة بأنّ الشيخ قد أُطلق سراحه بضمانة تجارية، ورسالة من هاتف الشيخ – لا أظنّ أنّه من كتبها نظراً لأسلوبها المُتكلف – يدعوني فيها لتلبية دعوته على الغداء في بيته بقرية باب المنجل احتفالاً بإطلاق سراحه.

شعرت بالضيق، لأنّني كنت قد نويت ألّا أضع قدميّ مرّة أخرى في قرية باب المنجل إلى أن أموت. وبينما كنت أفكّر في

عذر مقبول للتهرّب من عزومته، إذا بهاتفي يرنّ ويظهر رقم الشيخ. جاوبته وحاولت التملّص من دعوته، ولكنّه – وكأنّها عادة تأصّلت في نفسه – لم يترك لي مجالاً للرفض، وأمرني بلهجة حازمة أن أطير إليه.

حلقت ذقني واغتسلت. ارتديت بذلة نظيفة، ووضعت ملابسي المتّسخة في الكيس الخاصّ بالغسيل. كانت لديّ رغبة حارقة في فتح الفايسبوك، لكنّي كنت أعرف أنّني إذا فتحته فسأبقى مُتسمّراً أمام الشاشة لساعات دون أن أشعر بنفسي. رتّبت حقيبتي وتأكّدت من وجود أدواتي فيها ثمّ خرجت.

طلبت من السائق الذي له سحنة كبش أن نمرّ في طريقنا على مكتبة تبيع الجرائد. جلستُ في المقعد الخلفي لأتمكّن من فتح كمبيوتري المحمول على راحتي وأتصفّح الفايسبوك. كانت السيّارة من نوع ميتسوبيشي باجيرو ذات الدفع الرباعي حمراء اللون آخر موديل، ومقاعدها ما تزال مُلبّسة بغشاء النايلون، ورائحة الموادّ الكيماويّة تنبعث بقوّة من كلّ قطعة فيها. كان مزيجاً يخنق الأنفاس ويُسمّم الرئتين. سألتُ السائق وأنفي مُتغضّن متى اشترى الشيخ هذه السيّارة، فردّ عليّ مُلتفتاً للوراء ورذاذ الشمّة البيضاء[1] يتطاير على وجهي بأنّه أحضرها للتوّ من فوق الباخرة. عقدت الدهشة لساني، وأقنعت نفسي بأنّ هذه هي رائحة الثراء، وربطتها برائحة المليارديرات، وتخيّلت القصور الفخمة التي يعيشون فيها، والسيّارات الجديدة التي تعبق دائماً بروائح كهذه. ولكنّ أنفي الذي له ميول ماركسيّة لم يسترحِ ولا اقتنع بخواطري.

عرّجنا على مكتبة، اشتريت كلّ الجرائد الصادرة في ذلك اليوم، لمّ تابعنا طريقنا. أراد السائق الذي له سحنة كبش أن يُجاذبني أطراف

[1] أوراق التبغ مطحونة طحناً ناعماً، وتوضع بين اللثة والأسنان. وهي تحوي كميات نيكوتين أكبر من تلك الموجودة في السجائر.

الحديث، لكنّني تجاهلته، إذ لم أكن على استعداد لمسح وجهي كلّما نطق بجملة. بدأت بتصفّح جريدة «الشعب»، ورأيت موضوعي عن العقيد أحمد فتيني منشوراً في الصفحة الأخيرة. قلّبت الصفحات الداخليّة، فوجدت فيها مقالات تهاجم المنظمات الحقوقيّة، وتذكر سلام مهدي بالاسم. فتحت جريدة «الأيّام» المعارضة، وبحثت عن موضوعات تهاجمني فلم أجد، كان هناك خبر صغير في الصفحة الأولى وبقيّته منشور في صفحة داخليّة، يشير إلى تسليم الشيخ بكري حسن للنيابة في وقت متأخّر من مساء أمس. لم أتجرّأ على تصفّح جريدة «المصابيح»، كنت أتمنّى في أعماق نفسي أن لا يكونوا نشروا مادّتي. أبقيتها مطويّة، وتصفّحتُ بقيّة الجرائد.

لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أمام بوّابة ضخمة، تلوح خلفها فيلا ناصعة البياض – يبدو أنّني أخذت غفوة في الطريق – ضغط السائق على البوق عدّة مرّات ليفتحوا له. أنزلت الزجاج فلفحني هواء حارّ أعاد الدفء إلى عظامي التي تجمّدت من التكييف القويّ للسيّارة. نظرت إلى الأرض التي اكتسبت شيئاً من الخضرة، دققت النظر، لم يكن عشباً، بل الحسك الشوكي. فُتحت البوابة ودخلنا، وبالكاد حصلنا على موقف لسيّارتنا. كان الحوش على اتّساعه مكتظاً بالسيّارات. ترجّلت من السيّارة ونظرت إلى الأسفل، كان الحسك يفترش الأرض هنا أيضاً. مشيت خلف السائق وأنا أُحاذر أن تلتصق أشواك الحسك بطرف بنطلوني.

أمام المدخل جثمت سيّارة فارهة مُزيّنة بعقود الفل، فخمّنت أنّها سيّارة الشيخ. عندما مررت بقربها رأيت مكتوباً على زجاجها الخلفي «صائد الغزلان». وعند باب الفيلا وقف الشيخ شخصيّاً لاستقبالي، رحّب بي وأدخلني إلى قاعة الطعام، وطلب من معاونيه الاهتمام بي، متمنّياً لي شهيّة طيّبة ثمّ انصرف إلى الديوان. معظم

المدعوّين كانوا قد سبقونا وتناولوا غداءهم. قدّموا لي وللسائق ولأربعة رجال متأخّرين مثلنا اللحم والأرزّ ثمّ الخبز المُفتّت المسكوب عليه عسل السدر العالي الجودة والسمن البلدي – كانت وجبة تستحق السفر – ملأت معدتي حتى إنّني بالكاد استطعت النهوض والوقوف على قدميّ.

اتّجهت للمغاسل بخطوات بطيئة، وهناك صادفت آخر شيء كنت أتوقعه، رأيت البنت السمراء التي أطلت عليّ من النافذة في بيت جابر شنيني واقفة تخدم الضيوف، بيدها منشفة بيضاء وزجاجة عطر. غسلتُ يديّ بالصابون وتمضمضتُ ومسحتُ فمي بالماء، وما كدت أستدير حتى رأيتها تندفع نحوي وعلى فمها ابتسامة كشروق الشمس. أخذت منها المنشفة وجففت يديّ وفمي، أرادت أن تستعيد المنشفة فأمسكتُ يدها وابتسمت. نظرتْ إليّ وتنهّدتْ. سألتها عن اسمها، فردّت بسرعة «منى». نظرت إلى كفّها، كانت تضع في بنصرها الأيمن خاتماً بلاستيكياً لونه أبيض تزيّنه ماسة زجاجيّة رخيصة. رفعتُ كفّها وطبعت عليه قبلة. شهقتْ وبدا عليها الخجل الشديد. نظرت في عينيها الرائعتين، وأردتُ أن أُقبّل كفّها مرّة أخرى، فإذا بها تسحب يدها قائلة: «واه.. أنا التي من المفروض أن أُقبّل يدك». أدركت أنّ منى تنظر إلى نفسها نظرة دونيّة، وبسرعة البرق مرّت في ذهني خواطر سوداء كشريط سينمائي، مُتصوّراً أنّ الشيخ المُولع بالفتيات الصغيرات قد «أخذها» بطريقة مُهينة، وألبسها ثوب الذلّ، فتصرّفت معي على هذا النحو. وعلى الفور أحرقت الغيرة كبدي وأظلمت الدنيا في عينيّ.

تنحنح سائق الشيخ الذي له سحنة كبش وهو يلجُ إلى المغاسل، رمقني بنظرة غير مريحة، سرعان ما لملمها ودفن رأسه تحت صنبور

الماء غاسلاً شعر رأسه المُعقد. ناولتُ منى المنشفة، فبخّت العطر على قميصي وكفيّ ثمّ تراجعت للوراء ورأسها مُنكّس.

عندما دخلت الديوان، حيّاني الشيخ بتحيّة مجلجلة، وأفسح لي مكاناً بجواره. أعطاني من قاته، وجلب لي خدمه قارورة مياه غازيّة وعبوة مياه معدنيّة ومبصقة ومناديل ورقيّة. كان بين الحاضرين جابر شنيني رئيس المجلس المحلّي، والمحامي حمّود شنطة. تكلّم الشيخ بشماتة عن العقيد أحمد فتيني الذي تحوّل إلى ممسحة، وأمسى أحدوثة على كلّ لسان في طول البلاد وعرضها. قال إنّ جريدة «المصابيح» نشرت مقالاً تحت عنوان عريض: «ذئب بشري يتجوّل بزيّ عقيد في الشرطة». تحدّث فيه الكاتب عن أساليب التعذيب التي يمارسها العقيد أحمد فتيني في قسم شرطة باب المنجل، ومنها جلد الموقوفين بالقايش العسكري، والتعذيب بالكهرباء، والضرب بالمواسير الحديدية، والحرق بالسجائر، وصبّ الماء الحارّ على المناطق الحسّاسة من الجسم. ربّت الشيخ كتفي في إشارة إليّ لم أستحسنها، وتابع قائلاً: «وأشار الكاتب إلى الميول الشاذّة عند العقيد أحمد فتيني، وأنّه يتصيّد الغلمان ويوقفهم لأسباب واهية، ومن ثمّ يمارس معهم التعذيب الجنسي». وقف الشيخ فجأة وراح يؤدّي مشهداً تمثيلياً: وضع قبضته على ما بين فخذيه وثنى ركبتيه قليلاً، وقلّد ساخراً الصوت الأجشّ للعقيد أحمد فتيني: «أتعترف يا ولد وإلّا أهب لك أير الحمار».

ارتجّ الديوان بالضحك، وأمسك بعضهم ببطنه متوجّعاً مُظهراً أقصى قدر ممكن من الولاء للشيخ الذي قعد في مكانه وهو منتشٍ، يهز رأسه وكأنّما يُهنّئ نفسه. تناثرت التعليقات الماجنة من الأفواه دون وازع، وكانت القهقهات تفور من بقع مختلفة وتنسكب على السجّاد كقهوة تغلي على النار. أوقف الشيخ هذا اللغط بضربات من

خيزرانته على المبصقة النحاسيّة، وراح يتكلّم وهو ينظر إليّ بإعجاب: «وأمّا التأديب الحقيقي لهذا اللوطي السفيه فكان الصور.. صور بشعة حتى إبليس يتقزز منها.. بصراحة أقلّ ما يُقال أنّ كاتب المقال قد شخّ عليه».

ذُهلتُ عندما سمعت الشيخ يذكر الصور.. قلت في نفسي مبهوتاً «عن أيّ صور يتحدّث.. أنا لم أرسل لهم صوراً». ثمّ أمر الشيخ بإحضار الجريدة. دخل السائق الذي له سحنة كبش وهو يحمل تلّة من النسخ، وضعها عند قدميْ الشيخ، ثمّ قام خدم آخرون بتوزيع النسخ على الحاضرين، وكان عددهم يربو على الستين، بعضهم أخذ أكثر من نسخة. أماط السائق نسخة من الأرض ومدّ بها إليّ وكأنّه يناولني صدقة، كان ينظر إليّ نظرة مُقتحمة وهو يلعق شفته السفلى بلسانه. شعرت بالضيق منه، كانت كلّ حركاته تشعرني بعدم الارتياح، وهو أمر لم يسبق لي أن اختبرته من قبل بهذه الكثافة، ربّما هو تنافر الأرواح كما يُقال.

تطلعتُ إلى الصفحة الأولى، كان هناك مانشيت بالخط العريض في أعلى الصفحة يقول: «من مصائب جهاز الشرطة في اليمن: ذئب بشري يتجوّل بزيّ عقيد في الشرطة». وإشارة إلى رقم الصفحة، فتحتُ بسرعة على الصفحة المذكورة، وقرأت الاسم الذي ذُيّل به المقال فوجدت أنّه اسمي! لاشعورياً رجعت برأسي للوراء وكأنّ قنبلة انفجرت في وجهي. لا أعرف إن كان أحد لاحظ ارتدادي للخلف كمسدّس رمى طلقة لا يمكن إرجاعها أبداً إلى حجرة النار. تصبّبتُ عرقاً، ولم أفهم كيف أجازت الرقابة نشر صور خادشة للحياء كهذه... لقد نشروا صوراً لشبّان عراة تظهر آثار التعذيب على أجسادهم، وصوراً لصبيان – أحدهم عمره عشر سنوات – وآثار الضرب بالقايش العسكري تظهر بوضوح على أردافهم. لم أُعاود النظر للصور، وحاولت

مسحها من ذاكرتي مُطبقاً الجريدة. احمرّ وجهي، وشعرت بالخزي، بينما كان الجميع يبتسمون لي وينظرون إليّ نظرة إكبار وإعجاب وعيونهم تبرق. تملّكني غضب عارم، لأنّني كنت قد اتّفقت معهم على أن يُنشر المقال باسم مستعار. الآن فهمت لماذا كان الشيخ يشير إليّ بكلّ ثقة. أدركتُ أنّ هناك مؤامرة لتمريغ سمعتي في الوحل.

أردت الاتصال برئيس التحرير رياض الكيّاد لأكيل له الشتائم وأُبرّد قلبي، لكنّ الشيخ لم يترك لي فرصة لأحكّ رأسي. كان يسيطر علينا جميعاً بقوّة حضوره وسلطته الطاغية. قال إنّه اشترى خمسمئة نسخة ووزّعها مجّاناً في بلدة الجروم، وإنّه اتّصل برئيس تحرير جريدة «المصابيح» قاسم الطحّان وطلب منه إصدار طبعة ثانية من العدد على حسابه. قال إنّه سيوزّع الجريدة على جميع قرى الساحل من حدود السعودية شمالاً حتى باب المندب جنوباً.

أعماني القهر وأصمّ أذنيّ، حتى مذاق القات صار مرّاً في فمي. مضت ساعة أو أكثر وأنا في جوف تنّور أعتلف غضبي وألوم نفسي. لكنّي انتبهت عندما هدأت الضجّة فجأة وصمت الجميع، بل إنّهم حتى توقفوا عن التقلقل في مجالسهم وأصغوا بكلّ حواسّهم... كان الشيخ يتكلّم بصوت متهدّج من الانفعال: «أنا قلت لها الغنم حقك تعدّت على مزرعتي، فردّت أنّ مزرعتي محاطة بالزرب ولا تقدر الغنم على الدخول إليها، أثارت غضبي فأخذت شاة وسحبت خنجري وهدّدت بذبحها، فعادت تتمسكن وتسلّم عليّ في يدي، فرقّ قلبي وأفلتّها، وما كدت أستدير وأمشي ثلاث خطوات حتى سمعتها تتمتم من وراء ظهري، فاستبدّ بي غضب شديد، وهذه المرّة أخذتها هي ووضعت الخنجر على رقبتها، انقضّ عليّ كلبها فأرديته بطلقة من مسدّسي.. جررتها إلى السيّارة وقيّدتها بحبل، وعرّفتها من هو الشيخ بكري حسن».

الساعة الثامنة استأذنتُ بالانصراف، نفحني الشيخ ربطة قات تكفي تخزينة عشرة رجال، وأمر سائقه علي بأن يُرجعني إلى الحديدة. عندما صعدتُ إلى السيّارة تأكّدت من أنّني قد فقدت حاسّة الشمّ، قلت في نفسي «أحسن، هذه الحاسّة لم تعد تلزمني».

طوال الطريق حاولتُ الاتّصال بزوجتي، لكنّها تجاهلتني ولم تردّ. كنت مشتاقاً لسماع أصوات أطفالي هايل ونجاة وكرامة والاطمئنان عليهم. انتظرت أن يتّصل بي رئيس التحرير في موعده المعتاد لكنّه لم يفعل، كان يدرك أنّني سأسمعه «عرعرة» تطول جميع الجدّات اللاتي انحدرَ من أرحامهنّ حتى جدّته السابعة والسبعين. من جهتي لم أحاول الاتّصال، كنت منهكاً، وقواي العصبيّة تالفة. لقد فارقني الغضب، تبخّر عندما سمعت بأذني اعتراف الشيخ بفعلته. ما الذي حدث لي... أحاول الآن أن أغضب، أن أثير الحميّة في نفسي، ولكنّني عاجز عن استثارة هذه القوّة، شيء من الشلل ضرب مركز الطاقة في جسدي، فأمسيت هشّاً، مُنجرفاً مع الريح، لا أُبالي بتغيير مصيري.

عندما وصلنا إلى مدينة الحديدة توقفنا عند سوبرماركت ونزلنا. اشترى السائق علي كرتونة من مشروب الطاقة، واشتريت أنا تشكيلة من الشوكولاتة الفاخرة، وسخّاناً كهربائيّاً وبنّاً وسكّراً، ودزّينة من علب التونة. ضحك علي عندما رآني أتبضّع التونة قائلاً: «يا طنقح.. تشتري تونة وأنت في الحديدة عاصمة السمك!». لم أكن أعرف معنى كلمة «طنقح» فابتلعت الإهانة على مضض.

في الفندق لفظت كرة القات من فمي واغتسلت، وسخّنت ماءً وأعددت كوباً من القهوة. لست جائعاً، فما زالت وجبة الغداء الدسمة تشعرني بالشبع. أخرجت ربطة القات التي أخذتها من

الشيخ، وبدأت أخزّن دوراً ثانياً. تشجّعت ودخّنت سيجارتي الثانية، استمتعتُ بطعمها أكثر هذه المرّة.

صغتُ على عجل التغطية الصحافيّة لأحداث اليوم، وكان أهمّ ما فيها خبر إطلاق سراح الشيخ، وبعثتها كما هي دون مراجعة، إذ لم تعد عندي نفس لإعادة قراءة ما دوّنته. تردّدت لوهلة في تصفّح الفايسبوك. كان لديّ حدس بأنّ الجراد قد أكل الأخضر واليابس من سمعتي المهنيّة...

(منشور) – حسين البطاح:

مُطَهَّر فضل ما هو إلّا مخبر حقير مهمّته تكذيب واقعة اغتصاب الطفلة جليلة، وتزييف الوقائع، والتهوين من الجريمة برمّتها بالقول إنّ ولداً هو الذي فعلها معها برضاها، وهو مُكلّف من أسياده بمتابعة الذين يتعاطفون مع قضيّة الطفلة المغتصبة، وشنّ هجوم مضادّ عليهم في وسائل الإعلام لتشويه سمعتهم، وإجبارهم على التواري والانسحاب، لترك الطفلة بمفردها في مواجهة جبروت الشيخ.

تعليقات:

(م.ع): مقالة مُطَهَّر فضل في صحيفة المصابيح الهدف منها إلهاء الرأي العام وصرف انتباهه عن قضية الطفلة جليلة.

(س.ق): الصحافي مُطَهَّر كان يتظاهر بأنّه مستقلّ ومحايد ولا يؤيّد السلطة، ولذلك كسب ثقة القرّاء وحاز شعبيّة في أوساط المثقفين، لكنّ وجهه الحقيقي انكشف عندما راح يكتب تغطيات صحافيّة مُغرضة عن اغتصاب راعية غنم عمرها ثماني سنوات على يد شيخ متنفّذ.

(ي.أ): إنّه يعرف الحقيقة ولكنّه يُطيع التوجيهات الصادرة من جهة أمنيّة.

(ق.ح): مُطَهَّر فضل كان صديقي المُقرّب، وللأمانة هو رجل طيّب جداً، وعندما ضمّوه للحزب الحاكم طلبوا منه في البداية أن يبقى كما هو، أي أن يُعارض السلطة كيفما يشاء، فبدت له الأمور ظاهرياً مُريحة وتتّفق مع هواه، ذلك أنّ الانضمام للسلطة لم يُكلفه أيّ ثمن.. فتحسّن وضعه الوظيفي، وغرق شيئاً فشيئاً في عسل المال إلى أن أتت اللحظة الفاصلة، حين كلفوه بملفّ أحداث قرية باب المنجل.

(منشور) سلام مهدي – ناشطة حقوقيّة:

هل دخلتم صفحة المدعوّ (م.ف)؟ تأمّلوا ماذا ينشر في صفحته.. إنّه مُعجب بكلّ كاتب منشقّ عن اليسار، ومثله الأعلى الروائي الروسي ميخائيل بولغاكوف الذي انشقّ عن السلطة السوفييتية وعارضها. وهو يُطابق نفسه بمثله الأعلى، ويحسب أنّه قد صنع من نفسه نموذجاً محليّاً عندما انشقّ عن اليسار وانضمّ للسلطة. لكنّ هنا مفارقة لم ينتبه لها صاحبنا الغبيّ، فميخائيل بولغاكوف عندما انشقّ عن السلطة السوفييتية وصار معارضاً دفع ثمناً باهظاً. وأمّا (م.ف) فقد ترك المعارضة وانضمّ للسلطة فقبض منصباً وملايين الريالات مقابل خيانته وخساسته ودناءته، وإذاً (م.ف) يُعاني فعلاً من سوء فهم مزمن، له عقل مُركّب بالغلط، ويُفسّر القضايا الأخلاقيّة النضاليّة بطريقة مُعوجّة انتهازيّة.. إنّه يخالُ نفسه نموذجاً للبطل المنشق عن اليسار، بينما هو مجرّد نذل حقير مُتهافت على المال. مفهوم الحق عنده رديء ومطاطي، والنموذج الأخلاقي الذي يُقدّمه وضيع ومنحطّ.

لم أعد أستطيع المتابعة، ولا قراءة التعليقات التي تربو على الثلاثين، أغلقت الكمبيوتر، وبقيت ساعة واجماً أُحدّق في الجدار. لا شكّ في أنّني قد مررت بأسوأ يوم في حياتي.

الاثنين (58)

استأجرتُ سيّارة هيونداي سانتافي – على حساب الجريدة – وذهبت إلى بلدة الجروم. وصلت متأخراً إلى مبنى النيابة. كان قد أُطلق سراح جليلة بضمانة تجاريّة. علمتُ أنّ منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات قد وكّلت لها محامياً اسمه شعيب العجيل. أما الولد عطا المساعدي المتّهم بفضّ عذريّتها، فلم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه حتى الآن.

دعاني المحامي حمّود شنطة للغداء في بيته، فاعتذرت بأكبر قدر ممكن من التهذيب، وحمدتُ الله أنّني تخلّصتُ من صحبته. خرجت متّجهاً إلى سيّارتي، لكنّه ما لبث أن لحق بي، وطلب منّي أن أوصلهُ على طريقي لمدينة الحديدة. زعم أنّ لديه معاملات «من تحت الطاولة» يريد أن يقضيها. مررنا في طريقنا ببلدة الملاح التي قال إنّ فيها مطعماً راقياً يؤمّه السيّاح السعوديّون وأبناء البلد العائدون من السعودية. لم يترك لي مجالاً، فتركته يُرشدني إلى موقعه.

كانت الساحة أمام المطعم مزدحمة بالسيّارات الفارهة ذات اللوحات السعوديّة. دخلنا وطلبنا كبسة أرزّ باللّحم الحنيذ الذي تشتهر به المنطقة، ومشروباً غازياً. بعدما دفعت الحساب، اقترح

أن نُعرّج على المِقْوات[1] وقادني إلى صاحبه الذي يبيع القات العال، وهناك، حاسبتُ ثمن قاتي وقاته.

في الطريق صدّع رأسي بالحديث عن الأعمال الخيرية التي قام بها الشيخ، ومن أحد جيوبه المنتفخة أخرج أوراقاً، زعم أنّها وثائق، مقترحًا عليّ أن أكتب مقالاً أوضح فيه لليمنيّين «حقيقة الشيخ». أخذت منه الأوراق ولم أعطه جواباً واضحاً، قلت له «سأرى». كان يدخّن بشراهة، أمّا أنا فلم أجرؤ، كنت لا أزال أشعر بالحرج من التدخين أمام الآخرين.

وصلنا إلى مدينة الحديدة عصراً، وأنزلته بقرب مبنى يبدو كثكنة عسكريّة، يحرسُ مدخله جنود مسلّحون. لم أشأ أن أسأله، كان الشعور الذي انتابني من رؤية طلاء الجدران المُتقشّر والنوافذ المُعتمة غير جيّد، وكان هذا كافياً لأكبح فضولي وأبتعد.

صادفت كشكاً، فترجّلتُ واشتريتُ جميع الجرائد الصادرة في ذلك اليوم. أشار البائع بافتخار إلى جريدة جديدة تصدر من مدينة الحديدة. أخذت واحدة، كان اسمها «النضال» ورقم العدد صفر. هربتُ إلى سيّارتي المُكيّفة، ورحتُ أُقلّب الجرائد وأنا جالس خلف المقود. بدأتُ أولاً بجريدة «الشعب»، لقد نشروا أخيراً حواري مع الشيخ الذي كتبته من الألف إلى الياء. انتبهت إلى أنّ مقالاتي لعمودي اليومي التي سلّمتها للجريدة قبل سفري قد نُشرت جميعها، وأنّه يجب عليّ اليوم عَصرُ ذهني لإفراز أيّ غائط سياسي لملء عمودي في عدد الغد. كُتّاب الجريدة المُهتمّون بالشأن العام الذين يُشكلون مدفعيّتنا الثقيلة أسهموا بخمسة مقالات ناريّة تُندّد بالتدخّل الأجنبي في الشؤون الداخليّة عبر المنظمات الحقوقيّة،

[1] سوق القات.

وبنغمات متفاوتة الحدّة أجمعوا على أنّ المنظمات بمختلف توجّهاتها ومسمّياتها تعمل ضدّ مصلحة الوطن. صحف أخرى موالية لنا تابعت نسق الهجوم نفسه، وأحياناً بلهجة لاسعة أكثر. أحدهم كتب يُطالب بإغلاق المنظّمات الحقوقيّة ومحاكمة العاملين فيها بتهمة الخيانة العظمى. صحف المعارضة، وعلى رأسها جريدة «الأيام»، أدانت إطلاق سراح الشيخ، وطالبت بإنهاء التحقيقات بسرعة وبرفع ملفّ القضيّة للقضاء. كان هناك هجوم مُتشنّج على الشيخ، ودعوات لإعدامه.

أخذت جريدة «النضال» وكان موضوعها الرئيس عن مجاري الحُديدة الطافحة، وموضوع في أسفل الصفحة عن الطفلة جليلة مع صورة ملوّنة لها. قلّبتُ الصفحات، وأحصيت أكثر من عشر مقالات تقف إلى صفّ جليلة، وفي ثلاث منها تعرّضتُ للصفع – على الطريق – كما يُقال، وكأنّ جميع الطرق التي تؤدّي إلى الشيخ لا بدّ من أن تمرّ عبري! من كتّاب العدد: سَلام مهدي، سامي قاسم، حسين البطّاح – المُحرّض على المظاهرة – وسبعة آخرون مقالاتهم ركيكة، لعلّها بأقلام طلّاب وطالبات المدرسة التي يُدرّس فيها حسين البطّاح. الافتتاحيّة تطرّقت أيضاً إلى موضوع جليلة، وكانت بقلم رئيس التحرير غالب زبيطة الذي قرأت اسمه لأوّل مرّة. تحرّكت إلى أقرب برميل زبالة ورميت فيه جميع الصحف.

عدت إلى الفندق مُنهكاً، وأنا أشعر بألم في عضلات ساقيّ، وكأنّني قطعت المسافات مشياً لا في سيّارة مريحة. حلقتُ ذقني واغتسلت، ثمّ دخّنت سيجارة. شعرت برغبة قاتلة في كتابة الشعر، بحاجة ملحّة للبوح، بدافع نفسي قهري للاعتراف. كنت مُنهاراً وأحتاج للتداعي على الورق.

اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد يحثّني على سرعة إنجاز واجباتي. كتبت مقالة لعمودي اليومي على عُجالة، أشتم فيها الغرب الذي لا يُحسنُ تربية بناته فيتركهنّ على حرّيتهنّ منفلتات من كلّ قيد، بينما يتحوّل إلى حارس أخلاقي في اليمن، ويُنصّب نفسه مدافعاً عن فتاة صغيرة، ربّما تكون فقدت عذريّتها بسبب عدم حشمتها. ودون لحظة تفكير أرسلته على إيميل رئيس التحرير. وشرعت تالياً في كتابة تغطية صحافيّة لأحداث اليوم. مع غروب الشمس كنت قد أنهيتها وبعثت بها.

شعرت بنفسي خفيفاً بعد تخلّصي من هذه الأحمال. تذكّرت أنّه بقي عليّ كتابة تقرير عن الأعمال الخيريّة التي يقوم بها الشيخ. كان نداء البحر أقوى، فقرّرت تأجيل كتابة التقرير إلى سرة الليل.

نزلت مسرعاً، وعبرت الشارع باتّجاه الشاطئ. تناثرت على الكورنيش العائلات وشِلل الشباب. بحثت عن موضع أخلو فيه بنفسي، ووقعت عيناي على مكان فارغ، فحثثتُ الخطى إليه وقعدت على صخرة تتكسّر قربها الأمواج. عببت هواء البحر الرطب ملء رئتيّ وشعرت براحة عظيمة. شعرت بالرذاذ الذي بلّلني من أنفي – الذي هو المركز الحدودي المتقدّم لجسدي – حتى أسفل ظهري يُنظفني من الداخل، ويغسل الأوساخ العالقة بروحي.

قضيت ساعات أُحدّق في الأفق، وأفكّر في مستقبلي، وإلى أين تقودني خطواتي. لم يعد بإمكاني الرجوع للوراء، عليّ فقط أن أصمد لبعض الوقت، ريثما أشتري بيتاً وأؤمّن مستقبل أولادي.

قرصني الجوع، نظرت في الساعة فوجدتها تشير إلى التاسعة وأربعين دقيقة. سرت ببطء شديد عائداً إلى الفندق، وتوجّهت مباشرة إلى المطعم. ملأت الطبق الأول بالسلطة، والطبق الثاني بسندوتشات تونة ذات مذاق فريد من نوعه، ووددتُ أن أسألهم من

أين يحضرونها. وكالجنّي بزغ أمامي سائق الشيخ الذي له سحنة كبش وجلس مُقابلاً لي، وتحدّث وهو يمدّ يده إلى طبقي: «أين كنت يا أستاذ؟ قلبنا الدنيا ونحن ندور عليك». لم ينتظر إجابتي إذ حشا فمه بسندوتش ازدرده بلقمة واحدة. لم أردّ عليه. تكلّم ومخارج الحروف غير واضحة: «تعبنا ونحن نتّصل بك، تلفونك مغلق». قلت له: «تعشَّ وبعدها سنتكلم».

نهضتُ وأحضرت طبقاً ثانياً من سندوتشات التونة وكوبين من عصير البرتقال. أكلنا بشهيّة وأجهزنا على الفتات. كان الوقت قد تجاوز الساعة العاشرة، وهو موعد إغلاق المطعم، والعمّال يرسلون طَرفهم من تحت لتحت وينظرون في ساعاتهم. أشرتُ لعلي وخرجنا.

اتّجهت صوب بهو الفندق لآخذ مفتاح غرفتي. سألته: «ماذا يريد الشيخ؟». كان في بالي أنّ الشيخ يودّ معرفة ما جرى بشأن التقرير عن أعماله الخيريّة. قال علي وهو يلعق شنبه بلسانه: «الشيخ أرسل لك هديّة». تأمّلت أزرار قميصه المفتوحة وشعر صدره الكثيف، وشعرت بضيق غير مفهوم من شخصيّته. قلت له وأنا أمدّ يدي إليه: «أين هي؟». بصراحة توقعت أنّه أرسل لي نقوداً. نظر علي إلى يدي الممدودة نحوه وانفجر ضاحكاً. شعرت بالحرج فسحبت يدي ودسستها في جيب البنطلون. تكلّم وهو ينظر إلى ما تحت سرّتي: «الهديّة في غرفتك». تبادل نظرة متواطئة مع موظف الاستقبال الذي ناولني مفتاح غرفتي وعلى فمه ابتسامة عريضة. رفعتُ سبّابتي في وجهه مُحذراً: «انتبه أن يكون مقلباً». ثنى علي ركبتيه مرّتين آتياً بحركة بذيئة: «الليلة سيقع دج دج!». ثمّ مضى وهو يقهقه قهقهة فاجرة.

صعدتُ إلى غرفتي وأنا مُبلبلُ الفكر أخمّنُ ماهيّة الهديّة. اقتربتُ ووضعتُ أذني على خشب الباب، كان صوت التلفزيون

مرفوعاً على الآخِر. أصغيتُ مدّة دقيقة، كان مَن في الداخل يتابع برنامجاً للأطفال. انتابني الغضب، وفكّرت في النزول للاحتجاج على إدارة الفندق التي سمحت لأغراب بدخول غرفتي في غيابي، لكنّني ارتأيتُ أن أبدأ أولاً بالدخول للغرفة، لأعرف من يكون هذا الذي أحضره الشيخ. فتحتُ الباب ودخلت عاقد الحاجبين، وأنا متحفّز للدفاع عن خصوصيّتي بالأظافر والأنياب. لكنّ بصري وقع على شيء جعل قلبي يثبُ من اليسار إلى اليمين، ولساني يعجز عن الكلام. كانت منى، الفتاة التي تمنّيتُ الحصول عليها في الجنة – إذا سُمح لي بدخولها – مُستلقية على بطنها فوق السرير، ورأسها مستند إلى يديها بشكل مثلّث. نظرتْ إليّ مرّة واحدة وابتسمتْ، ثمّ تظاهرتْ بأنّها مُهتمّة بمشاهدة التلفزيون. وبخطوات دائخة اقتربتُ منها، ووقفتُ أتأمّل جسدها العاري، وأنا أشعر بوجع في قلبي وكأنّ سكّيناً شطرته إلى نصفين، وقد سيطر عليّ رعب من أن يودي بي جمالها الذي لا مثيل له إلى الجنون.

الثلاثاء (57)

رأيتُ في المنام أنّني أتجوّل في قلعة، وعندما انتهى وقت الزيارة، طلبوا منّا المغادرة. بحثتُ عن المخرج، وبعد جهد عثرتُ عليه، كان باباً ضيّقاً جدّاً، أو بالأحرى نافذة صغيرة في بوّابة ضخمة محكمة الإغلاق ويحرسها جنديّان. لا أعرف كيف قدّرت، ولكنّني فكرتُ أن أُخرج رجليّ أولاً ممسكاً بيديّ إطار النافذة، ثمّ أُخرج جسدي بعدها. وتمكّنتُ فعلاً من إخراج قدميّ، لكنّني انحشرتُ من منطقة الخصر، فلم أعد أستطيع الدخول أو الخروج.

فتحتُ عينيّ ونظرتُ إلى الساعة، كانت تشير إلى الساعة الثانية بعد الظهر. جوّ الغرفة كان مُثلجاً، ومنى نائمة ورأسها عند ركبتيها من البرد. أطفأت المُكيّف، ومشيتُ مترنّحاً إلى الحمّام. حلقتُ ذقني ونظّفتُ أسناني واغتسلت. سارعتُ برفع سماعة الهاتف الداخلي للفندق، وطلبتُ وجبة غداء دسمة إلى الغرفة. شغّلت كمبيوتري المحمول وبدأت بكتابة عمودي اليومي لعدد الغد من الصحيفة.

كنت أكتب وأختلس النظر إلى حوريّتي السمراء. هذه المرّة كنت أخشى أن يتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد ويطلب منّي

العودة إلى صنعاء! كنتُ أسعد إنسان على وجه الأرض، ولا أريد مُفارقة هذه الغرفة المباركة! استيقظت منى على طرقات النادل. صبّحتُ عليها، وردّت عليّ بصوت هامس «صباح النور». فتحتُ الباب وسحبتُ عربة الغداء وشكرتُ النادل. امتلأت الغرفة برائحة الكباب والشيش طاووق.. هنّأتُ نفسي، لقد كفّ أنفي عن إضرابه وعاد للعمل!! تمطّتْ منى وجلست، وصدرتْ عنها آهة غبطة. مددتُ لها يدي، فقفزتْ بخفّة واحتضنتني. أحسستُ بقلبها العاشق، وسمعتُ أعذب كلمات الحبّ التي لم أكن أعرف أنّها تتجرأ على قولها. أجلستها على حجري ورحتُ أطعمها. كانت تأكل نصف اللقمة لآكل أنا النصف الذي بللته بريقها. في مكان عضّة أسنانها نكهة طيّبة كشذا العسل. سألتها مازحاً: «هل أنتِ نحلة؟». ردّتْ بصدق: «لا.. أنا ملكة النحل!».

لم ترَ عيناي قطّ أجمل منها، جمالها من النوع الذي يُناسبُ ذوقي، وتقاسيم وجهها تبعثُ في نفسي مشاعر السعادة القصوى، وتوقظُ اللذّة في كلّ خليّة عصبيّة في دماغي. طيلة حياتي كنتُ أشخصُ ببصري إلى المرأة ذات البشرة البيضاء، والشعر الأشقر، وأنزلها في نفسي منزلة الجمال الأعلى الذي لا جمال فوقه. لكنّ منى جعلتني أكتشف حقائق جديدة عن ذاتي، وأوضحتْ لي أنّني في عقلي الباطن أحبُّ البشرة السمراء الغامقة إلى درجة لا يمكن للكلمات أن تُعبّر عن شدّتها، وأنّ هذا اللون يفتنني، يُجنّني، يرفع درجة حرارة دمي إلى مستوى الغليان. كيف حدث أن صرتُ مُتيّماً بهذا اللون الذي كنت أنفر منه في صباي... لا أعلم. جميع مصادر شهواتي الخبيئة تفجّرتْ ينابيعها مع منى، وفعلتُ معها أشياء لم أظنّ يوماً أنّني من الممكن أن أفعلها.

الأربعاء (56)

نهضتُ من الفراش وأنا أتمتّعُ بطاقة إنتاجيّة هائلة، كتبتُ أربع مقالات لعمودي اليومي، وأنجزتُ تقريراً عن أعمال الخير العظيمة التي يقوم بها رجل البرّ والإحسان الشيخ بكري حسن في ساحل تهامة، وتقريباً رفعته إلى مصاف غاندي! اتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد وكال لي مديحاً غير مسبوق على التقرير الذي كتبته عن الشيخ، وقال إنّه يشدُّ على يدي، فقلت له شدّ كما تشاء فقد شُفيت سبّابتي.

عادت منى من جولتها وهي مُثقلة بالمشتريات، رفضت أن تسمح لي باحتضانها، قالت إنّها منقوعة في العرق. خلعت ملابسها ودخلتْ إلى الحمّام لتغتسل. سمحتُ لنفسي بتفتيش أكياسها، كان في أحد الأكياس تشكيلة من البسكويت القديم الذي اندثر من بقالات صنعاء وغيرها من المدن. هذه الأنواع من البسكويت كانت متوفرة عندما كنت صغيراً وعمري على ما أذكر ما بين 4-7 سنوات، ثمّ اختفت بالتدريج، وحلّت محلّها أصناف أخرى. لم أكن أصدّق أنّ المصانع ما تزال تنتجها. أعادني طعم البسكويت إلى الماضي، ورحتُ أسترجعُ ذكريات طفولتي التعيسة. منذ عشر سنوات على الأقلّ لم أذق البسكويت، هذا الذي يفرح به الأطفال ويُصنع خصّيصاً

من أجلهم. ولكنّني حين رأيتُ هذه الأصناف القديمة سال لعابي، واشتهيتُ أكلها وكأنّني طفل. مزّقتُ قرطاس البسكويت الأول والتهمته بتلذذ، ثمّ الثاني والثالث، انتابتني نفس مشاعر الرضى والسرور التي كنت أشعر بها في صغري.

خرجت منى من الحمام وهي تُغطي وسطها بالمنشفة، شهقتْ وهي ترى قراطيس البسكويت الفارغة: «واه.. ما تفعل يا جَبَلي؟؟». هجمتُ على الكيس ورحتُ آكل المزيد، انقضّتْ هي الأخرى على البسكويت وراحت تأكل بنهم، وفي دقائق أجهزنا على كلّ الكمّية التي اشترتها.

واعتلى المُبتلى بالعشق المنصّة، وتأهّب لإلقاء خطبة المحبّة، فانتزعتُ منشفتها وأخذتها إليه لتستمع إلى خطبته المرتجلة غير المُعدّة!

بعد وجبة الغداء نامت منى. شغّلتُ سيّارتي وذهبت إلى سوق المطراق واقتنيتُ لها خاتماً من الذهب الإيطالي الأبيض – لأنّه غير مُتداول إلّا في النادر جداً ولا يلفتُ انتباه اليمنيين – واشتريتُ قاتاً، ووقفتُ عند مكتبة تبيع الجرائد. اشتريتُ جميع الصحف الصادرة في ذلك اليوم، وجلستُ خلف المقود أتصفّحها.

في الصحف الحكوميّة لا يزال الهجوم متواصلاً على منظمات المجتمع المدني، وفي صحيفة موالية نُشر استطلاع صحافي عن أهالي قرية باب المنجل يشتكون فيه من انفلات الأمن وتكاثر السّرّاق، والجميع ألقى باللوم على مدير الأمن العقيد أحمد فتيني.

في صحف المعارضة ازدادت حدّة الهجوم على الشيخ، وطالبوا بأن يُصدر البرلمان قانوناً يُحدّد سنّ الزواج بثمانية عشر عاماً. حمداً لله أنّهم كفّوا عن التعرّض لي، وأهملوا شأني. قلّبتُ جريدة «النضال» الحُديديّة، ووجدتُ فيها مقالاً خطيراً، لشاهد – رفض الكشف عن

اسمه – قال إنّه سمع الشيخ بكري حسن يعترف بجريمته في مقيل ببيته ضمّ أكثر من سبعين شخصاً، وعدّد أسماءً معروفة من أعيان المنطقة وختمهم ذاكراً اسمي، وقال إنّه على استعداد لأن يشهد في المحكمة بما سمع. أحسستُ بأنّ السماء قد هوت على رأسي. لم يكن ينقصني سوى هذا. إنّها قضيّة مشؤومة، وكلّما حاولنا ترقيعها من جانب انخرقتْ من جانب لم يخطر ببالنا.

عدتُ إلى الفندق مهموماً. تلقتني منى بالأحضان. كان وجهي مُتغيّراً. لم تسألني عن شيء، أجلستني على طرف السرير وخلعت لي جزمتي وجوربيّ، وأخذتْ تُدلّك قدميّ برقة وضغط خفيف. استلقيتُ على ظهري وشخصتُ ببصري إلى السقف. كنت كمن يغرق في بئر عميق ولا أمل له في الخروج منه. آخر شيء أحسستُ به قبل أن أغفو كان قبلات منى لباطن قدميّ.

رأيتُ في المنام أنّني أخوض حرباً وبيدي بندقية، انتهتْ ذخيرتي فتركتُ موقعي وهربت، كنت أقفزُ من سطح إلى سطح وهم يُطاردونني. صادفتُ فنّاناً تشكيلياً – معرفتي به في العالم الواقعي طفيفة وبالكاد نتبادل التحيّة – وطلبتُ منه سلاحاً، فأخذني إلى سيّارته وأخرج لي من الدرج الأمامي قارورة عطر، شممتُ عبيرها فأطمأنّ قلبي، واختفى الأعداء.

صحوتُ على رنين هاتفي المحمول، كان رئيس التحرير رياض الكيّاد يتقطّع من الغيظ، ويقول إنّ رعاع الفايسبوك قد تجاوزوا حدودهم، وتطاولوا على الرموز الوطنية – يقصد الحاكم – فوعدته بأن أفتح الفايسبوك وأتصدّى لهم. كدتُ أفعلها وأُغلقُ الخط في وجهه، ولكنّني انتظرتُ حتى سمعته يُخاطب شخصاً آخر وأغلق الخط.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة ليلاً، ومنى جالسة على الأرض متّكئة تمضغ القات وتدخّن وتُشاهد أفلام الرسوم المتحرّكة.

غسلتُ وجهي وتفقدته في المرآة، ثمّ جلست بجوارها. ناولتني حصّتي من القات، وضعته جانباً وبدأتُ بمُداعبتها. قاطعني اتصال من رئيس التحرير – لا أكثر الله في المسلمين من أمثاله – وقال إنّ الصحيفة استأجرتْ لي شقّة مفروشة لمدّة شهر، وإنّ عليّ الانتقال إليها غداً صباحاً، وأعطاني العنوان.

سألتني منى ما الأمر، فقلتُ لها إنّنا سننتقل غداً إلى شقة مفروشة. رأيتُ في عينيها مسحة من الحزن، وعلى فمها العذب تعبير ينمُّ عن القلق. قلت لها: «لماذا تكدّرتِ؟». سحبت آهة حارّة من تجاويف أضلاعها: «أخشى أن يُفرّقوا بيننا». أحسستُ بوخزة ألم في قلبي وكأنّ برقاً ضربه. كنت أُدركُ أنّ وضعنا مستحيل، وأنّ لحظة الفراق لا بدّ من أن تحلّ في وقت ما. سألتها: «تُحبّينني يا منى؟». جاوبتني: «أُحبّك أكثر من نفسي». أحسستُ بالصدق في كلماتها، بأنّها تعني ما تقول. أخرجتُ العلبة الصغيرة من جيب البنطلون وفتحتها. نزعتُ الخاتم البلاستيكي الرخيص من بنصرها، وألبستها الخاتم الأبيض الذي اشتريته لها. أسندتْ رأسها إلى صدري وسالت عبراتها.

الخميس (55)

تناولنا آخر وجبة لنا في الفندق بشهيّة عارمة، ثمّ جمعنا أغراضنا. كانت منى مُنشرحة الصدر وتضحك لأتفه سبب. في الطريق توقفنا عند مكتبة وأخذت جميع جرائد اليوم.

قلت لها إنّ جريدة «الشعب» قد نشرت تقريري عن الشيخ بكري حسن. أعطيتها الجريدة لتقرأ، بينما انشغلتُ بتقليب جريدة «النضال» الحُديديّة التي أفردت صفحتَي الوسط لحوار طويل مع محامي جليلة شعيب العجيل. مررتُ خطفاً على الحوار، ولمحتُ اسمي مذكوراً في ثنايا أحد أجوبته، كان يتحدّثُ عني بطريقة سافلة. نعتني بالحشرة، وقال إنّه في الأسبوع المقبل، سيطلب من النيابة أن تستدعيني للتحقيق معي بتهمة الكذب، والتدليس، وتحريف أقوال الطفلة جليلة في الحوار الذي أجريته معها. لم أصبر، أنزلتُ الزجاج ورميت الجريدة خارجاً. التفتُّ إلى منى، كانت تُحدّقُ في صورة الشيخ الملوّنة ساهمة. سألتها: «ما رأيك في التقرير؟ كذب فاضح أليس كذلك؟». نكست رأسها قائلة: «أنا لم أتعلّم القراءة». شعرتُ بأنّني أهنتها دون قصد عندما طلبتُ منها أن تقرأ، لم أعرف كيف

أعتذر، عذّبني الندم، فأخذتُ الجريدة من بين يديها ورميتها هي الأخرى خارجاً، أمسكتُ يدها وقبّلتها.

دخلنا الشقة المفروشة وقت أذان الظهر. قالت منى إنّها تتذكّر هذه الشقة، وأشارت إلى المطبخ والحمّامين والغرف الثلاث، وأعطت بعض الأوصاف الأخرى. استغربتُ كيف أمكن لفتاة ريفيّة أن تضع قدمها في مكان كهذا... تمنّعتْ في البداية عن الإجابة، ضغطتُ عليها، فأجابت أنّ الشيخ بات معها هنا ليلة واحدة. سألتها لماذا أحضرها الشيخ إلى الحُديدة، فردّتْ أنّها بلغتْ قبل عامين، وعندما علم الشيخ بأنّها تحيض، أخذها إلى طبيب في هذه المدينة وضع لها سدادة في رحمها. قلت لها والغضب يتسرّب في صوتي: «متى... متى حدث لأوّل مرّة؟». قالت: «الحيض؟». قلت وقد علا صوتي عليها دون إرادتي: «لا.. ذاك الشيء». هربتْ بنظرتها بعيداً: «قبل خمس سنوات». فكّرتُ في نفسي أنّه عاشرها وعمرها عشر سنوات فقط. شيء ما تصدّع في وجداني، وأظلمت الدنيا في عينيّ. شعرتُ بأنّني مذنب ومتواطئ مع مُنتهك براءتها وطفولتها. اغرورقتْ عيناي بالدمع، وشفتاي أخذتا ترتجفان رغماً عنّي. قلت لها وأنا أعطيها ظهري لكي لا تلاحظ تأثري إنّني سأذهب لشراء الغداء والقات، وخرجتُ مُتعجّلاً. جلستُ خلف المقود وفردتُ جريدة مُتظاهراً بالقراءة، كانت دموعي تنساب من تلقاء نفسها، كنت أشعرُ بالقهر في رنّة كلماتها، وبمقدار الألم المُخبّأ في جفنيها العلويّين، معاناة خمس سنوات من الاغتصاب والإذلال... طفلة في زهوة العمر تتعرّض لمكابدة أهوال تعجز قلوب الكبار عن تحمّلها. وفوق هذا عليها أن تبتلع عذابها والظلم الذي حاق بها صامتة دون أن تجرؤ على الشكوى لأحد.

رنّ الهاتف. رأيت رقم زوجتي، تردّدتُ في الرد عليها، كنت في حالة نفسيّة غير مواتية، وفي آخر لحظة قبل انقطاع الاتّصال ضغطتُ الزرّ وفتحت الخط. لم تسألني عن أحوالي ولا متى سأرجع، كانت تلومني وتتّهمني بأنّني فضحتها ودمّرت سمعتها بين الناس. تجادلنا جدلاً عقيماً... حاولتُ أن أشرح لها أنّ هذا وضع مؤقّت وسيزول، ولكنّها لم تُنصت إليّ، كانت تتابع تلقيني الدروس. قلتُ لها إنّني فعلتُ ما فعلتُ لأجل الفلوس، علّقتْ عليّ بتعليق قاسٍ: «هيّا أعطهم مؤخّرتك لأجل الفلوس أيضاً». صدمني تعليقها، لم تكن هذه سليقتها، ولا هي شخصيّتها التي أعرف مقدار حبّها للمال، بل شخصيّة أخرى مُستعارة من أبناء الطبقة الوسطى ذات الميول اليساريّة. لم يكن لسانها هو الذي يُحدّثني، بل لسان صديقاتها اللواتي اكتسبتهنّ خلال سنوات دراستها الجامعيّة. ختمتْ مكالمتها مُهدّدة بأنّني إن لم أعد إلى صنعاء غداً، فستأخذ أطفالنا وتُغادر إلى بيت أهلها، ثمّ أغلقتْ الخط في وجهي.

كان صوتها جافّاً ولا يحمل ذرّة تعاطف، وطريقتها في الكلام آمرة ومُستفزّة.

اشتريتُ غداءً فائضاً وقاتاً غالي الثمن، كنت أريد أن أدفن أحزاني ومشكلاتي في تخزينة قات تجعلني ذاهلاً عن العالم من حولي.

الجمعة (54)

أيقظتني منى في وقت مبكر جداً، عند الثالثة صباحاً، وطلبتُ أن نمضي إلى الكثيب لتناول الإفطار. كانت قد جهّزت احتياجات النزهة، بالكاد سمحت لي بأن أغسل وجهي، ثمّ خرجنا.

كانت الشوارع خالية من السيّارات فوصلنا في دقائق. كان البحر يتنفس هواءً دافئاً. أرشدتني إلى ساحل غير مطروق، خلعنا أحذيتنا وتخففنا من ثيابنا وجرينا إلى البحر بملابسنا الداخليّة، وغمسنا أجسادنا في المياه ذات البرودة اللطيفة. سبحنا ولعبنا تحت ستار الظلام الدامس. عندما لاح أول ضوء للصبح خرجنا من الماء ونحن نرتجف برداً. تنشّفنا وارتدينا ملابسنا بغيارات داخليّة جديدة. فرشنا لحافاً وجلسنا عليه نترقّب شروق الشمس.

ظهرت قوارب الصيّادين في عرض البحر. وضعت منى رأسها على حجري وغرقتْ في عالمها الخاصّ. احترمتُ صمتها، شعرتُ بأنّها تريد الاحتفاظ بهذه اللحظات في ذاكرتها كشيء ثمين، كذكرى حلوة لن تمحوها المحن ولا تعاقب السنين. الشمس التي طلبنا ودّها أتت حمراء غامقة بلون البنّ، وما هي إلّا دقائق حتّى بدأنا نتعرّق من قوّة وهجها، فصعدنا السيّارة وغادرنا المكان.

كانت هناك ثلاث سيّارات متوقفة عند مطعم يتكوّن من عرائش جميلة مربّعة الشكل، اخترنا عريشةً وجلسنا على مقاعد إسمنتية. كان صوت أمواج البحر يصلُ إلينا ويمنحنا الشعور بالسلام والسكينة. تنحنح نادل صغير لا يتجاوز عمره التسع سنوات قبل أن يقطع خلوتنا، أشرت له بالاقتراب، فسألنا: «قروع؟». قلت له: «نعم». هزّ رأسه ومضى. كان هذا المطعم يُقدّم وجبة واحدة فقط. سألتُ مني كيف عرفتْ هذا المكان الساحر، رمقتني بنظرة عتاب، وأدركتُ أنّه ما كان ينبغي أن أُخرجها من اللحظة الحاضرة – الممتلئة بالفرح والعذوبة – وأجعلها تستعيد ماضياً الأرجح أنّها تريد شطبه من ذاكرتها. تمنّتْ لو تُدخّن سيجارة، لبّيتُ رغبتها وأحضرتُ علبة سجائر من السيّارة وشرعنا نُدخّنُ بتلذّذ. لاحظتُ أنّها تُقلّدني في طريقة تدخيني للسيجارة – كنت أُمسك عقب السيجارة بين طرفي السبّابة والوسطى ليدي اليمنى عندما أسحبُ نفساً ثمّ أرسلها لتستقرّ بين مغابن السبّابة والوسطى ليدي اليسرى – وصارحتها بهذه الملاحظة، فردّتْ عليّ بأنّني أُقلّدها في حركات كثيرة من حركاتها! كانت على حق، دون أن نشعر، كان كلّ واحد منّا يُقلّد الآخر في حركات الأيدي وتعابير الوجه ويُقلّد حتى طبقة صوته.

أحضر الولد سمكتين مشويّتين بالفحم، لهما شكل قاربين مُتعاكسين، وغارقتين في بهارات حمراء، ومعهما الخبز المُلوّح، وسحاوق[1] حارّة بالجبن البلدي، وكوبيْ شاي أحمر. هجمنا على الطعام وكأنّنا أسيرا حرب. لم نبقِ شيئاً للقطط التي كانت تحوم حول عشّتنا، ولو كانت المواعين النحاسيّة تؤكل لأكلناها من فرط شهيّتنا.

[1] صلصة مكوّنة من الطماطم والثوم والكزبرة والزعتر والنعناع.

شكرتُ منى على اختيارها لهذا المكان، فقد تناولتُ لتوّي ألذّ وجبة في حياتي.

عاد الولد ومعه عبوة بلاستيكيّة للغسيل والشرب، حمَل الأطباق الفارغة، وقبل مغادرته طلبنا منه كوبيْ شاي إضافيّين. أخرجتْ منى من حقيبة يدها صابونة جديدة وقارورة عطر. غسلتْ لي يديّ، وغسلتُ لها يديها، ثمّ رششنا العطر على أيادينا وملابسنا لطمس رائحة السمك.

دخّنا دوراً ثانياً من السجائر التي كان لها مذاق خرافيّ بعد تلك الوجبة الخالدة. سألتني منى والحياء بادٍ على وجهها عن اسم زوجتي. لاإرادياً تحسّستُ خاتم الزواج الفضّي في بنصري. لم أكن قد ذكرتُ لها أنّني متزوّج، لكنّها خمّنتْ ذلك على ما يبدو. قلت لها إنّ اسمها حوريّة. صمتنا وشعرنا فجأة بحضور طيف عذول بيننا. جاء الولد بكوبيْ الشاي وانصرف. رفعتْ رأسها وسألتني:

– لديك أولاد؟

– ثلاثة.. هايل ونجاة وكرامة.

– أسماؤهم جميلة... وخاصّة اسم كرامة.

اختلجتْ وجنتها وهربتْ ببصرها تجاه الرمال الممتدّة إلى ما لانهاية. فكّرتُ في نفسي بالكرامة التي بقيت لفتاة مثلها انتهك الشيخ شرفها وهي بعمر عشر سنوات وما زالت موطوءته، وجميع أهالي منطقتها يعرفون بأمرها. مسحتْ طرف جفنها الأيسر، لعلّ دمعة كانت توشك أن ترمي بنفسها من شرفة عينها على المائدة الإسمنتيّة. قالت بصوت متهدّج: «تحبّها؟». أجبتُ دون تلكّؤ: «نعم». رفعت الكأس ورشفتْ ببطء، مجّت الشاي في فمها، وراحت تُديرُ الكأس بين كفّيها: «لم أسمعك تتّصل بها لا في الفندق ولا في الشقة». قلت مُغضياً بصري: «اتّصلتُ بها أمس». حدّقتْ فيّ بتركيز:

«من أجمل.. هي أم أنا؟». كان سؤالها طفولياً، أو لعلّي نسيتُ أنّها أنثى، وأنّ هذا هو السؤال الأبديّ لكلّ أنثى. حرّكتُ قدمي اليمنى فاحتككتُ دون قصد بقدميها، كانتا مرفوعتين وتستندان إلى عقبيها. انتبهتُ إلى أنّها متوتّرة وأعصابها مشدودة كنيزك يُعاني من أسر جاذبيّة أحد الكواكب. قلت لها: «كانت زوجتي أجمل امرأة في العالم إلى أن رأيتك». بدا على ملامحها أنّ جوابي لم يُقنعها. قالت: «أهي جبليّة؟». ضحكتُ مؤكّداً، فتحت قبضتها: «أرني صورتها». استغربتُ طلبها ورحتُ أطرقُ على الطاولة القاسية مُفكراً، لم أكن مُرتاحاً لمجرى الحديث، قلت لها: «هي بطولي تقريباً، تضع نظارة طبّية، ممتلئة، بشرتها بيضاء، شعرها أسود». رفعتُ يدي وقبّلتها مُعتذرة: «سامحني لأنّني قارنتُ نفسي بزوجتك». قبّلتُ كفّها ومررتُ بلساني على معصمها وساعدها.

قمنا بجولة بالسيّارة على أحياء الحُديدة، واشتريتُ لها من سوق الهنود قرطاساً من ثمار الكين[2] وعقداً من الفلّ الطازج الذي تحبّه أكثر من أيّ شيء آخر.

اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد وطلب منّي أن أفتح الراديو. شغلتُ راديو السيّارة وضبطته على إذاعة صنعاء. كان خطيب الجمعة ينتقد منظمات المجتمع المدني ويصفُ عملها بأنّه هدّام للإسلام... الخ. أغلقتُ الراديو وعدنا إلى الشقة.

فتحتْ منى نافذة الغرفة البحريّة، وتمدّدتْ على السرير. كنت مُشتاقاً لها جدّاً، جرّدتها من ملابسها... تسرّب صوت خطيب الجمعة من جامع مجاور... ذكر سلام مهدي بالاسم، وقال إنّها كافرة مُرتدّة عن الإسلام ودمها مُباح. رغم أنّني أكرهها وأتمنّى لها الموت،

[2] النبق.

عندما سمعتُ الخطيب يُصدر عليها هذا الحكم الرهيب انخلع قلبي ،وامتلأ بالشفقة عليها، وتصوّرتُ حالتها النفسية وهي تسمع أنّ مئات الجوامع في اليمن قد أعلنتها كافرة.

انكفأت شهوتي فانسحبتُ وارتديتُ ملابسي، أغلقتُ النافذة وشغّلتُ التكييف. اعتذرتُ من منى، وقلت لها إنّني أريد أن أخلو بنفسي لأكتب مقالاً لعمودي اليومي في جريدة «الشعب». سألتني هل أريد شاياً أم قهوة، قلت بعد تفكير: «الاثنين!». ضحكتْ وقبّلتني في خدّي ثمّ خرجت.

شغّلتُ كمبيوتري المحمول ورحتُ أتصفّح المواقع الإخباريّة. كانت هناك حملة إلكترونية على الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي تتفاوت ما بين التشكيك والتخوين والتكفير. دخلتُ موقع الفايسبوك، المعركة هنا كانت أشدّ هولاً، وطبول الحرب تُقرع على أشدّها.

جلبت منى كوبين – شاي وقهوة – وكوباً ثالثاً فيه ماء بارد تسبح فيه مكعّبات الثلج. انصرفتْ وهي تمشي على أطراف أصابعها.

شغّلتُ موسيقى كلاسيكيّة، ورحت أُجبر نفسي على كتابة مقالة لعمودي اليومي. لا أعرف متى أنهيت كتابته، لكنّي ارتميتُ من بعدها على السرير وأبحرتُ في السبات.

كنت أُبدّلُ ملابسي في غرفة طلّابيّة مشتركة، وزملائي يفعلون الشيء نفسه، عندما دوّت صفارات الإنذار بعواء مروّع مُعلنة تعرّضنا لهجوم. صعدتُ إلى السطح مع زميل آخر، وتبيّنتُ أنّني أعيش في مدينة أجنبيّة – أوروبيّة – ذات أشجار كثيفة، سطوح منازلها هرميّة مسقوفة بالقرميد. نظرتُ إلى السماء ورأيت منطاداً يُطلق النيران والقنابل على سكّان المدينة. طلب منّي زميلي أن أهبط إلى المخبأ، لم أُطاوعه ووقفتُ أحدّقُ في المنطاد.

أخرجني من حلمي رنين الهاتف. زحفتُ مغمض العينين إلى الكومودينو وتحسّستُ الخشب بيدي بحثاً عنه، أخذته وفتحت الخط، كان المتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد مصدر الإزعاج الأكبر في حياتي، وربّما كان المنطاد اللعين الذي رأيته في الحلم يرمز إليه! سألته بجفاف:

– ماذا تريد؟

– عفواً.. يبدو من صوتك الغليظ أنّك كنت نائماً.

– نعم.. كنت أذوق النوم كالعسل.

– يبدو أنّ البنت الصغيرة أرهقتك هاها!

– ادخل في الموضوع.

– الدكتورة الروسيّة تاتيانا موجودة الآن في الحُديدة.

– إن شاء الله تغرق في البحر، ما دخلي بها أنا؟

– تاتيانا شابّة جميلة، بشرتها بيضاء كالثلج، وشعرها أصفر كالذهب.. صنفك المفضّل.

– وما أدراك بذوقي في النساء؟! هل دخلتَ إلى قلبي؟!

– بربّك يا مُطَهَّر.. أنا مثل والدك وأعرف ما في نفسك، قل لي هل تغدّيت؟

– لا.

– حلو.. أريدك أن تغتسل وتلبس أفضل بذلة لديك وتذهب إلى منتزه القمر الوردي، ستجدها هناك.

– ما هو المطلوب؟

– أريدك أن تعمل معها مقابلة صحافيّة.

– ولكنّني لا أعرف اللغة الروسيّة.

– هي تعرف قليلاً من العربيّة والإنجليزيّة والباقي عليك يا بطل.

– هه.. حوار بالإشارات.

– اسمع.. أريدك بعد انتهاء المقابلة أن تعزمها على وجبة عشاء دسمة، أظهر كرمك العربي يا أخي.

– ولماذا كلّ هذه الخسارة؟

– بصراحة يا وسيم نحن نريدك أن تُقيم معها علاقة.

– ما هذا الكلام.. هل أصبح جسدي أيضاً سلعة تزجّون بها في مخطّطاتكم؟؟

– لا تصرخ في وجهي.. لستُ أنا من يضع الاستراتيجيّة.. أنا مجرّد عبد مأمور.. من تظنّ أنّه أمر بمكافأتك بالبنت الحلوة منى؟ لا تحسب أنّك حصلت عليها بسهولة.. هذه الجوهرة السوداء التي ترقد تحتك كان الملوكِ في الزمن القديم يتهادونها في ما بينهم كمتاع ثمين ولا يسمحون للعوام بلمسها.

– إذاً منى كانت مجرّد اختبار.. قدّمتموها لي لتروا إن كنت أقبل بإقامة علاقات غير شرعيّة.. أليس كذلك؟

– بما أنّك غير مُخلص لزوجتك فما الذي يمنعك من إضافة واحدة أخرى إلى قائمتك.. احمد الله يا أخي، ألف شابّ يتمنّون التسهيلات التي نُقدّمها لك.

– سأقوم بالمقابلة الصحافية، أمّا الباقي فلا، آسف.

– هل هذا آخر كلام عندك؟ الشيخ سيغضب ويستردُّ هديّته.. عموماً أنت حرّ.

أغلق الخط ولم ينتظر جوابي. كان يعلم أنّ تلميحه إلى فقداني منى قد مسّ وتراً حسّاساً في نفسي. فتحتُ باب الغرفة وبحثتُ عن أميرتي. كانت تجلس مُتربّعة في غرفة الديوان تشاهد التلفزيون، يتضوّع منها العطر وقد اغتسلتْ، وارتدتْ الفستان الأحمر المثير الذي اشتريناه اليوم في جولتنا الصباحيّة. قالت إنّها خرجت

واشترت غداءً من مطعم قريب. كانت الأطباق على الأرض لم تُمسّ. أرزّ وسمك وفتة عسل بالسمن. نظرتُ إلى الساعة، كانت تشير إلى الرابعة والنصف عصراً. قلت لها مُعاتباً: «لماذا لم تتغدّي؟». قالت: «لن يكون له طعم بدونك». رأيتُ أنّها قد هيّأت لي مجلساً. قالت: «غسلتُ القات ووضعته في الثلاجة لكي لا يذبل». دنتْ من السفرة وانتظرتني أن أقعد. لم أقدر أن أكسر بخاطرها، قلت في نفسي آكل بسرعة ثمّ أخرج. كانت تأكل وتتكلم، حقيقة لم أكن أصغي إليها، بالي مشغول، وداهمتني وساوس بأنّها مشتركة في مؤامرة دنيئة تُحاك ضدّي. فكرتُ أنّها لا تحبّني، بل هي ممثّلة أدّت المطلوب منها ببراعة. صوت راح يتردّد صداه في رأسي بأنّها مُحتالة، وقد انطلى عليّ خداعها ببساطة. دخل عقلي في متاهة من الظنون السيّئة، وتخيّل الدسائس الخبيثة. قرّرتُ في نفسي أنّني عندما أعود من مهمّتي سأستدرجها في الكلام، لأستنبط مدى تورّطها في المسرحيّة التي وقعتُ ضحيّة لها.

وقفتُ فجأة وقلتُ لها إنّني ذاهب لمشوار مهمّ وقد أتأخّر. فغرتْ فاها مُندهشة من حدّة نبرتي وتغيّر ملامح وجهي. ردّت بكلمة واحدة: «طيّب». نكستْ رأسها، وتوقفتْ عن الأكل، وقد اكتستْ ملامحها بالحزن.

سحبتُ رزم المال من الدرج ولم أترك لها ريالاً واحداً، عدتُ إلى غرفتي وجمعتُ عدّة الشغل في الحقيبة، وخرجتُ دون أن أُودّعها.

قدتُ سيّارتي وأفكار مجنونة تعصفُ برأسي. حاولت أن أضبط أعصابي وأُبعد تلك الهواجس الكئيبة من مساحة تفكيري. إحدى الأفكار التي راودتني أن أقود سيّارتي بسرعة هائلة وأُغرق نفسي في البحر.

اتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد وزوّدني ببعض النصائح، طلب منّي أن أشتري شطرنجاً، قال إنّ الروسيّة لن تُقاوم إذا ما عرضتُ عليها أن تلعب دوراً. قال إنّها تقضي إجازتها الأسبوعيّة في هذا المنتزه لتُدخّن المعسّل (النرجيلة). سألني إن كنت جرّبت المعسّل، فقلتُ له «لا»، فقال لي: «إذاً لقد حان الوقت لتدخّن المعسّل». وأغلق الخط.

اتّجهتُ إلى مكتبة كبيرة في سوق باب مشرف واشتريتُ جرائد اليوم، وشطرنجاً خشبيّاً بحجم مناسب لحقيبتي التي أصبحت تبدو مثل بطن امرأة حبلى في شهرها الأخير.

أوقفتُ سيّارتي عند بوّابة المنتزه، وتعطّرت بعطر الخزامى الذي تركته منى في الدرج الأمامي. بحسب نصيحة رئيس التحرير بحثتُ عن شخص اسمه عوض عبد الله. عندما وجدته عرّفته بنفسي، فهشّ في وجهي وقال لي إنّه في خدمتي. طلبتُ منه أن يدُلّني على المكان الذي تجلس فيه امرأة روسية وصفتها له. قال وابتسامته تصعد منحرفة لليمين: «تاتيانا؟». قلت له: «هي». قال: «تعال». أخذ منقل الجمر ومشيتُ خلفه، اتّجهنا صوب مصاطب إسمنتيّة مُعدّة للجلوس تفصل بين الواحدة والأخرى منها سواتر من القصب ارتفاعها متر ونصف، فتمنح الجالس خصوصيّة معقولة.

وصلنا إلى المصطبة التي تجلس عليها تاتيانا، كانت تُدخّن النرجيلة في مواجهة البحر وظهرها لنا. طلبتُ من عوض أن يُكلّمها عنّي، وأن يخبرها أنّني أرغبُ في إجراء مقابلة صحافيّة معها.

تقدّم عوض نحوها ووضع جمرات جديدة على قصدير رأس الأرجيلة، ثمّ انحنى وهمس في أذنها مُشيراً إليّ. وقفتْ والتفتتْ نحوي، بدتْ مُرتبكة ولا تعرف بماذا تردّ. رسمتُ أفضل ابتسامة في جعبتي، وضممتُ كفّيّ وانحنيتُ راجياً. نجحتْ حركتي في إذابة

حذرها، فأشارت بيدها مُرحّبة. طلبتُ من عوض أن يُحضر لي معسّلاً من النوع الخفيف، فمضى وهو يضحك! تردّدتُ في مصافحتها، عرّفتها بنفسي وعملي، وناولتها بطاقتي الصحافية في الاتحاد الدولي للصحافيين، أخذتها وراحت تقرأها بانتباه، ثمّ أعادتها لي وصافحتني بأريحيّة ودعتني للجلوس. شرحتُ لها أنّني أريد إجراء مقابلة معها حول قضيّة الطفلة جليلة. رجعتْ برأسها للوراء تفكّر، ثمّ عادتْ تنظرُ في حدقتي عينيّ: «Ok». حمدتُ الله في سرّي لأنّني تجاوزتُ أصعب عقبة في مهمّتي. شغّلتُ المسجّلة ووجّهتُ لها عشرة أسئلة، استغرقتْ المقابلة نصف ساعة - كلها بالإنجليزية - ثمّ استأذنتها في أخذ صور لها. لم تُمانع، فصوّرتها من الأمام ومن الجانبين، علّقتْ مازحة أنّني أُصوّرها كما يفعلون في الشرطة عندما يُصوّرون مجرماً! كانت جميلة للغاية، جنّية حلوة من جنّيات الحكايات، واستغربتُ أن يغيب هذا الجمال الخارق عن أنظار العالم ويُدفن في بلدة صغيرة نائية.

أردتُ الانصراف، فقالت لي إنّني لم ألمس أرجيلتي. أجبتها وأنا مُحرج بالفعل: «أخشى أن أُضايقكِ بدخاني». قالت وعلى وجهها تعبير مرح: «لن أتضايق بشرط أن تخرجه من أنفك ومن فمك فقط». ضحكتُ من قلبي، وأخذتُ الأنفاس الأولى لي بحذر شديد، ورغم ذلك داهمني سعال قويّ، حتى جحظتْ عيناي، وكدتُ أقعُ في المحظور الذي حذرتني منه تاتيانا، ولكن الله سلّم! لم أحتج لإخراج الشطرنج، لقد كان دمها خفيفاً جداً، وروحها أرقّ من نسيم الصباح.

غربت الشمس ولم نشعر بمرور الوقت. عندما تأهّبتُ للرحيل، دعوتها للعشاء، ولكنّها أبتْ، وتحجّجتْ بأنّ عليها العودة مبكراً إلى بلدة الجروم. جازفتُ وعرضتُ عليها توصليها بسيّارتي. وافقتْ على أن أوصلها إلى الفرزة (الموقف) لتأخذ من هناك سيّارة نقل «بيجو».

غمزتُ لعوض ليُنبّه موظف الحسابات، وعندما وصلتْ تاتيانا إليه وفتحتْ حقيبتها للدفع، قال لها موظف الحسابات إنّ حسابها مدفوع. وجّهتْ لي اللوم، وقالت إنّها تحبُّ أن تدفع عن نفسها. قلتُ لها إنّني أنا المدين لها لموافقتها على إجراء الحوار الصحافي دون موعد مُسبق.

صعدنا السيّارة، وأوصلتها إلى الفرزة. كان هناك مسافرون بحقائبهم مرميّون على الرصيف، وسيّارات بيجو مهجورة من سائقيها. كان الوضع غير طبيعي. نزلتُ مع تاتيانا، وعرفنا أنّ السائقين مضربون عن العمل، يُطالبون نقابتهم برفع أسعار النقل. بان على وجه تاتيانا تعبير قلق، وأخذتْ تقضم شفتها السفلى. لمحتُ في عينيها خوفاً من البيات بعيداً عن سكنها في الجروم. كرّرتُ عرضي عليها، كان كبرياؤها يمنعها من الموافقة، رفضتْ وقالت إنّها ستبحثُ عن فندق. رجوتها وألححتُ عليها في الرجاء، فلانت أخيراً وقد لاحظتْ أنّ عدداً من المارّة قد وقفوا يتفرّجون عليها. كان جمالها لافتاً للأنظار ويستحقُ التوقف عنده.

صعدتْ السيّارة واتّجهنا إلى بلدة الجروم. اشتريتُ قبل خروجنا من مدينة الحُديدة سندوتشات شاورما، أكلناها في السيّارة. حكيتُ لها عن عملي في الجريدة، وحكتْ لي عن عملها في المستشفى، تبادلنا أرقام الهواتف، وتوطّدت معرفتنا. حمداً لله على التوفيق، لقد خدمني الحظ لأبدو في عينيها رجلاً شهماً.

عدتُ إلى الشقة الساعة الحادية عشرة ليلاً، كانت منى لا تزال مستيقظة، وقد فتحتْ لي قبل أن أُدخل المفتاح في ثقب الباب. عانقتني بلهفة، وساعدتني في خلع جزمتي وجوربيّ. تعاملتُ معها ببرود، ودخلتُ دورة المياه دون أن أفوه بكلمة. عندما خرجتُ، قالت إنّ العشاء جاهز، فقلتُ لها إنّني تعشّيت. كانت تسير خلفي ذليلة

مُنكسرة، والحيرة تكاد تقتلها من تبدّلي المفاجئ تجاهها. قلت لها إنّني مُتعب وسأنام مباشرة. أطفأتُ النور وتمدّدتُ على السرير. الحق أنّني كنت مرهقاً، واستغرقت لأذهب في سبات عميق مدّة أقصر من اشتعال عود كبريت.

السبت (53)

صحوت عند التاسعة صباحاً وقد تورّمتْ عيناي من كثرة النوم! تحوّلتُ إلى جهة منى فلم أجدها بجواري في السرير، تحسّستُ موضعها فوجدته بارداً. تفقّدتُ هاتفي فلم أجد أيّ مكالمات فائتة أو رسائل. لا أخفي أنّني كنت أتوقّع رسالة من تاتيانا تشكرني فيها على التوصيلة.

فتحتُ باب غرفة النوم ففوجئتُ بمنى نائمة على أرض الصالة. عندما سمعتْ صرير الباب انتبهتْ من نومها وجلستْ. لم ترفع نظرها إليّ، كانت تشبه كلباً يحرس صاحبه. انتابني ندم عظيم على سلوكي الفظّ تجاهها أمس. تحوّلي من عاشق مُتيّم يكاد يعبدها إلى وغد تمتلئ عيناه بالشك والريبة لا بدّ أصابها بصدمة مريرة. وقفتُ في فرجة الباب أتأمّلها وألوم نفسي بصمت. كنت أنتظر منها كلمة أو نظرة لأكفّ عن جلد ذاتي وأتقدّم إليها مُعتذراً، لكنّها كانت تتشاغلُ عنّي وتخفي ارتباكها بجسّ أصابعها. ثمّ لم تعد تُطيقُ صبراً، رفعتْ رأسها وقد اشتاقتْ أن تراني. دنوت منها وقعدتُ في مواجهتها، سألتها: «لماذا لم تنامي على السرير؟». أشاحتْ بوجهها وردّت بصوت مُنكسر واهن: «أنا شعرتُ بك». أردتُ أن أتكلّم، أن

أدافع عن نفسي، أن أنكر، ولكن لم يكن بإمكاني أن أغالطها، لأنّ رائحة الضغينة كانت تفوح منّي وتُشمّ في الهواء الذي أزفره. سحبتها إلى حجري وعانقتها، فانفجرتْ تبكي وتشهق، كفكفتُ دمعها وراضيتها، وعرضتُ عليها أن نُفطر في الكثيب، فتنشّطتْ وعادت البشاشة إلى خدّيها.

دخلتُ الحمّام وحلقتُ ذقني، وأنا أغتسل والصابون على جسمي، دقّتْ منى الباب وقالت إنّ هاتفي يرنّ. أجبتها أنّني سأردّ عليه بعد أن أخرج. قلتُ في نفسي إمّا أن يكون المتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد، وهذا مستحيل لأنّه لا يستيقظ صباحاً ولو اختطفوا أمّه، وإمّا أن تكون زوجتي! خرجتُ من الحمّام مُنزعجاً، ناولتني منى الهاتف، فزاد انزعاجي، لقد كان المتّصل رئيس التحرير ما سواه. ارتديتُ ملابسي على عجل ومعدّل قلقي يتصاعد. كانت منى قد تجهّزتْ وارتدتْ البالطو وحملتْ حقيبة يدها، والسرور يطفح أمواجاً من بين أضلاعها. احتضنتها وقبّلتها في فمها، ونسيتُ للحظات وجودي الخاصّ، وامتزجتُ معها في كيان واحد، أكثر سموّاً ونبلاً وطهارة من الكائن الذي أنا عليه بمفردي. قاطعني رئيس التحرير – لا جزاه الله خيراً – الذي عاود الاتصال وقال لي بصوت جافّ نكد: «أما زلت حيّاً؟! افتح النت وانظر الأخبار». وأغلق الخط. هذه المرّة يبدو أنّ الأمر جلل. تناولت كمبيوتري المحمول وخرجنا.

كانت الشمس ترسل حمماً من الحرارة وضوؤها يبهر العيون. أدرتُ محرّك السيّارة وشغّلتُ جهاز التكييف، أردتُ الانطلاق فإذا برئيس التحرير رياض الكيّاد يتّصل مرّة أخرى:

– اسمع.. أريدك أن تكتب حالاً تكذيباً للخبر.

– أيّ خبر؟

– صباح الخير.. هل أنت شارب؟

– ليس الآن، في الليل إن شاء الله.
– يا ابني أنت مخمور خِلقة، لا داعي لأن تزيد الطين بلّة!
– بعض ممّا عندكم!
– صار لسانك طويلاً كذيل القطة! جيّد، نحن نحتاج إليك لهذا السبب، طوّل لسانك عليهم حتى يسحب على الأرض، سأتّصل بك بعد نصف ساعة.

أغلق الخط. اعتذرتُ لمنى عن الذهاب إلى الكثيب، وأخبرتها أنّ هناك تطوّرات تستلزم بقائي للعمل. بذلتْ جهدها لتداري خيبة أملها، قالت إنّها ستعدّ لي سندوتشات فاصوليا وكوباً من القهوة.

عدنا للشقة مُنغّصين. شغّلت كمبيوتري المحمول ورحت أتصفّح النت. وجدتُ العديد من الصحف العربية البارزة قد نشرت خبراً عن حادثة اغتصاب الطفلة جليلة، مع إشارة مُقتضبة إلى تكفير الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي بسبب تعاطفها مع الطفلة المُغتصبة. صياغة الخبر غير مهنيّة ومنحازة لصفّ جليلة. كان مصدر الخبر وكالة أنباء عالمية معروفة. تتبّعتُ الخبر باللغة الإنجليزية فصعقتُ أنّ أكثر من 500 وكالة أنباء وصحيفة أجنبية في القارّات الخمس قد نشرته. كان هذا يعني تدويل القضيّة، وخروجها من نطاقها المحليّ المحدود.

انقضتْ ساعة وأنا أتنقّلُ من موقع إلى آخر. يبدو أنّ رئيس التحرير انشغل عني. وهذا أفضل لأنّه يُشتتُ ذهني باتّصالاته. أخذتْ منى كوب القهوة الفارغ، طلبتُ منها أن تُعد لي كوباً ثانياً.

كنت أُدخّنُ بشراهة مع تفاقم توتّري. صغتُ بسرعة بياناً طنّاناً أنفي فيه التهمة عن الشيخ بكري حسن، وأُؤكّد أنّ المتهم، بحسب تحرّيات الشرطة، هو صبيّ مراهق لا يزال فارّاً من وجه العدالة. نفيتُ أن تكون المدعوّة سلام مهدي تعرّضتْ للتكفير، وذكرتُ أنّ أئمّة

المساجد قد يتعرّضون للقضايا العامّة، لكنّهم لا ينحدرون إلى مستوى ذكر امرأة بالاسم. راجعتُ الصياغة عدّة مرّات، وحذفتُ العبارات التي تمسّها شخصياً، وبعثتُ بالبيان على إيميل رئيس التحرير.

دخلتُ الفايسبوك، كانت جبهتنا مُتداعية، والطرف الآخر يتقدّم بقوّة وثقة، ويحظى بتعاطف غير مسبوق. دخلتُ حسابي في موقع «تويتر» فوجدتُ تغريدات مُثبّطة. أحد الأصدقاء غرّد قائلاً: «هؤلاء الذين ورّطوا مُطَهَّر في قضيّة الطفلة جليلة يريدون إحراقه، يسعون إلى الثأر منه بسبب أبيه». وخزتني كلمات هذا الصديق كإبرة نحلة اخترقت الجلد وسمّمته.

تجاوزت الساعة منتصف النهار وتعالى صوت الأذان من الجوامع القريبة. دخلتْ منى وهي تحمل لي كوب القهوة الثالث. أعطيتها نقوداً لتشتري لنا غداءً وقاتاً. اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد وأنا على أعصابي أنتظر رأيه في البيان:

– أحسنت.. أنا أشدُّ على يدك.

– أظنّ أنّ من المُستحسن ترجمة البيان إلى الإنجليزية وتعميمه على وكالات الأنباء العالمية.

– لقد أنهينا ترجمته للتوّ، سنبثّه بعد ساعة.

– جيّد.

– ماذا فعلت بشأن المقابلة الصحافيّة مع الروسيّة؟

– بعد الظهر سأفرغ الحوار.

– أرسله كما هو باللغة الإنجليزيّة وأرسله، سيتولى قسم الترجمة تحريره.

– ألن يُنشر بالعربيّة؟

– لا، سننشره في مجلة «ملكة سبأ» دون ذكر اسمك.

- اسمي لا يهمّ، المهمّ هو أن أحصل على عدد من النسخ لتكون جواز سفر للتواصل معها مجدّداً.

- لا تنتظر حتى صدور العدد، اختلق أيّ مبرّر للتواصل معها، بالمناسبة حسابك أنت وتاتيانا مدفوع.

- تمام.

- لديك مهمّة.

- اللهم اجعله خيراً!

- هاها.. لا تتفاءل كثيراً.. هذه المرّة ستجري حواراً مع رجل ذي شاربين طويلين يصلحان جسراً مُعلقاً بين قارّتي آسيا وأفريقيا.

- يبدو أنّه مغتصب أولاد!

- مرتضى عبد الجبّار، أشرس عقيد في الشرطة، اختاره وزير الداخليّة شخصيّاً لإلقاء القبض على الولد من دير بني مساعد المتّهم باغتصاب جليلة.

- متى سيُعيّن؟

- صدر قبل قليل قرار تعيينه مديراً لقسم شرطة باب المنجل.. وهو الآن في طريقه للمطار، أو قد يكون مُحلّقاً في الجوّ، عليك أن تكون في استقباله في مطار الحديدة وتأخذ منه تصريحاً.

- والعقيد أحمد فتيني؟

- أُحيل للتقاعد.. سيتم اليوم التسليم والتسلّم بينه وبين المدير الجديد.. أين أنت؟

- في الشقة.

- توجّه فوراً للمطار.

كنت مُحتاراً هل أنتظر عودة منى أم أخرج. لو كانت تعرف القراءة لتركت لها رسالة. نويتُ أن أشتري لها عند عودتي هاتفاً محمولاً وشريحة باسمي تحسّباً لمواقف كهذا. قلت في نفسي إنّنا

في سباق مع الزمن، فنزلتُ مُسرعاً، وقدتُ السيّارة بتهور، باتجاه الكيلو 16.

عبرتُ نقطة التفتيش ودخلت حرم المطار. مواقف السيّارات خاوية، وهناك خمس سيّارات واقفة عند بوابة الصالة الوحيدة، وعدد قليل من الحمّالين يلوحون كذباب يضرب رأسه بالزجاج. نزلتُ من سيّارتي المُكيّفة، كان الصهد يتصاعد من الإسفلت تكاد اليد تمسكه من غلظته، وشعرتُ به يشوي وجهي.

دلفتُ إلى الصالة وتوقعتُ أن تكون مُكيّفة، لكنها لم تكن كذلك. سألتُ عن الطائرة القادمة من صنعاء، فقالوا لي إنّها ستصل بعد عشر دقائق. نظرتُ عبر الزجاج إلى المدرج، لم تكن هناك أيّة طائرات، باستثناء طائرة مُعطلة قديمة تشبه بغلاً ميتاً.

وصلتْ الطائرة بعد ساعة وأربعين دقيقة. لم يكن هناك باص، نزل الركّاب منها ومشوا على أقدامهم إلى الصالة. ميّزتُ العقيد بسهولة من بذلته التي كانت نجماتها تعكس ضوء الشمس. لقد كذب عليّ رئيس التحرير رياض الكيّاد، أو هو لم يكن يعرفه شخصيّاً.. فالعقيد مرتضى عبد الجبّار لم تكن لديه ذرّة شعر تحت أنفه. لقد كان حليق الذقن والشارب، ووجهه صقيل كالمرآة. المفاجأة الأخرى أنّه كان شديد السمرة، وذو كرش بارزة كشرفة. بدا في عينيّ رجلاً يتمتّع بشخصيّة قويّة. هرعتُ لاستقباله وعرّفته بنفسي. عانقني بحرارة مُبالغ فيها، وقبّلني في خديّ، وهو أمر غير مُستساغ، لأنّ العادة عندنا أن نُلصق الخدود ونُرسل القبلات في الهواء. استأذنته في أخذ تصريح ونحن وقوف، فرفض وطلب أن نجلس! قال إنّه في كلّ الأحوال مضطرّ للانتظار في صالة المطار إلى حين وصول سيّارته وحرّاسه من صنعاء. سجّلتُ تصريحه، وأخذتُ له صوراً. طلب أن يرى الصور، جلستُ بجواره وأخذتُ أستعرضها، وإذا به يضع يده

على فخذي.. كانت أصابعه لا تتّفق مع مظهره العسكري الصارم، فقد كانت قصيرة ومُدوّرة، ليّنة وناعمة تليق بآنسة! عندما تسلّلتْ أصابعه إلى باطن فخذي فقدتُ القدرة على التحمّل فنهضت وتأهّبت للانصراف، دعاني للغداء معه، فاعتذرتُ بأنّ عليّ إرسال خبر تعيينه في أسرع وقت ممكن للجريدة. غمزني بعينه وهو يطلبُ منّي أن أهتمّ بصوره.

غادرتُ المطار وأنا أفكّرُ في ما سبق أن قلته عنه في مكالمتي الهاتفيّة مع رئيس التحرير من باب المزاح من أنّه «مغتصب أولاد»، ولكنّني بعد أن التقيته شخصيّاً، تأكدت تقريباً من أنّ حدسي كان في محلّه!

مررتُ على كشك واشتريتُ جرائد اليوم، ثمّ وقفتُ عند أوّل محلّ يبيع الهواتف، واشتريتُ هاتفاً عالي الجودة بثلاثمئة دولار وشريحة، ووعدني البائع بتفعيل الشريحة بعد ساعة.

عدتُ إلى الشقة. لم تكن منى هناك. فتّشتُ الغرف الثلاث، ثمّ دخلت إلى المطبخ فوجدت أنّها قد أحضرت الغداء والقات ولكنّها تركتْ كلّ شيء كما هو وخرجتْ. شعرتُ بالقلق وانقبض قلبي. ما الذي حدث... سيطرت عليّ هواجس مُخيفة. قرّرتُ أن أنزل وأبحث عنها بالسيّارة في الشوارع المُحيطة بنا. تمنّيتُ في هذه اللحظة لو أنّني أمتلك مسدّساً. خاطر مُزعج خطر ببالي، أنّ عصابة حقيرة من أنصار المدرّس اليساري حسين البطّاح قد اختطفوا منى ليعرضوها أمام وسائل الإعلام الدوليّة كبنت قاصر تتعرّض للاستغلال الجنسي.. طعنة غادرة مثل هذه كفيلة بالقضاء على مستقبلي المهني وتماسك عائلتي للأبد.

وأنا نازل على الدرج لا أكاد أرى ما أمامي من شدّة اضطرابي، تلقّى هاتفي رسالة، فتحتها فإذا هي من الشيخ بكري حسن: «سامحنا

يا أستاذ، أخذنا منى مؤقتاً. نحتاج إليها في عرس أختي الذي سيقام يوم الخميس المقبل. ستعود لخدمتكم من يوم الجمعة. يسرّنا حضوركم». جلستُ على الدرج ومشاعر متناقضة تعتريني. كنت سعيداً لأنّ منى بخير، وسخرتُ من نفسي عندما تصوّرتُ أنّ تلك المجموعة من التافهين يمكنها اختطاف منى واستخدامها كورقة في الصراع.

رجعتُ إلى الشقة، وشعرت بالوحشة. داهمني حزن عظيم لا يوصف ولا يُمكن للكلمات أن تُعبّر عنه لفراق منى وغيابها عن عينيّ. كنت أرى صورتها في كلّ زاوية من الشقة. انفتحتْ ذاكرتي كجرح، وراحتْ تنزف اللحظات الجميلة التي عشناها معاً، كلماتها ولمساتها، تمايل جسدها النحيل، غُنج حركاتها ولطف مشيتها، حلاوة روحها وخفّة دمها. فقدتُ شهيّتي للأكل، فوضعت الطعام في الثلاجة. غسلتُ القات ثلاث مـرّات، وجلستُ أمـام كمبيوتري المحمول. وضعتُ أصابعي على لوحة المفاتيح لكنّي لم أستطع تحريكها، كانت يدي اليمنى ميتة. وضعت خدّي على يدي اليسرى، وتساءلتُ هل هذه حياة حقيقيّة أم مجرّد حلم مزعج؟؟

الأحد (52)

ظلّ هاتفي يرنّ مدّة ثلث ساعة دون توقّف. كنت كشخص في حالة غيبوبة، أُدركُ ما حولي ولكنّ جسدي مشلول. وجدتُ صعوبة في فتح عينيّ، كان ضوء النهار يجهر بصري ويُسبّبُ لي الألم. آخر ما أتذكّره أنّني أمضيتُ ساعات وساعات وأنا أتقلّبُ على السرير دون قطرة نوم. كان المتّصل اللجوج هو المحامي حمّود شنطة الذي أخبرني بآخر التطوّرات. قال إنّ محامي جليلة، شعيب العجيل، قد استصدر مذكّرة استدعاء من النيابة للتحقيق معي بشأن التهم المنسوبة إليّ، وهي تحريف كلام الطفلة جليلة بقصد تضليل العدالة في الحوار الذي أجريته معها ونشرته جريدة «الشعب». طمأنني بأنّ في إمكاني التجوال أنّى أشاء، ولكن عليّ تجنّب وضع قدميّ في مبنى نيابة الجروم. قال أيضاً إنّ هذا المحامي الصفيق قد رفع مذكّرة إلى المحكمة مُطالباً بإصدار أمر قضائي بمنع الشيخ بكري حسن من السفر إلى الخارج. سألته مُغتاظاً: «وأنت ماذا تفعل؟ تكتفي بالفرجة عليهم وهم يضربوننا؟!». أجاب بأنّ جهوده مُنصبّة على تأخير إحالة ملفّ القضيّة من النيابة إلى المحكمة، قال إنّ قاضي محكمة الجروم شيبة خرف، من مُخلّفات الغزو الحبشي لليمن ويفتقر إلى المرونة وليس «مُتعاوناً». ثمّ طلب

مقابلتي، قال إنّه سيكون في مدينة الحُديدة عصراً لقضاء أشغاله، وبعد ذلك سيكون مُتفرّغاً، اعتذرت وقلت له إنّني سأكون مشغولاً بكتابة عمودي اليومي في جريدة «الشعب». طلب موعداً، فقلتُ له: «نتركها للظروف». رمى بتلميح لم أفهم مغزاه: «البلاش يجيب العمى والطراش». قلت له: «ماذا تقصد؟». قال: «انظر حولك وستفهم.. مع السلامة».

اتّجهتُ للمطبخ وفتحتُ الثلّاجة، وأكلتُ ما صادفته في أدراجها واقفاً وأنا أرتجفُ من الجوع، لم أكن قد ذقت لقمة منذ صباح أمس. شعرتُ بالنفور من بقائي في الشقّة، قضيتُ حاجتي ولم أحلق ذقني أو حتى أغسل وجهي، وخرجت.

انطلقتُ بسيّارتي إلى مكتبة قريبة في شارع الميناء اشتريت منها جرائد اليوم. توجّهتُ إلى الكورنيش ووقفتُ عند الشاطئ، أطفأتُ المكيّف، وفتحتُ نوافذ السيّارة ليلفحني نسيم البحر الحارّ الرطب ويُعيد الحياة إلى دورتي الدمويّة.

نشرت الصحف الحكوميّة جميعها خبر تعيين المدير الجديد لقسم شرطة باب المنجل مرفقاً بصورته، وفي ذيل الخبر إشارة خاطفة إلى إحالة سلفه للتقاعد المبكر بسبب تقاعسه في أداء عمله. أعدتُ التدقيق في ملامحه، لم يكن وسيماً ولا قبيحاً، ولكنّ فيه شيئاً لا يُريح العين ولا يطمئن القلب... فكّرتُ أنّهم اختاروه لتمتّعه ببشرة سمراء غامقة، بغرض الإيحاء بأنّه من أهالي الساحل. تنهّدتُ عندما مرّتْ بخيالي صورة العقيد أحمد فتيني، لا شكّ في أنّني قد دمّرت حياته، ولكن لا مفرّ، لقد وضعتنا الظروف في مواجهة.

صحيفة «الأيام» المعارضة أعادت نشر خبر الوكالة الدولية، ونشرتْ ملفّاً عن التكفير في اليمن. صحيفة «النضال» الحُديدية نشرتْ تغطية صحافيّة واسعة عن سير التحقيق في قضيّة جليلة.

ووجدتُ هجوماً لاذعاً على الشيخ بكري حسن مكتوباً باسم مستعار «وردة الحُديدة»:

«... حول منزل الشيخ ومزرعته تحوم بنات صغيرات أعمارهنّ ما بين 8-14 سنة، وجوههنّ مصبوغة بمكياج تبييض البشرة، وشفاههنّ ملوّنة بأحمر زاعق، وبأيديهنّ حقائب صغيرة، هؤلاء البنات الصغيرات يُرسلهنّ أهاليهنّ الفقراء جدّاً فريسة سهلة للشيخ بكري حسن الذي يهوى مُعاشرة الصغيرات، ويهبهنّ مبالغ ماليّة كبيرة مقابل فضّه لبكارتهنّ..».

كان مقالاً جريئاً جدّاً، ويحمل بصمة شخص من منطقة باب المنجل نفسها يعرف تفاصيل دقيقة عن الحياة السرّية للشيخ. خمّنتُ أنّ الكاتب ربّما يكون سامي قاسم. إن كان هو فإنّ هذا يعني أنّه قد حفر قبره بقلمه. رميتُ الجرائد تحت المقعد، حاولتُ الاتّصال بزوجتي - لكي أطمئنّ على أطفالي - لكنّها لم تردّ. أخذتُ كمبيوتري المحمول وتصفّحتُ النت، دخلتُ موقع يوتيوب، كانت هناك مقابلات تلفزيونية أجرتها عدّة قنوات فضائية محليّة وأجنبيّة مع الطفلة جليلة والناشطة الحقوقيّة سلام مهدي. أرقام المشاهدة كانت أيضاً عالية جداً. شاهدتها جميعاً، ولاحظتُ أنّ سلام مهدي كانت تتعمّد تحريض الرأي العام ضدّ السلطة. الهجوم في الفايسبوك مستمر، موازين المعركة مالت لمصلحتهم منذ نشر ذلك الخبر المشؤوم.

مرّ الوقتُ سريعاً، واستوت الشمس على عرشها في وسط السماء. كنت جائعاً وأنتظر حلول الظهيرة منذ مدّة، من الغباء أن أشعر بالحرج من الذهاب مبكراً للمطعم. تحرّكتُ بسيّارتي إلى مطعم يبدو مزدحماً - وهو دليل عملي على جودة طبخه - وطلبتُ نفر لحم

حنيذ مع الأرزّ. اتّصل بي رقم غريب، مسحتُ أصابعي بمنديل ورقي وأجبت. كان المتّصل العقيد مرتضى عبد الجبّار الذي شكرني على الخبر والصورة الحلوة المنشورين في الصحف. ثمّ قال إنّه يزفّ لي بشرى سارة: «لقد ألقينا القبض على المدعوّ عطا المساعدي المتّهم باغتصاب الطفلة جليلة». هنّأته على هذا الإنجاز الخطير، وكدتُ أقول له «أنا أشدّ على يدك» لكنّي رددتُ الكلمة عن طرف لساني. سألني إن كنت سأحضر إلى القسم للحصول على سبق صحافي، سألته: «متى قبضتم عليه؟». ردّ مُتفاخراً: «قبل ساعة.. راقبته دوريّتنا عندما خرج إلى وادي الدود... أخرجناه من الماء وهو عارٍ هاها». قلت له مازحاً: «سأحضر ولكن بشرط أن يكون الولد قد ارتدى ملابسه». أجاب وطبقة صوته تلين: «جسمه جميل، سيعجبك أن تراه بدون ملابس!».

أنهيتُ وجبتي، وشربتُ قارورتَي مياه غازيّة لأهضم لحم الكبش الذي تناولته. شغلتُ سيّارتي وانطلقتُ صوب بلدة الجروم، ومنها إلى باب المنجل. وصلتُ إلى القسم وأدخلتُ سيّارتي إلى الحوش.

كان العقيد مرتضى عبد الجبّار في غرفة التحقيقات يستجوب الولد المساعدي. رفض الجندي أن يسمح لي بالدخول. توقعتُ أن أسمع صرخات ونداءات استغاثة إن كان يتعرّض للتعذيب، لكنّ الصمت كان مُطبقاً. صمت مُقبض يثير الرهبة. أمرني العسكري بلطف أن أنتظر في المكتب.

توجّهتُ إلى المكتب لكنّي لم أُطق الجلوس، شعرتُ بالقلق على الولد، خصوصاً أنّني قد لمستُ ميولاً للمثليّة عند العقيد. تمشّيتُ في ردهات القسم، ورأيت في الحجز الجندي الضخم الجثّة الأسود البشرة، «الخادم»، فاقتربتُ منه وسلّمتُ عليه، لم يردّ السلام وأشاح بوجهه. يبدو أنّه عرفني، تلك المقالة عن العقيد أحمد فتيني أحدثت

دويّاً هائلاً في هذه المنطقة. سألتُ الجندي المُكلف بالحراسة عن اسمه، فأجابني: «سعد موسى». أخرجتُ الكاميرا والتقطتُ له صورة. عندما لمع الفلاش انتبه لما أفعل، فاهتاج كالغوريلا وحاول مهاجمتي، ابتعدتُ عن القضبان الحديدية مذعوراً، كان يصرخ بشتائم نابية زلزلت جدران القسم. شعرتُ بأنّ قلبي يسيح من الرعب. كان يهزّ القضبان محاولاً خلعها، حتى إنّ الحارس أحسّ بالخطر فتناول بندقيّته وعمّرها مهدّداً في محاولة للسيطرة على غضب السجين.

هربتُ إلى المكتب وقد جفّ ريقي. لحق بي العقيد مرتضى عبد الجبّار وهو يتعرّق بشدّة. فتح ثلاجة صغيرة وأخرج ثلاث قناني مياه معدنية باردة تسبح فيها شطف مُتجلّدة. أعطاني واحدة، وواحدة لمساعده، والثالثة له. بعدما شربنا قال وهو يبتسم ويشبك يديه على المكتب على شكل مثلث: «أبشّرك.. المتّهم عطا المساعدي اعترف وسجّلنا اعترافه في محضر رسمي». قلت وأنا ألاحظ نظرات المساعد الزائغة غير المستقرّة: «بهذه السرعة!». ضحك العقيد مرتضى: «أنا عندي طريقة مضمونة تجعل أيّ متّهم يعترف بارتكابه أيّ جريمة أريدها». قفزتْ في ذهني صور لأساليب تعذيب بشعة، أزحتها وحاولت التماسك حتى لا يظهر عليّ التأثّر: «غداً سيُنشر الخبر في الصحف كلها». رفع ذراعه نافخاً عضلتها كمصارع يستعرض قوّته: «اكتب اسمي بالخطّ العريض، لأنّ الفضل يعود لي أولاً وأخيراً في حسم هذه القضيّة». نهضتُ وقد بدأتْ معدتي تؤلمني: «أريد أن ألتقط له صوراً لننشرها مع الخبر». ضيّق عينيه وأصدر تلك الشخرة المصحوبة بابتسامة خافتة لزجة، وطلب من مساعده أن يُرافقني إلى غرفة التحقيقات.

فتح لنا الجندي الباب ونبضات قلبي تتسارع. دخلتُ ورأيت عطا مُلتفّاً على نفسه في زاوية كالدودة عندما تشعر بالخطر، وجهه

أصفر لا دم فيه. طلبتُ من المساعد أن يتركنا دقائق وحدنا. حكّ كتفه وكأنّه يخشى أن تطير رتبته المتواضعة: «هذا مخالف للقانون». نهرته مُبحلقاً فيه بعصبيّة: «يا أخي اخرج، أنت تُعطلني عن عملي». خفض بصره وتنحنح مُحرجاً: «سأكلّم الأفندم». وخرج.

أخرجتُ الكاميرا وهيّأتها للتصوير. كان الولد يُراقبني بعينين مُخضلّتين بالدموع. قلت له إنّني أريد أن آخذ له صوراً سوف تُنشر في الجريدة. لم يبدر عنه أيّ ردّ فعل. طلبتُ منه الوقوف فلم يستجب. قلت له إنّني أستطيع أن آخذ له صورة وهو بهذا المنظر البائس المُذل وأنشرها في الجريدة، وستكون النتيجة أنّ الناس سيأخذون انطباعاً سيّئاً عنه، وعن قومه بني مساعد. ظهر شيء من الاهتمام في عينيه، تابعتُ قائلاً: «أريد أن تظهر صورتك في الجريدة وأنت شامخ مُحتفظ بكرامتك». بدا أنّه قد أصغى أخيراً لما أقول. رأى قنينة الماء في حقيبتي فطلبها ليغسل وجهه، أعطيتها له، ولما فرغ، ناولته منديلاً ورقيّاً ليُجفّف وجهه. وقف محاولاً التماسك برغم الإعياء البدني والنفسي الذي كان ظاهراً في حركاته. التقطتُ له أربع صور واكتفيت.

عاد للانكفاء في الزاوية، أقعيتُ قريباً منه وهمست: «هل عذّبوك؟». هزّ رأسه بالإيجاب. سألته: «ماذا فعلوا؟». كان مُحتاجاً للبوح لأيّ أحد بما جرى عليه، تكلم بصوت مشروخ باذلاً جهده ليمنع نفسه من الانتحاب: «قيّدوني وعرّوني من ملابسي وهدّدوني فأغمي عليّ». همستُ وأنا أنظر إلى الباب متمنّياً أن لا يكون أحد ما يتنصّتُ علينا: «بماذا هدّدوك؟». ردّ بصوت متحشرج بالبكاء: «هدّدوني بالاغتصاب». شعرتُ كأنّ أحدهم ضرب هامتي بمطرقة، بذلتُ جهداً جبّاراً لأسيطر على مشاعري: «وماذا حصل بعد ذلك؟». تابع ودموعه تسيل على خدّيه بغزارة: «رشّوني بالماء فأفقت وكرّروا طلبهم بأن

أعترف فلم أقبل، وعندما شعرت به أغمي عليّ مرّة ثانية.. رشّوني بالماء وأفقت، واعترفتُ بأنّني اغتصبتُ جليلة». مسحتُ دموعي التي تجمّعتْ في أطراف عينيّ. قبّلته في جبينه وخرجت. مشيتُ بخطوات مُترنّحة وقد فقدتُ توازني. اضطررتُ أكثر من مرّة للاستناد بيدي إلى الجدار لأتفادى السقوط.

الاثنين (51)

وجدتُ رسالة من زوجتي تطلب فيها نقوداً. أخذتُ أشتمها مُتخيّلاً أنّها حاضرة أمامي. لقد تركتُ لها قبل سفري مبلغاً يُعادل مرتبي الشهري لثمانية أشهر، صرفَته في أسبوعين.. لعينة الملعون! حاولتُ الاتّصال بها لكنّها لم تردّ. انسدّتْ نفسي عن الفطور. شغّلت كمبيوتري المحمول وتصفّحتُ الموقع الإلكتروني لجريدة «الشعب». وجدتُ أنّ مادتي قد نُشرت ضمن الأخبار الرئيسة: «القبض على عطا المساعدي واعترافه بممارسة الفاحشة مع الفتاة القاصر جليلة، وثبوت براءة الشيخ بكري حسن من تهمة الاغتصاب». لم تظهر صورة عطافي الموقع، خط النت كان رديئاً. قرّرتُ الخروج لشراء الجرائد والقات.

مررتُ على سوبرماركت واشتريت عدّة علب شوكولاتة. كنت كلما شعرتُ بالجوع آكل منها. تصفّحتُ الجرائد وأنا جالس خلف المقود. الصورة التي نشروها للولد عطا لم تكن الأفضل. حمدتُ الله أنّهم لم ينشروها مقلوبة، وهي طريقة تُستخدم أحياناً للنيل من الأشخاص المغضوب عليهم. تصفّحتُ جريدة «النضال» الحُديدية وفيها خبر عن إلقاء القبض على عطا ودعوة للتظاهر صباح اليوم أمام مبنى نيابة الجروم. كتب رئيس تحريرها غالب زبيطة افتتاحية تُندّد

بتوريط ولد قاصر في قضيّة جليلة، ذاكراً أنّ اعترافه قد أُخذ بالإكراه وتحت التعذيب. شعرتُ بنوع من الفضول للتعرّف إلى هذا الصحفي الذي أظهر الكثير من الشجاعة في مناصرة الطفلة جليلة، أو على الأقلّ أن أراه من بعيد بما أنّنا نعيش في المدينة نفسها. قمتُ ببحث في Google لعلّي أرى صورته، لكنّي فوجئتُ بأنّ النتائج عنه قليلة جداً، وكأنّه نَبَت فجأة...

اتّصلتْ بي سكرتيرة رئيس التحرير الحسناء نسمة وقالت إنّ الأستاذ رياض الكيّاد يُبلغني تحيّاته ويطلب منّي الذهاب إلى عنوان حدّدته لي.

شغّلتُ سيّارتي وقصدتُ العنوان المذكور مباشرة. حاولتُ أن أُخمّن فلم يتفتّق ذهني عن شيء معقول. وصلتُ إلى سوق باب مشرف وعثرتُ بعد محاولات عديدة على محلّ لبيع الموادّ الغذائية بالجملة. نزلتُ ووجدتُ الحاج الذي وصفته لي السكرتيرة مُتربّعاً على قعادة يُدخّن التتن[1] ورائحته الحارّة غير المُستحبّة تركض كخيل سباق من داخل المحلّ إلى الشارع. كلّمته عن «الأمانة». فطلب بطاقتي. ناولته إيّاها فنظر مليّاً في صورتي ثمّ أعادها لي. دعا أحد صبيانه وكلّمه همساً. عاد العامل بعد دقيقة وهو يحمل كرتوناً مُغلقاً بشريط لاصق بُنّي. فتحتُ له الباب الخلفي للسيّارة، فوضع الكرتون ومضى. شكرتُ الحاج – وإن كنت لا أعرف على ماذا أشكره – ورحلت.

بعدما ابتعدتُ بمسافة كافية، جنّبتُ السيّارة – كان الفضول يقتلني – ونزلتُ وفتحتُ الكرتون. لم أُصدّق عينيّ، كانت هديّة نفيسة وخياليّة: اثنتا عشرة قارورة فودكا. زعق فجأة أذان الظهر، فأصابتني قشعريرة وكأنّ المؤذن أمسكني مُتلبّساً! أحكمتُ إغلاق

[1] التبغ.

الباب الخلفي، وقدت سيّارتي باتجاه مطعم ممتاز. كانت شهيّتي مفتوحة ومعدتي تقرقر بسرور.

عصراً اتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد، وما إن فتحتُ الخطّ حتى ضحك، فضحكتُ بدوري! قال وهو يحاول كفّ نفسه عن الكركرة:

– كيف مزاجك؟

– قمّة.. تستطيع توليد الطاقة النوويّة من دماغي.

– عظيم يا ابني.. ألا تحبّ أن يكون لك نديم يُشاركك لذة الكأس؟

– هأ! من؟

– تاتيانا.

– ليتني أستطيع الوصول إليها ولو حَبْواً.

– بارك الله في الفودكا هاها.. ما رأيك أن تتّصل بها وتدعوها لرحلة إلى جزيرة كمران؟

– لا أدري إن كانت ستوافق.

– ستوافق... لقد عرفنا من مصادرنا أنّها تتمنّى زيارة جزيرة كمران، ولكنّها لم تجد من يرافقها إلى هناك.

– الحمدُ لله الذي سخّرني لها!

– سوف أُحوّل لك مبلغ نصف مليون ريال لزوم مصروفات الرحلة.

– أببب.. هذا مبلغ كبير يكفي للإطاحة بقلعة هاها!

– اعتبر تاتيانا آخر قلاع الشيوعية، عليك بها!

اتّصلتُ بتاتيانا، كانت قد غادرت للتوّ المستشفى، وفي طريقها إلى السكن. عرضتُ عليها الفكرة، فتردّدت ولم تحسم أمرها. طلبتْ وقتاً لتُفكّر، فقلت لها إنّني سأتّصل بها مجدّداً عند التاسعة ليلاً.

خرجتُ وتسلّمت المال من شركة التحويلات، وفي نفس اللحظة حوّلتُ مبلغ مئة ألف ريال إلى صنعاء باسم زوجتي. لم أُحوّل المبلغ استجابة لطلبها، بل لأجل خاطر أطفالي، وتشوّقي لسماع أصواتهم.

عرّجتُ على السوبرماركت وتبضّعتُ بالكثير من الموادّ الغذائية، أجبان وزيتون ومرتديلا ومكسرات والمزيد من علب الشوكولاتة الفاخرة. كان عندي حدس قويّ بأنّ تاتيانا ستوافق على الرحلة، وأنّنا سنقضي معاً أوقاتاً طيّبة في شقتي.

تناولتُ العشاء في مطعم يُقدّم فتّة الموز مع زيت السمسم، وهي وجبة مُذهلة تمنح الجسم الكثير من الطاقة. ترقبتُ حلول الساعة التاسعة. عقارب الساعة تسمية غير مناسبة في مثل حالتي، الأفضل أن أسمّيها سلاحف الساعة!

اتّصلتُ. ردّتْ بسرعة. فأدركتُ أنّها كانت تنتظر تحادثنا بفارغ الصبر مثلي. قالت إنّها ستذهب غداً إلى المستشفى وتُقدّم طلب إجازة لمدّة يوم واحد، فإذا وافقت الإدارة فلا مانع لديها. سألتها متى أتّصل بها مرّة ثانية، فحدّدتْ موعداً الساعة الواحدة بعد الظهر. تمنّيتُ لها ليلة سعيدة وأنهينا المكالمة.

الثلاثاء (50)

عرفتُ من النت أنّ تظاهرة ضخمة قد نُظِّمَت أمس في بلدة الجروم، وأنّ المتظاهرين حاصروا مبنى النيابة، وطالبوا بالإفراج عن الفتى عطا المساعدي.

كان العقيد مرتضى عبد الجبار قد استبق المتظاهرين وسلّم الولد للنيابة الساعة السابعة صباحاً، مخلياً مسؤوليّته.

ذكرتْ بعض المواقع الإلكترونية أنّ الحشود حاولت اقتحام مبنى النيابة، وأنّ هناك عدّة جرحى قد سقطوا. كانت المعلومات مُتضاربة، ولا تأكيد من جهات مُستقلّة. فتحت الموقع الإلكتروني لجريدة «الشعب»، فوجدتُ فيه مقالة للمحرّر السياسي تتّهم المعارضة بتأزيم الأوضاع في الساحل. قلت في نفسي إنّ ردّة فعل المحرّر السياسي ولهجته الخطابيّة الحادّة لم تأت من فراغ، ويبدو أنّ هناك اشتباكات وقعت بالفعل. ليس بالعادة أن يلتفت المحرّر السياسي عندنا إلى القضايا المحليّة، هذا لا يحصل إلّا في النادر، لقد كان هذا مؤشراً على أنّ الأوضاع تنبئ بالخطورة.

كتبتُ مقالة لعمودي اليومي، ثمّ اتّصلتُ بزوجتي لكنّها لم تردّ هذه المرّة أيضاً. جربتُ الاتّصال من الشريحة التي كنت قد اشتريتها

لمنى... نجحت المحاولة وردّت عليّ، إلّا أنّها ما إن سمعت صوتي حتى أغلقت الخط. شعرتُ بغيظ شديد، وبدأتُ أفكّر جدّياً في الطلاق. امرأة مُبذّرة، متلافة، تصرف النقود بسفه، دفعتني مرغماً إلى تلويث يديّ وكفّ ضميري وفوق هذا تعاملني باحتقار وتشمئزّ من أفعالي، وكأنّي قذارة تتجنّب أن تتبقّع بها سيرتها العطرة. فكّرتُ في علاقتنا، ووجدتُ أنّها علاقة خالية من الحبّ، ومُستمرّة بحكم الواجب لا غير.

في تمام الساعة الواحدة بعد الظهر اتّصلتُ بتاتيانا، ردّت بنبرة مرحة معلنةً أنّ الإدارة قد منحتها يومين إجازة، وأضافت أنّ المدير هو الذي اقترح من تلقاء نفسه منحها يوماً آخر! كانت فرحة بأنّ لديها ثلاثة أيّام متتابعة من الراحة تستجمّ فيها وتستعيد قواها. قالت لي إنّني رجل محظوظ، لأنّ مديرها شخص مُتعنّت ويرفض منحها أيّة إجازات في العادة، لكنّه هذه المرّة أظهر أريحيّة مفاجئة. اتّفقنا على أن تُسافر صباح الغد إلى الحُديدة، وأن أنتظرها في الفرزة (الموقف)، ومن هناك نتحرّك مباشرة إلى الصليف التي سنستأجر منها قارباً بمحرّك بخاري للوصول إلى الجزيرة.

خرجتُ لتناول الغداء في أحد المطاعم، وفي طريقي أخذت جرائد اليوم. كنت سعيداً وغير مُحتاج لشيء خارجي يمُدّني بالمتعة. لطالما كان تصفح الجرائد هو متعتي الفضلى في الحياة، وبشكل ما كنت مُدمناً كبيراً على قراءة الصحف، ولا أرتاح نفسيّاً حتى أتأبّط عشراً منها أو أكثر، وأحملها إلى البيت، لأكون على اطّلاع يومي على مجريات الأحداث، وأيضاً لأقرأ ما تكتبه أقلام النخبة السياسيّة من مختلف التيّارات والأحزاب.

تلبّدت السماء بالغيوم وهطل الغيث مدراراً، فتبدّل الطقس وصار لطيفاً، وهبّت نسمات باردة مُنعشة. أخذتُ أجول بسيّارتي

مُستمتعاً بمنظر المدينة بعدما غسلها المطر. توقفتُ عند الشاطئ، ووضعتُ في المسجّلة معزوفات على آلة القانون. سحبتُ سيجارة وأشعلتها، التقطتُ الجرائد وأخذتُ أتصفّحها بمزاج رائق. بدا لي كأنّ العالم يمضي في الطريق المرسوم له، وأنّ على الإنسان تقبّل الشروط الموضوعيّة لوجوده دون تذمّر.

الأربعاء (49)

انتظرتُ في الفرزة. تاتيانا تأخّرتْ. شغلتُ نفسي بتصفح النت. على مسافة من سيّارتي لاحظتُ مُحوّلاً كهربائيّاً تفصله عن الجدار مسافة ثلاثين سنتيمتراً، وقد جثا خلفه شابّ ملابسه وسخة جداً، متظاهراً بأنّه يتبول، ولكنّه كان يستعرض آلته وفي مرمى بصره حشد من الفتيات الصغيرات المتسوّلات.. كان زجاج سيّارتي عاكساً، ولذا لم ينتبه لوجودي. انتبهت الفتيات ولكنهنّ أشحن بوجوههنّ عنه. شعرتُ بالتقزّز وبالرغبة في التقيّؤ. في الأفق قطع سحب بيضاء. موسم الأمطار الصيفيّة على الأبواب. كنت أخشى أن تُعتم السماء في لحظة غادرة، وتهبّ عاصفة مطريّة ونحن في الزورق وسط البحر، فنغرق أنا وتاتيانا. فجأة سمعتُ طرقاً على الزجاج، رفعتُ رأسي والتفتّ، كانت تاتيانا، أشرتُ لها بالصعود من الباب الأيمن. فتحتِ الباب وجلستْ، ألقتْ عليّ السلام بالعربيّة. كانت تحمل حقيبة ظهر رياضيّة وقنّينة ماء كبيرة. شغلتُ السيّارة وانطلقنا باتّجاه ميناء الصليف. لاحظتُ وجومها وتنهّدها. شعرتُ بأنّ ثمّة مشكلة وقعت لها. أغلقتُ الموسيقى، وسألتها:

– هل أنتِ على ما يرام؟

– نعم؟
– هل أنتِ نادمة لذهابك في هذه الرحلة؟
– أوه لا.. أرجوك سامحني.. لم أكن أُريد أن يظهر عليّ الحزن.
– ماذا حدث؟
– لا تشغل بالك.. ليس جيّداً أن أُفسد عليك سعادتك.
– أرجوكِ أريد أن أعرف.
– سوف أحكي لك بالتفصيل، لأنّك صحافي وقد يهمّك أن تكتب عن الأمر.

نزعتْ نظّارتها الشمسيّة وأخذتْ تُنظّف عدستيها بخرقة، فبدتْ ملامحها مُتكدّرة، وعيناها متورّمتان من البكاء ومحمرّتان من قلة النوم:

– البارحة عند الثانية بعد منتصف الليل أيقظوني من نومي وطلبوا حضوري بسرعة إلى المستشفى. كانت هناك حالة طارئة، طفلة عمرها سبع سنوات تُعاني من تهتّك في جهازها التناسلي، ويصعبُ عليّ وصف الباقي لأنّه في غاية البشاعة.. سألتهم من الذي فعل بها هذا، قالت امرأة حضرت معها إنّه زوجها. كنت أصرخ فيها كالمجنونة ودمي يغلي من الغضب. حين أتوا بها كانت قد نزفتْ الكثير من الدم، بذلتُ جهدي لكنّ الوقت كان قد فات، ثمّ فارقت الحياة وهي بين يديّ.

بكتْ تاتيانا وأعادت النظارة السوداء على عينيها لتحجب دموعها:

– سألتها من فعل بها هذا، ردّت إنّه عَبّودي.. تقصد عبد الله زوجها.. فهمتُ منها أنّها تحبّه! لقد أعطاها نقوداً كثيرة لتشتري الآيس كريم والشوكولاتة والبسكويت.. اشترى لها الدمى وكريّات زجاجية.. قالت إنّه كان يلعب معها ويسمح لها بإحضار بنات الجيران

ليشاركنها في اللعب.. اعترفت بأنّه كان يُعرّيها أمامهنّ، ويشرح للفتيات الصغيرات كيف يتم إنجاب الأطفال.. قالت إنّه في المرّة الأخيرة غافله الشيطان وسبّب لها جرحاً.. صديقاتها وعددهنّ ثلاث رأين كلّ شيء.. قلت لها إنّه مجرم وسوف يُسجن.. دافعت عنه ببراءة، وقالت إنّ الذنب ليس ذنبه، بل ذنب الشيطان الذي يدخل.. كانت تسأل عنه وتردّد اسمه وهي تُحتضر.. يا للأسى.. ماتت ولم يخطر ببالها للحظة أن تسيء الظنّ به.. تكلّمتْ معي الطفلة في آخر لحظات حياتها وفرح هائل في عينيها قائلة إنّها ترى أطفالاً يمسكون بيديها ويريدون رفعها لتلعب معهم.

أشاحت بوجهها للجهة الأخرى ونزلت عبراتها.

فتحتْ هاتفها وأرتني صورتها، كانت طفلة سمراء طويلة الوجه، فمها واسع وشفتها العليا أكثر امتلاءً من السفلى، أنفها أفطس بدرجة بسيطة، وفي وجنتها اليمنى ندبة صغيرة، غمّازة من أثر جرح قديم، زانتها وجعلتها تبدو أجمل.

بلعتُ ريقي ورحتُ أتساءل في نفسي ماذا ستقول عنّي لو عرفتْ أنّني أُعاشر فتاة قاصراً عمرها خمسة عشر ربيعاً فقط.

بعد ساعة وصلنا إلى المرفأ البحري للصليف، أخذنا قارباً بمحرّك بخاري وانطلقنا.

بسبب الدوّامة التي أدخلتني فيها، نسيتُ أن أسألها هل أفطرتْ أم لا. كنّا قد صرنا في عُرض البحر وما من جدوى للسؤال الآن. كانت أعصابي متوتّرة، وتاتيانا وجهها مُحمرّ بلون البطّيخ وملامحها تُعدي بالبكاء. مالك القارب كان شابّاً أسمر بشارب كثّ يُراقبنا بانتباه وحاجباه معقودان. كان يشكّ في أنّني آخذ المرأة البيضاء غصباً عنها. وازداد إحراجي عندما كسرتُ دون قصد الخشبة التي كنت أجلس عليها.

بعد دقائق لاحت لنا من بعيد المباني المتواضعة لمدينة كمران، ومنارة بيضاء تلمع تحت ضوء الشمس. سألني مالك القارب: «ماذا عملت لها؟». قلت له: «لا شيء.. إنّها دكتوره تشتغل في مستشفى الجروم وهي حزينة على بنت صغيرة ماتت ولم تستطع إنقاذها». سألها باللغة الإنجليزية إن كان كلامي صحيحاً، فردّت عليه بالإيجاب. استغربتُ إلمامه باللغة الإنجليزية. ربّما اكتسبها لاختلاطه بالسيّاح الأجانب بحكم عمله في نقلهم من البرّ إلى الجزيرة والعكس. قال لي وهو يُسدّدُ باتّجاهي نظرة ثاقبة كالسهم: «احمد الله يا رجل، لقد كنت أنوي والله أن أرميك في الماء لتأكلك أسماك القرش، لأنّني أكره الذين يُهينون النساء كرهاً شديداً». لم يكن يمزح، كان يقصد كلّ كلمة يقولها. ملامحه تنطق بالحميّة والنجدة والنخوة، وحول شفتيه طيّتان تُعطيان الانطباع بشخصيّة حازمة ذات بأس.. عليّ أن أعترف بأنّني حسدته في قرارة نفسي على رجولته الطاغية!

وصلنا إلى رصيف القوارب، أردتُ أن أُناوله الأجرة المُتّفق عليها، لكنّه رفض أخذها، أشار إلى تاتيانا وقال: «إكراماً لهذه المرأة الطيّبة التوصيلة على حسابي». حاولتُ الإصرار عليه، لكنّه حدجني بنظرة ناريّة مُتوعّدة، شكرته تاتيانا ومضينا. شعرتُ بالحقد عليه، لأنّه أظهرني قزماً ناقص الرجولة.

تمشّينا راجلين في شوارع البلدة التي تبدو مهجورة، ورحنا نلتقط الصور، كلّ واحد بكاميرته. كانت البيوت تنوء تحت وطأة القِدم، وتحكي تردّي الأوضاع الاقتصاديّة.. الأبواب الخشبيّة عتيقة وكأنّها تبكي رحيل المحتلّين الإنجليز عن الجزيرة، والسكّان كانوا قليلي العدد وحزانى، ألفوا منظر السيّاح المُتردّدين على جزيرتهم وما عادوا يُبالون بهم.

بحثنا عن مطعم فلم نجد، قال لنا الأهالي إنّ في جهة الشمال استراحة تتوفّر فيها وجبات ممتازة للسيّاح. لم تكن هناك سيّارات أجرة، والحرارة عالية جداً، ويصعبُ علينا قطع المسافة على أقدامنا. استأجرنا قارباً وانطلقنا.

كان المطعم يشبه قصعة فخاريّة مقلوبة، وبجواره خمس أو ست عرائش. طلبنا سمكاً مع الأرز. أخذوا وقتهم في تحضير الوجبة، وانشغلنا نحن بالتصوير. ظهرت سحب كقطيع من الغنم فتلطّف الجوّ وهبطت درجات الحرارة.

أخذتْ تاتيانا غفوة قصيرة، وعند العصر قدّموا لنا وجبة الغداء، كنا نوشك على الإغماء من شدّة الجوع. تغدّى معنا مالك القارب الذي استأجرناه، وهو ولد في عامه الثالث عشر أو ربّما أصغر من ذلك.

تابعنا رحلتنا بالقارب، ومتّعنا عيوننا بمشاهدة غابة القُرم في شمال الجزيرة. اخترنا موضعاً مناسباً ونزلنا نتمشّى على أقدامنا، كانت هناك الآلاف من السرطانات تتمشّى لتسمير قشرتها، وسلاحف تنظر للأفق وكأنّها تفكر في الهجرة من الجزيرة. شواطئ ساحرة، يتمنّى المرء لو يمتلك عليها بيتاً أو عشّة يقضي فيها ما بقي له من العمر. التقطنا مئات الصور في محاولة مستحيلة للاحتفاظ في كاميراتنا بهذا الجمال الطبيعي الخلّاب.

مع غروب الشمس أخذنا دورة كاملة حول الجزيرة، وعندما حاذينا بلدة كمران غيّر السنبوق مساره باتّجاه البر، وتعلّقتْ عيوننا بالجزيرة التي لم نشبع منها.

ونحن في الطريق إلى مدينة الحُديدة، اقترحتُ على تاتيانا أن نذهب إلى متنزّه القمر الوردي لنُدخن النرجيلة، فلم تُمانع. كان مزاجها مُعتدلاً، وفي عينيها بريق من ظفر بتحقيق أغلى الأمنيات. لقد غسلتْ الرحلة ما علق بروحها من أحزان ومرارة.

بين الحين والحين كنت أختلسُ النظر إلى وجهها الفتّان ولا أشبع منه. كان في تقاسيمه سيماء نبالة، وفي شكل حاجبيها المستقيمين الثخينين ما يوحي بالمهابة والجلال.

استقبلنا النادل عوض بترحاب حارّ، واختار لنا موضعاً مُنفرداً بعيداً عن العيون، ثمّ جلب لنا نرجيلتين تفوح منهما رائحة المعسّل العطرة. تكلمنا عن المرحوم «الاتحاد السوفييتي» وقلتُ لها إنّنا نحن العرب نَحِنُّ إليه ونشعرُ بالأسف على رحيله. قالت إنّ الروس لا يشعرون بالأسى على موته، وذكرتْ تشبيهاً لا أدري إن كان وصلني بطريقة صحيحة، إذ شبّهتْ الاتّحاد السوفييتي السابق بشخص يتظاهر بأنّه غني وينفق ماله على الولائم، بينما أفراد عائلته يتضوّرون جوعاً ويضطرّون إلى سرقة الملاعق من الجيران!

مضى الوقت سريعاً، وكلانا شعر بالرغبة في البقاء لأطول فترة ممكنة بجوار البحر. قالت تاتيانا إنّها تتمنّى لو تنام هنا على هدير البحر الرتيب. قلت لها: «يبدو أنّكِ تعودتِ على الشخير!». ضحكتْ وقالت إنّها بطرسبورغية، وحبّ البحر في دمها. أخبرتها أنّني أنزل في شقة مفروشة تُطلّ على البحر، ودعوتها لقضاء إجازتها في ضيافتي. تضرّجتْ وجنتاها باللون القرمزي وتلكّأت في الردّ. قلت لها إنّني أعرف شواطئ رائعة للسباحة بعيدة عن ضجيج المدينة. ظهر وميض في عينيها الخضراوين، قلت لها مُشجّعاً: «إلى متى تكتفين بالسلام على البحر من بعيد؟! هيّا، ستكون لديكِ الفرصة للاستمتاع بمياه البحر الدافئة وقتما تشائين». صدرتْ عنها آهة خفيفة مع هزّة صغيرة من رأسها مُعلنة موافقتها بهذه الطريقة المُتحفظة المُترفّعة.

توجّهنا إلى الشقة، سألتها في الطريق إن كانت تحبّ أن نتعشّى في أحد المطاعم، فردّت بأنّها تُفضّل أن نتناول سندوتشات شاورما من نفس المحلّ الذي أخذنا منه في المرّة السابقة. ذهبنا إليه وأخذنا

كفايتنا. مررتُ على مكتبة واشتريتُ جرائد اليوم، لا أظنّني سأجد وقتاً لقراءتها، ولكنّها صارت عادة يصعب عليّ التخلص منها.

تفرّجتْ تاتيانا على الشقة وأعجبتها. فتحتْ نوافذ غرفة النوم المُطلّة على البحر، وراحت تُنصتُ مُغمضة العينين لإيقاع أمواجه الذي يشبه وشوشة عاشق. عندما دخلتْ إلى المطبْخ أطلقتْ آهة دهشة من كمّية قوارير الفودكا. قالت وأنا أملأ كأسها: «لا أُصدّقُ أنّني في اليمن!». أكلنا السندوتشات بنهم واقفين، وكأنّنا قدمنا من أرض المجاعة. قلت لها تعليقاً على كلامها: «لو كان البحر خمراً لشربه اليمنيّون في ليلة واحدة!». ضحكتْ تاتيانا وقالت: «في إحدى المناسبات زرتُ السفير الروسي في منزله، ولاحظتُ أنّ البار يخلو من المشروبات الروحيّة، فسألته عن السبب، فقال إنّه دعا اليمنيّين لحفلة تعارف، قال إنّه كان مُطمئنّاً إلى أنّهم مسلمون، والمسلمون لا يشربون الخمر، ولكنّه اكتشف أنّهم أسوأ من المسيحيّين، وقد قضوا على جميع أنواع الخمور التي كان يحتفظ بها في البار، ولم يُبقوا له قطرة واحـدة. قال إنّ مخزونه من الشراب لخمس سنوات نفد في ساعتين، وكانوا يُفتّشون البار بحثاً عن المزيد، قال لولا الأعـراف الدبلوماسية لفتّشوا في جيوبه!».

قضينا سهرة ممتعة أمام نافذة مفتوحة على البحر، لم نُشغّل التكييف، واكتفينا بالنسيم العذب القوي الذي يهبّ بكرم من جهة صديقنا الحنون. اتّفقنا على أن تبيت تاتيانا في غرفة النوم، وأن أذهب أنا للنوم في الديوان على مرتبة من الإسفنج المضغوط.

كانت ليلة بيضاء، لم يحدث بيننا أيّ تلامس جسدي على الإطلاق.

الخميس (48)

فتحتُ عينيّ ونظرتُ إلى الساعة. ذهبتُ إلى الحمّام، حلقتُ ذقني واغتسلت. كنت أشعر بنشاط بالغ، ومعنويّاتي في أحسن حالاتها. كان هذا هو المزاج المناسب لكتابة عمودي اليومي، فشرعتُ أكتبُ مباشرة على كمبيوتري المحمول.

أنجزتُ مقالين وحفظتهما، ثمّ بدأت بالمقال الثالث. كانت الأفكار تتوارد إلى ذهني بمرونة عجيبة. قاطعني رنين جرس الشقة. فتحتُ الباب. كان الطارق علي بخيت سائق الشيخ. أبلغني سلام الشيخ، وناولني ظرفاً مُغلقاً مكتوباً عليه اسمي، وعلبة فاخرة ذات غطاء زجاجي شفاف، بداخلها قطعة شهد مستديرة بلون الشاي بالحليب، ومغمورة في عسل له لون الشاي الأحمر الثقيل. كان علي يلحس شنبه بطرف لسانه، ويحني رأسه تارة يساراً وتارة يميناً لينظر من فوق كتفيّ إلى داخل الشقة. تصرّف وقح يخلو من اللياقة، وكأنّ رأسي تحوّل بالنسبة إليه إلى عائق أو عمود يمنع الرؤية. طلبتُ منه أن يُبلغ سلامي وتحيّاتي للشيخ وصرفته. أغلقتُ الباب في وجهه وهو لا يزال يمسح الشقة بعدستيه البنّيتين كالرادار. يُشعرني هذا الشخص بالاستفزاز، ويضغط على أعصابي بصورة غير مفهومة، وربّما

لو كنت أحمل مسدّساً لأرديته قتيلاً دون ذرّة من لدم. أشعر بالرغبة في قتله تحكّ قشرة دماغي كما يشعر المصابون بالحساسيّة برغبة حارقة في حكّ جلودهم. لكن ماذا كان يعرف هذا الحثالة ليتجاسر على فعلة وقحة كهذه؟ دخل في نفسي شكٌ قويّ في أنّ لتصرّفه المُريب هذا أساساً مُعيّناً.. معلومة وصلتْ إليه عن طريق الشيخ أو غيره عن أنّ تاتيانا موجودة عندي في الشقة.

وضعتُ العسل في المطبخ، وفتحتُ الظرف. وجدتُ فيه بطاقة مُزخرفة، هي دعوة لعرس شقيقة الشيخ، ورسالة مكتوبة بخط أنيق: «الأخ مُطَهَّر فضل حفظكم الله. بخصوص البنت منى نُفيدكم بأنّ شقيقتي قد تعلقتْ بها وتودّ الاحتفاظ بها. ولعلّكم عرفتم قدر أمانتها وتفانيها في الخدمة. وإن شاء الله ستنتقل شقيقتي إلى بيت زوجها في مدينة ميدي الليلة، ومنى ستكون معها. سنُدبّر لكم خادمة ممتازة في أقرب فرصة. أخوك الشيخ بكري حسن».

كانت هذه الرسالة إشعاراً بافتراقي النهائي عن منى. شعرتُ بأنّ شيئاً ما يشبه لوحاً زجاجياً قد تكسّر في روحي، وأنّ شظايا الزجاج المُسنّنة تمزّق حلقي وقصبتي الهوائية وتُغرق رئتي بالدم. كنت عاجزاً عن الكلام أو التنفّس. غادرتُ الشقة ومشيت باتّجاه البحر، وصلتُ إلى الشاطئ ووقفتُ عند الرمل الناعم المستوي كخدّ منى المشتهى. كان الموج يعلو ويهبط مُتكسّراً عند قدميّ ثمّ يتراجع هامساً بكلمات مواسية. كانت أشعّة الشمس عموديّة، ورأسي مكشوفاً، فتصبّب العرق من تحت كلّ شعرة في جسدي. أردت مُعاقبة نفسي، إغراق رأسي التافه في الماء حتى ينتفخ من ترسّب الملح والمياه في داخله. وخزني الندم، ولُمتُ نفسي لأنّني لم أهرب مع منى إلى مدينة بعيدة عن عيون الشيخ وزبانيته. ساورتني أفكار بأنّ منى كانت تستحقّ أن أضحّي بحياتي البائسة الضائعة من أجلها، أن نسافر معاً إلى أيّ

دولة في العالم ولبدأ حياتنا من جديد، بعيداً عن شبكة العنكبوت التي تمنعنا من الطيران بحرّية، وتُقيّدنا بخيوطها اللزجة المسمومة. فقدان منى كان أكبر خسارة مُنيتُ بها في حياتي.

عُدتُ إلى الشقة وأنا أشعر بأنّ جفنيّ ثقيلان، بالكاد أستطيع فتحهما. كانت تاتيانا تتكلّم معي ورأسها ملفوف بمنشفة، شعرت برغبة لا تُقاوم في الرقاد. دخلتُ إلى غرفة النوم وارتميتُ على السرير كالميت.

رأيت أحلاماً كثيفة ثخينة لا أستطيع الخروج منها، وفي كلّ حلم كنت أرى نفسي في أوضاع يائسة يستحيل حلّها. كنت بكلمة واحدة عاجزاً. رأيت عدداً هائلاً من الأحلام فيها ملايين الساعات... وكأنّني تمدّدتُ زمنياً على حياة مقدارها عشرة آلاف سنة. وسط مجرّة الأحلام هذه كنت أحسّ بحرارة عظمى لم أتضايق منها، بل تكيّفت معها، واستلذذتُ بها، وكأنّني أُرسلتُ أخيراً إلى النار لألقى جزائي نتيجة أفعالي في الدنيا. خاطرة كالشهاب اخترقت وعيي ونبّهتني إلى أنّني أنصهر، أُشابهُ نجماً على حافة الانفجار.

فتحتُ عينيّ فرأيتُ تاتيانا تسحب الحقنة من ذراعي. حاولتُ إيقاظ نفسي، ولكنّني عدتُ إلى نومي الثقيل وأحلامي المضطربة.

استيقظتُ وقد حلّ الليل، وأنا أشعر بالبرد. كان المُكيّف شغّالاً، والباب مُغلقاً والنوافذ موصدة. استغربتُ أنّني لا أرتدي سوى ملابسي الداخليّة. لا أتذكّر أنّني خلعتُ ملابسي قبل أن أنام. كنت أشعر بنفسي نشيطاً، وفي حالة عقليّة متوهّجة.. صفاء ذهني أُحسدُ عليه. تذكّرتُ الأحلام الكابوسيّة التي عصفتْ بي وبدت كفيلم سينمائي سيّئ المونتاج، اختلطت فيه المشاهد بعضها ببعض ولم يعد ممكناً ترتيبها في سياق درامي مترابط.

دخلتْ تاتيانا وبدت سعيدة عندما رأتني جالساً. ضغطتْ زرّ الإضاءة، واقتربتْ منّي وهي تحمل مقياس الحرارة، وضعته تحت لساني، وعندما أخرجته قالت إنّ درجة حرارتي 39 مئوية. سألتها: «ماذا حدث لي؟». سكبتُ ماءً وأردتُ أن أشرب، فأبعدتِ الكأس عنّي، وقالتْ إنّني أصبتُ بضربة شمس، وإنّ درجة حرارتي ارتفعت إلى 40.5 درجة مئويّة. أخرجتْ من أحد الأدراج ملابسي ووضعتها على السرير: «كنت محموماً وتهذي.. اضطررتُ لأن أُخفّف عنك ملابسك، وأُعرّضك لهواء التكييف البارد، وضعتُ لك كمادات باردة، ثمّ نزلتُ إلى الصيدلية وأتيت بإبرة 250 مل سيروم ملحي أعطيتك إيّاها».

قلت لها إنّني محظوظ لوجودها معي في الشقة، وإلّا لكنت تفحّمتُ من شدّة الحُمّى! الحق أنّني لو كنت وحيداً لأسدل ملاك الموت أخيراً الستار على مسرحيّتي الخائبة في الحياة. لم أستطع أن أقول لها تلك الكلمة التي تستحقّها، ولكنّني بالفعل كنت مديناً لها بحياتي. قالت إنّ هاتفي لم يتوقف عن الرنين، ثمّ خرجتْ من الغرفة.

ارتديتُ ملابسي وشربتُ كأس الماء. كان جسمي يستيقظ وتدبُّ فيه طاقة هائلة أكثر من المعتاد، وكأنّما خرجتُ لتوي من الـ«purgatorio» أي المَطْهَر الذي وصفه الكاتب الإيطالي الشهير دانتي في كتاب «الجحيم». ابتسمت عندما أدركتُ كم أنّ هذا الاسم مُوافق لاسمي!

عادتْ تاتيانا وهي تحمل هاتفي المحمول، كانت الاتّصالات جميعها من رئيس التحرير رياض الكيّاد. يعلم الله أنّني رأيته في الجحيم فكيف تمكّن من الخروج والاتّصال بي؟! أم هناك كبائن هاتفيّة وفّرها السيد الموقر إبليس لنزلائه الأفاضل؟!

سألتني تاتيانا إن كنت جائعاً، فقلت لها: «هل سمعتِ عن الحوت الذي التهم النبيّ يونان؟». ردّت: «نعم». قلت لها: «لو أنّه وُضع أمامي الآن على مقلاة لأكلته بعظامه!». ضحكتْ تاتيانا وسحبتني من يدي إلى المطبخ. كانت قد دبّرتْ طاولة وكرسيّين وأعدّتْ مائدة عامرة. أخرجتْ الخبز من الثلاجة وسخّنته. تناولناه مع العسل والقشطة وشرائح المرتديلا والزيتون وأطباق أخرى متنوّعة. أُعجبتْ تاتيانا جداً بالعسل المُهدى من الشيخ، أكلتْ قطعاً كبيرة من الشمع. شربنا قدحين من الفودكا، نظرتُ في ساعتي، كانت تشير إلى العاشرة ليلاً، اقترحتُ على تاتيانا أن نخرج إلى متنزّه القمر الوردي لندخن النرجيلة. لم توافق، قالت إنّ الوقت قد تأخّر. تأسّفتُ لها على تضييعي يوماً من إجازتها واضطرارها لملازمتي وتمريضي. قلت لها إنّني سأعوّضها غداً الجمعة.

فاتني أيضاً حضور عرس شقيقة الشيخ، كان عندي أمل ضئيل للغاية في أن أتمكّن من رؤية منى ولو للحظات قصيرة، أو أن أحظى بتلويحة وداع أخيرة منها.

تحدّثتْ تاتيانا عن مديرها، قالت عنه: «عرض عليّ الدخول في الإسلام، وعندما قلت له إنّني لستُ مؤمنة، أخذ يتشدّد في مُعاملتي، ويرفض منحي أيّة إجازات». قلت لها وقد تعدّل مزاجي: «في المرّة المقبلة عندما يعرض عليك الدخول في الإسلام اقبلي ولكن بشرط». سألتني باهتمام: «ما هو؟». قلت: «اطلبي منه أن يخرج هو من الإسلام!». ضحكتْ من قلبها، قلت لها وأنا أتصنّع الجدّية: «تعملين معروفاً كبيراً يا تاتيانا إن أنقذتنا من أمثال هذا الشخص!». كنّا قد أتينا على قارورة كاملة، وأصبح مجرّد عبور ذبابة تحت أنف أحدنا كافياً لانفجار ضحكاتنا. عندما حان وقت الرقاد، نسيتُ اتّفاقنا ولم أذهب إلى الديوان، واتّجهتُ مباشرة وببراءة تامّة إلى غرفة النوم.

ولأنّني في الأصل خجول، يشقُّ عليّ القيام بالخطوة الأولى، فقد نفعني هذا الخطأ غير المقصود، وحصلتُ على ليلة من أجمل ليالي العمر. تذكّرتُ فأل الساعة – العاشرة وعشر دقائق – فتأكّدت وينبوع السعادة بين شفتيّ أنّني كنت على صواب.

الجمعة (47)

هاتفي المحمول ابن الكلب لا يكفّ عن العواء. نهضت وأخذته وأنا ألعن مخترع هذه الآلة التي حطمتْ راحة بال الإنسان المعاصر ومسرّته إلى الأبد. خرجتُ خارج غرفة النوم لكي لا أُزعج تاتيانا. ساعة الصالة الجدارية تشير إلى الثانية عشرة والنصف، ما يعني أنّ معظم الرجال في المساجد يستمعون لخطبة الجمعة. كان الاتّصال من سكرتيرة رئيس التحرير نسمة:

– جمعة مباركة!

– أحم، علينا وعليكم.

– هل تاتيانا بجوارك؟

– ما هذا الكلام؟! أنا لا أعرف واحدة بهذا الاسم.

– لحظة.. الأستاذ رياض يريد أن يتكلّم معك.

شعرتُ بالسخط، كيف سمح هذا المخلوق لنفسه بأن يُخبر سكرتيرته بأدق التفاصيل عن حياتي الخاصّة. إنّه شخص بلا أخلاق ولا يُقيم وزناً لخصوصيات الآخرين! تكلّم رئيس التحرير رياض الكيّاد وتجشّؤه يقطع تسلسل كلماته:

– هناك تطوّرات.

– خير؟
– تاتيانا لا ينبغي أن ترجع إلى الجروم.
– كيف.. إجازتها تنتهي اليوم.
– أعلم، سنفكر في مخرج، ما تزال أمامنا بضع ساعات.
– ما الذي حدث؟
– الموضوع له صلة ببنت صغيرة ماتت بعد دخول عريسها عليها.
– تاتيانا أخبرتني عن القصّة.. البنت اسمها محسنة.
– هناك شرذمة من الصحافيّين البائرين يبحثون عن تاتيانا لتدعيم فقاقيعهم بأقوالها.
– والتقرير الطبّي؟
– لم يعد له وجود.
– تاتيانا تحتفظ في هاتفها بصورة البنت.
– همم.. هذا ليس أمراً جيّداً.. المطلوب منك الآن تقييد تحرّكاتها ومنع أيّ أحد من الاقتراب منها.
– مفهوم.
– سأتّصل بك بعد ساعة لأعطيك التعليمات.
أغلق الخط. أعتقد أنّه يُقلّد طريقة مسؤول أعلى منه في إنهاء المكالمات الهاتفيّة. ساورني القلق ودخل الهمّ إلى قلبي، لقد كنت مُبتلى بمصيبة واحدة، وها هي ذي مصيبة أخرى تضاف إلى سابقتها. نظرتُ من النافذة إلى الشارع، كانت هناك سيّارة أجرة واقفة أمام عمارتنا.. إذاً لقد دخل الأمن على الخطّ، وصرنا مُراقبَين.
ذهبتُ إلى الحمّام، حلقتُ واغتسلت، ثمّ انشغلتُ بتصفّح النت ريثما تستيقظ تاتيانا. دخلتُ المواقع الإخباريّة، ولم أجد أيّ تغطية صحافيّة عن قضيّة البنت محسنة.

ظهرتْ تاتيانا عند الباب وألقتْ عليّ تحيّة الصباح، قلت لها: «الوقت الآن بعد الظهر!». قالت وهي تصلح شعرها المنكوش: «هل ما يزال اتفاقنا قائماً؟». هززتُ رأسي مؤكّداً. ذهبتْ وهي تُزقزق كعصفورة بلحن روسي على ما أظن.

اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد قبل موعده:

– ما هو برنامجكما؟

– سنذهب إلى جنوب الحُديدة وننزل في شاطئ بعيد عن المدينة.

– عظيم، لا تأخذ معك في السيّارة أيّة متعلقات ثمينة، سوف نرسل خلفكما عنصرين على درّاجة ناريّة ليسرقا هاتف تاتيانا.. لا تنسَ أن تترك الأبواب مفتوحة.

– ماذا لو تركتُ هاتفها في الشقة؟

– إن لم تحمله معها فاتّصل بي واذكر كلمة «باب المندب».. سوف نرسل من يسرقه من الشقة.

أغلق الخط بكلّ برود.

يا الله.. بسبب وشايتي الحقيرة سوف يسرقون هاتفك المحمول يا تاتيانا، يا لي من نذل! بعد أن منحتني نفسك يا تاتيانا أُكافئكِ بالتآمر عليك.

أحضرتْ تاتيانا قهوة وبسكويتاً. كنت آكل ساهماً وغير قادر على النظر في عينيها الخضراوين الصريحتين اللائقتين بملاك طيّب. أخذنا مناشف وعبوات ماء بلاستيكيّة كبيرة لنغسل أجسامنا بالماء العذب بعد خروجنا من البحر. كنت مُتكدّراً وأبذلُ جهدي لكي لا تشعر تاتيانا بما يعتمل في نفسي. حملتْ معها قارورة فودكا ومأكولات خفيفة، ووضعتْ هاتفها المحمول في حقيبة يدها الأنيقة التي بحجم الكفّ وانطلقنا.

قُدت السيّارة جنوباً حتى خرجنا من المدينة وضواحيها، واخترتُ شاطئاً واعداً بالعزلة. سخرتُ من نفسي: «إنّها العزلة التي ستسهّل عمل اللصّين!».

أوقفتُ السيّارة على ربوة بعيدة عن الشاطئ. خلعتْ تاتيانا بنطلون الجينز والبلوزة البيضاء وبقيتْ بملابسها الداخليّة، وجرتْ إلى البحر. جريتُ خلفها وتركتُ الباب من جهة السائق مفتوحاً على مصراعه. وقرب الماء خلعتُ ملابسي. كان مفتاح السيّارة في جيب البنطلون. وسبحتُ مُطارداً تاتيانا.

لم نشعر بشيء.. لعبنا مدّة ساعتين، وشعرتُ بالاستمتاع بأشعّة الشمس التي كنت أخشاها وجسمي مغمور بالماء.

خرجنا واتّجهنا إلى السيّارة. اكتشفتْ تاتيانا تعرّضنا للسرقة، حقيبة يدها الصغيرة اختفت، والدرج الأمامي مفتوح. تفقّدنا أغراضنا. قالت إنّ اللصوص سرقوا أيضاً قارورة الفودكا. صرختُ لا شعورياً: «الله يلعنهم، لم يعد هناك إسلام في هذا البلد!». سألتني تاتيانا إن كنت فقدتُ شيئاً من الدرج، فقلت لها: «مبلغ تافه.. مئة ألف ريال». حزنتْ تاتيانا لفقداني هذا المبلغ الكبير. بشأن المال، كنتُ أكذب، لكي أبدو في عينيها مُتضرّراً أيضاً من عمليّة السرقة. سألتني عن مفاتيح السيّارة، فقلت لها إنّها في جيب البنطلون عند الشاطئ. قالت محاولة مواساتي: «هذا من حسن الحظ وإلّا لكانوا سرقوا السيّارة بسهولة».

اغتسلنا بالماء العذب، وارتدينا ملابسنا وعدنا إلى المدينة.

اخترتُ مطعماً راقياً يُقدّم مأكولات عصرية. كنّا جائعين وبطوننا مجوّفة كقنديلي بحر. استمتعنا بالوجبة. كانت تاتيانا سعيدة ونسيت بسرعة هاتفها المسروق. خرجنا من المطعم وقد

مالت الشمس جهة البحر وأخـذت تخلع ثيابها البرّاقة استعداداً للسباحة.

اتّجهنا إلى متنزّه القمر الوردي، وطلبنا معسّل التفاح. راقبنا غروب الشمس بصمت خاشع، بمحبّة، وكأنّنا نـودّع صديقاً حميماً على سفر. نظرتُ تاتيانا في ساعتها، وقالت إنّها تودّ العودة للجروم. لم أعطها جواباً واضحاً، استأذنتها في الذهاب لدورة المياه.

اتصلتُ برئيس التحرير رياض الكيّاد وأنا أتمنّى لو أقدر أن أشتمه، لقد نسي الاتّصال بي بينما أنا جالس على أعصابي مع تاتيانا:

– لديّ لك أخبار سارة.

– أيّة أخبار؟

– تاتيانا فلقة القمر ستبقى في حضنك أسبوعاً كاملاً يا وغد هاها.

– كيف؟ إنّها تريد الرحيل الآن إلى الجروم.

– نحن رتّبنا كلّ شيء.. نفّذ ما سأقوله لك بدقة.. اذهب وقل لها إنّك اتّصلت هاتفياً بمديرها الدكتور سالم مقحقح، واتفقت معه على أن تكتب ريبورتاجاً دعائيّاً عنه، وعن مستشفى الجروم، وذلك في مقابل أن يمنحها إجازة لمدّة أسبوع.. الأمر الخطّي بالإجازة تمّ إرساله، وسيصل إلى مكتب الأمانات بالفرزة الساعة الثامنة تقريباً.. يمكنكما الذهاب معاً لتسلّمه.. إذا طلبت منك العودة إلى الجروم لأخذ ملابس أو متعلّقات فخذها فوراً إلى أقرب مركز تسوّق واشترِ لها ما تريد.. نحن سنتكفّل بالفواتير.

– ماذا لو أصرّت على العودة إلى الجروم؟ أنا لا أستطيع إرغامها على شيء ضدّ إرادتها.

– هذه اللهجة التي تدلّ على الخور والتخنّث لا تُعجبني.. احذر يا بنيّ.. لا أنا ولا أنت من يُقرّر سير الأمور في هذا البلد.. إذا

أردت أن تُسدي خدمة لتاتيانا وتُبقي عليها حيّة فامنعها من السفر إلى الجروم.

ذهبتُ إلى تاتيانا وأنا مُثقل بالهمّ. كانت حياتها في خطر، وأنا غير قادر على تحذيرها.. لو حدث شيء لتاتيانا فلن أُسامح نفسي أبداً. كنت أتمنّى لو أمتلك الشجاعة لأصارحها بما يدور خلفها، وبالمخاطر المُحدقة بها، وبالنذالات التي ارتكبتها في حقها، ولكنّني إنسان جبان، يخشى القتل، ويخشى الفقر الذي هو أسوأ من القتل، ويخشى خسارة وضعه الاجتماعي الذي هو فاسد ومجلبة للعار. يقول الإنسان في البداية إنّما هي خطوة صغيرة وينتهي الأمر، ولكن الخطوة الخاطئة تتبعها خطوات، إلى أن نُضيّع الطريق ونمضي في التيه.

أخبرتُ تاتيانا. في البداية لم تُصدّق، ظنّت أنّي أمزح، ثمّ طلبتْ منّي أن أُقسم فأقسمت. وعلى عكس توجّسي بدت سعيدة وممتنّة لي جداً. قالت وقد ظهر عليها التأثر: «أنا قدّمتُ لك العون في مرضك ولم أنتظر منك أيّ مقابل، ولكنّك إنسان شهم وكريم وتردّ المعروف أضعافاً». استمعتُ لكلماتها وشعرتُ بالخزي من نفسي. تمنّيتُ لو أنّني كنت جديراً بالصفات التي أسبغتها عليّ. في الوقت الذي كنت فيه أهلاً لهذه الصفات لم تتهيّأ الفرصة، وعندما جاد القدر بالفرص كان الوقت قد فات.

الساعة الثامنة والنصف تسلّمتُ من مكتب الأمانات ظرفاً مُرسلاً باسمي. فتحته وأريتُ تاتيانا مذكّرة رسمية موقّعة ومختومة بمنحها إجازة لمدّة أسبوع. نظرتْ تاتيانا إلى التوقيع، وأقرّتْ بأنّه صحيح: «نعم، هذا توقيعه الشبيه بصرصار ذي مجسّات!». قلتُ لتاتيانا إنّني أحمل لها مُفاجأة ثانية، رغم أنّها لم تطلب، فقد قرّرتُ أن أشتري لها ملابس جديدة. هكذا على الأقل أُعوّضها عن هاتفها

المسروق، وفي نفس الوقت لم أكن أرى بأساً في استغلال أولئك الأوغاد وصرف أموالهم.

اتّجهنا إلى شارع المطراق، وقضينا هناك ثلاث ساعات في التسوّق. اشترينا علب ماكياج، وأحذية، وحقائب، وبنطلونات جينز، وقمصاناً صيفيّة وشتويّة، وحمّالات صدر، وغيارات داخليّة، وزيوت شعر وشامبوهات. أنفقتُ ما يقارب ثلاثمئة ألف ريال.

في السيّارة قالت تاتيانا مندهشة: «لقد اشتريت لي أغراضاً تكفيني لأقيم معك ثلاث سنوات!». لا أعرف كيف زلّ لساني وقلت لها بدون تفكير: «ليتكِ تُقيمين معي للأبد». قبّلتني تاتيانا في خدّي، وطوال الطريق إلى الشقة أبقتْ رأسها على كتفي وهي تُغنّي أغنية روسيّة ذات لحن جميل.

السبت (46)

ظهراً، تلقّيتُ اتّصالاً من رئيس التحرير رياض الكيّاد. كنت قد أرسلتُ له قبل ساعة كشفاً بالمصروفات، وأتوقّع منه تأنيباً. ليس لأنّ المال المُتوافر لعمليّاتنا محدود، بل لأنّه هو شخصيّاً يشعرُ بالحسد، ويغار منّي، لأنّي أنفق المال دون حساب، وأستمتع بصحبة الغواني الجميلات وكأنّني جيمس بوند اليمن! كان صدره يضطرم بالغلّ والحقد، لأنّ عليه أن يُسدّد ثمن المُتع التي أحصل عليها دون تذمّر من جانبه:

– يا ابني، ما هذا.. تنفق ألفاً وخمسمئة دولار في ليلة واحدة!

– ألا تستحق سمعة البلاد أن نُضحّي من أجلها بهذا المبلغ التافه.. هه؟!

– يا ابني، الاقتصاد مطلوب في كلّ شيء، ولو كان الله مُبذّراً لخلق للإنسان قصبة للبول وقصبة أخرى للذرّية.

– ولكن بماذا تُبرّر أنّه خلق للإنسان خصيتين ولم يخلق له خصية واحدة.. هه؟!

– أنت شيطان وستكون رفيقي في النار إن شاء الله.

– من جهتي، أُفضّل الذهاب إلى الجنّة.

– بعيد عن شنبك يا مُطَهِّر.. أنت قطعت تذكرة طائرة للنار ومقعدك محجوز بجوار النافذة خصيصاً لترى الكفّار وهم يرفعون إصبعهم الوسطى ترحيباً بك.

– هراء.. لن أستطيع تبيّن أيّ إصبع يرفعون وأنا بداخل طائرة وهي على علوّ شاهق!

– يا ابني يا ابني، أليس لديك خيال.. إصبع فرعون الوسطى مثلاً بسبب التعذيب ستكون بحجم بريطانيا.. من الجيّد أنّك لم تصبح أديباً!!

– إذا اتّجهتُ يوماً للأدب فسأكتبُ عنك رواية.

– أعرف، وستجعلني شخصيّة لوطيّة مُخنّثة.

– لا.. سأجعلك مُناضلاً ثوريّاً!

– هذا أسوأ.. يا ابني أنت خبيث جداً.

– على افتراض أنّني أديب، سأعتبر كلامك هذا مديحاً مُفرطاً لمواهبي.

– يا ابني أنت لست موهوباً في شيء سوى نكاح النساء.. يعني حتى الكلب المتشرّد يمتلك موهبتك.

– ومع هذا يتمنّى أيّ كلب لو يكون مكاني!

– تشتمني يا حقير هاها.. كلبتك جميلة للغاية، رأيتُ ملفّ الصور في هاتفها.. من المفروض أن تدفع أنت لنا يا لئيم هاها.. اسمع لديك مهمّة كبيرة اليوم.

– يا كريم!

– هاها.. لا مزيد من الحريم! نريدك أن تُسافر حالاً لتعمل ريبورتاجاً عن دير بني مساعد ولقاءً صحافياً مع شيخهم.

– سبحان الله، ما الذي جرى؟

– جرى حدث كبير، ثلاثة آلاف رجل وامرأة من قبيلة بني مساعد أعلنوا انضمامهم أمس إلى حزبنا.

– وعطا المساعدي؟

– أُطلق سراحه قبل ساعة، وقد أُسقطت جميع التهم المُوجّهة إليه، وحُذف اسمه نهائياً من القضية.

– يعني رجعنا إلى نقطة الصفر.

– نعم.. عاد الشيخ ليصبح في خانة الاتّهام مُجدّداً.. علينا أن نبني إستراتيجية دفاعية مختلفة لكسب القضيّة.

– لعينة الملعون! قد شعرتُ والله بأنّ هذه القضيّة نحس من أوّلها.

– أين النحس الذي تتحدّث عنه؟! لقد كسبنا آلاف الأنصار الجدد لصفّنا، والضربات المُوجعة تقع على رؤوس أعدائنا تباعاً، هذه هي السياسة.. رحى لا تكفّ عن الطحن.

– ومن الذي دبّر هذه الصفقة مع بني مساعد؟

– عمّك جابر شنيني.

– غير معقول.. إنّه حتى لا يعرف كيف ينطق اسم قبيلتهم بطريقة صحيحة!

– أضف هذا إلى جدول أعمالك: حوار صحفي مع جابر شنيني.

– أرزاق.. هل تُعدّونه لمنصب مُعيّن؟

– ليست عندي فكرة، الريبورتاج الصحافي الذي ستعمله سوف يجعل شخصيّات كبيرة في الدولة تنتبه إلى خدماته.

– جمل يعصر وجمل يأكل العُصارة!

– انتبه لتاتيانا.. وإيّاك أن تفكّر في تعويضها عن هاتفها المسروق بهاتف آخر.. ينبغي أن نقطع صلتها عن العالم لأطول فترة ممكنة.

أغلق الخط. يا له من نغل! كيف خمّن أنّني أنوي إهداءها الهاتف الذي كنت قد اشتريته لمنى.

بحسب طلب تاتيانا ذهبنا للغداء في مطعم يُقدّم وجبات شعبيّة. أكلنا اللحم الحنيذ الملفوف بالقصدير والمطبوخ بالحطب. أخبرتُ تاتيانا أنّني ذاهب في مهمّة صحافيّة، فاختارت قضاء المساء في متنزّه القمر الوردي لتدخين النرجيلة.

سلّمتها نسخة عن مفتاح الشقة، وقلت لها إنّني قد أتأخر ولا أتمكن من العودة إلّا بعد منتصف الليل. عرّجتُ على مكتبة كبيرة، واشتريت صحف اليوم، ومجلّة باللغة الإنجليزية لتتسلّى بها تاتيانا. أنزلتها عند بوابة المتنزّه وتابعتُ طريقي. كنت أشعر بالنعاس عقب وجبة الغداء الدسمة.

صادفتُ ازدحاماً، والناس يخبط بعضهم بعضاً، والسيّارات مصفوفة بطريقة مُعوجّة، فأدركتُ أنّ ثمّة سوقاً قريباً للقات! جنبتُ سيّارتي ونزلت. كان القات رخيصاً، ما يُشير إلى أنّ الأمطار تهطل يومياً على المرتفعات الجبلية. اشتريتُ ثلاثة أكياس وعدتُ للسيّارة، وبدأت أُخزّن وأتصفّح الجرائد. لفت انتباهي خبر قصير في جريدة «الأيام» العدنيّة المعارضة يتكلّم عن وفاة الطفلة محسنة بسبب زواجها المُبكر برجل ناهز الثلاثين عاماً، دخل عليها بعنف وسبّب لها نزفاً حادّاً، وأنّها لفظتْ أنفاسها الأخيرة في مستشفى الجروم. لم يكن الخبر مُرفقاً بصورة.. أخذتُ جريدة «النضال» الحُديديّة، ووجدتُ خبراً عن الطفلة في الصفحة الأولى. خبر مختصر جدّاً، لم تكن هناك تفاصيل، ولا حتى ذكر لاسم الطفلة.. شعرتُ بانزعاج شديد، بضيق في الصدر، بالهواء لا يخرج ويدخل بسلاسة إلى رئتي، وبغثيان يتصاعد إلى حنجرتي، ويُفسد عليّ مذاق القات. ما كنت أخشاه قد وقع، قضيّة محسنة فاحتْ رائحتها ووصلت إلى وسائل الإعلام،

ومن الصعب الآن وقف تداعياتها.. لن تلبث الأمور أن تسوء، وسأجد نفسي كالعادة مُتورّطاً في الدفاع عن «القذر» الذي فعلها. أكثر شيء يُقلقني هو أنّ تاتيانا طرف في القضيّة. يا ليت القدر يكون رحيماً بها.

الأحد (45)

سمعتُ في الحلم صوت منى يُناديني باسمي.. ليس نداء شخص يقفُ بعيداً عنك، بل هو قريب منك، ونبرة الصوت قويّة وعالية، فيها غضب ونهي. قمتُ من النوم وصوتها يطنُّ في أُذني بوضوح. استعدتُ طبقة صوتها وطابقتها بذكرياتي فوجدتها صحيحة.

نهضتُ وبحثتُ عن تاتيانا فلم أجدها. وجدتُ على باب الثلّاجة رسالة منها تقول إنّها ذهبتْ للسوق.

فتحتُ النت ودخلتُ موقع فايسبوك. كانت الناشطة سلام مهدي تدقُّ طبول الحرب، وتُطالبُ بإلقاء القبض على زوج البنت المتوفّاة محسنة وعلى والدها وعلى القاضي الذي أبرم عقد الزواج. كتبتُ «بوست» أتهكّم فيه على سلام ومثيلاتها من النسوان العانسات:

«الآن وبسبب حادثة محسنة، انفتح السوق لتاجرة حقوق الإنسان المدعوّة سلام مهدي، للحصول على ملايين الدولارات من الدول والمنظمات الأجنبية، باسم العمل على منع زواج القاصرات في اليمن. ها هي الفرصة تُتاح مرّة أخرى، لسلام مهدي، لممارسة

هوايتها المُفضّلة في دسّ أنفها في القضايا الجنسيّة. أليست هذه المرأة العانس تعاني من الكبت الجنسي؟ إنّني أنصحها بأن تتزوّج لتحصل على الإشباع الجنسي بطريقة سليمة ومباشرة غير ملتوية».

بعد نصف ساعة ردّتْ عليّ سلام مهدي بمنشور طويل جداً، أنقل لكم فقط افتتاحيته:

«الأستاذ مُطَهَّر فضل نسي أنّه إنسان وليس حيواناً سياسياً. ها هو يقوم بتحويل قضيّة الطفلة محسنة رحمها الله من قضيّة إنسانيّة يجب أن يهتزّ لها ضمير العالم إلى شكل من أشكال الصراع المُبتذل بين السلطة والمعارضة. إنّ موقفه اللامبالي بمصرع الطفلة محسنة، ووضع الذين يستنكرون هذه الجريمة في خانة أعداء الوطن، لهو نوع من العهر السياسي الذي لا مثيل له في تاريخ البشرية...».

عـادتْ تاتيانا وقـد اشترت على حسابها كمّيات كبيرة من السمك واللحوم والخضار والسلطة. وضعتها في المطبخ، وراحت تنظر من النافذة إلى سيّارة أجرة تقف تحت العمارة. قالت إنّ سائق السيّارة كان ينظر إليها بطريقة غريبة.. ربّتُّ كتفها وطمأنتها: «أنا أيضاً لاحظته، إنّه ريفيّ جاهل لم يعتد منظر الحسناوات الشقراوات الجميلات». ابتسمتْ تاتيانا وعانقتني. سألتني إن كنت أُحسن الطبخ، فقلت لها: «لـو لم أكـن صحافياً لكنت طبّاخاً!». ضحكتْ تاتيانا وسحبتني من يدي إلى المطبخ، وقمنا معاً بإعداد وجبة غداء فخمة تليق بالمرحوم قيصر روسيا. أنا طبختُ صانونة سمك وكبسة

أرزّ باللحم. وطبخت تاتيانا باستا باللحم، وشوربة الملفوف بالطريقة الروسيّة (Shchi).

دقّ جرس الباب. شعرتُ بالتوجّس ولم أعرف هل أفتح أم لا. مع الأسف لم تكن لباب الشقة عين سحريّة لأعرف هويّة الطارق. طلبتُ من تاتيانا أن تبقى في المطبخ وألّا تُصدر صوتاً، وذهبتُ أنا إلى باب الشقة محاولاً استراق السمع. توقف الزائر عن الدق وناداني باسمي، ناداني بطريقة قذرة، نَطَق الاسم باستحقار، باستهانة، بنغمة صوتيّة فيها تقليل من شأن المُنادى عليه، وكأنّ حباله الصوتية قد جرت دوزنتها لتنطق الاسم بدونيّة. شعرتُ بأنّ هذا الاسم ليس اسمي، وأنّه اسم وضيع جدّاً ولا يليق بي، لا يمكن أن أكون أحمل اسماً سخيفاً كهذا. تكلم الزائر من وراء الباب: «افتح يا مُطَهَّر.. أعرف أنّك بالداخل». عرفته من صوته، كان هذا محامي الشيخ، حمّود شنطة.

اضطررتُ لأن أفتح له الباب مُرغماً. وقفتُ حائلاً دون دخوله، ولكنّه أزاحني بفظاظة ودخل. كان يتأبّطُ أغصان القات الملفوفة بمشمّع بلاستيكي رقيق رأسها مُدبّب وأسفلها عريض وكأنّها صاروخ نووي من صنع محلّي. سألته ماذا يريد، اتّجه إلى الديوان، وقعد واضعاً رجلاً على رجل: «كُلّفت بالتنسيق معك.. الوضع خطير جداً.. ولازم نتكاتف». أضحكتني كلمته الأخيرة، ربّما كنت أضحكُ من نفسي، ومن الزمن الذي جمعني برجل لا يُطاق كهذا في قارب واحد. سألني إن كنّا تغدّينا، فقلت له: «لا». فقال: «إذاً سأتغدّى معكما». شعرت بالغضب يتراكم في داخلي. توقعتُ عندما رأيته يحمل القات أنّه تغدّى وأتى ليُخزّن فقط.

أخبرتُ تاتيانا بالقصّة المُحزنة، لم يكن لدينا سوى كرسيّين. قالت إنّه لا مانع لديها من الأكل على الأرض. فرشنا الجرائد كسفرة، وأحضرنا الأطباق إلى الديوان. رفض حمّود استخدام الملعقة، وراح

يأكل الأرزّ بيده، كان يرفع يده الشبيهة بالجرّافة إلى فمه لمّ ينفض حبّات الرز العالقة بأصابعه في الطبق الذي يأكل منه. وبعد أن نهش اللحم كان يُمصمص العظام مُصدراً أصواتاً فظيعة. غرفت له تاتيانا شوربة الملفوف، فراح يلتقط الملفوف والخضار بأصابعه. الكريم كراميل احتساه مُستعيناً بسبابته! بالنسبة لي كانت طريقة حمّود في الأكل مألوفة، ولكنّني لاحظتُ أنّ تاتيانا لم تأكل شيئاً.. تكلمتُ معها باللغة الإنجليزية عن سبب عزوفها عن الأكل، فردّت بأنّها إذا رأت أحداً يأكل بطريقة مقززة أمامها، فإنّها تفقد شهيّتها، ولا تقدر أن تضع لقمة في فمها. ظهر على وجهها تعبير مُشمئزّ لثانية واحدة، ولكنّها نجحتْ بسرعة في محوه. شعرتُ بالأسف عليها، لأنّها بعد تعبها لساعات في تحضير الطعام لن تقدر أن تمدّ يدها إليه وستقوم جائعة، وسترمي بقاياه في القمامة. يا له من طبع حسّاس جداً، ولا شكّ في أنّها إن تابعتْ حياتها في اليمن فستموت، بمشيئة الله، قريباً!

ومع أنّ حمود لا يفقه كلمة من اللغة الإنجليزية، حدس بأنّ الكلام يدور عنه، فقال وهو ينظر إلى تاتيانا: «اللي ما يربّيه الزمن تربّيه اليمن!». وضحك مقهقهاً كدرّاجة ناريّة، ثمّ راح يلعق صحن الكريم كراميل بلسانه. رفعت تاتيانا الأطباق الفارغة وخرجت. أخبرني بآخر التطوّرات، قال إنّ منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات التي ترأسها سلام مهدي قد تقدّمت ببلاغ لنيابة الجروم، تُطالب فيه بمحاكمة زوج الطفلة محسنة ووالدها والمأذون الذي زوّجها. قلت له: «ترافع أنت عن عائلة محسنة، كسب القضيّة مضمون، لأنّه ليس في الشريعة أو القانون اليمني ما يحول دون زواج الصغيرة». فردّ: «فعلاً، كُلّفتُ رسمياً بالترافع عنهم، هؤلاء أُناس بسطاء تستقوي عليهم كائنات العولمة، هؤلاء الناشطون والناشطات هم وكلاء

الإمبرياليّة في بلادنا، ويُريدون تطبيق المعايير الأخلاقيّة السائدة في الغرب المُنحلّ أخلاقياً على بناتنا. تزويج الصغيرة وقاية لها من الانحراف، ولكن بمعايير هذا الغرب الفاسق فإنّ تزويجنا للصغيرات هو الانحراف!».

أدركتُ أنّه سيصدع رأسي بالتنظير عن الزواج المبكر، فرفعتُ الأطباق الباقية وتركته يسترسل مع نفسه.

في المطبخ اتّفقتُ مع تاتيانا على أن نخرج بعد ساعة إلى الشاطئ للسباحة. جلبتُ ماءً مُثلجاً ومنفضة سجائر للمحامي الذي بدأ يقطف أوراق القات والسيجارة مُشتعلة في فمه. أخذ ملء قبضته من الأغصان ورماها أمامي: «خـزّن». أعدتها إليه: «ليس اليوم، سأخرج بعد قليل مع تاتيانا». اختلج فمه بانحراف لليمين. لقد خاب أمله، ربّما توقّع أن أُقيّل معه، وربّما شطح خياله وتصوّر أنّ تاتيانا ستخزّن القات وتجلس معنا. كان هذا ملحوظاً من تنعيمه لذقنه وإزالته لشاربه، آثار الجروح من موسى الحلاقة في وجهه تُبيّن أنّه قد حلق قبل ساعة تقريباً. لقد تأنّق وارتدى بذلة – رغم الحرّ الشديد – لا يخطر ببال المُحامين عادة ارتداؤها: قميص بنّي وبنطلون ومعطف لونهما أخضر فاتح. قال مُتنهّداً: «عندي خبر سيّئ.. ملفّ قضيّة جليلة أُحيل للقضاء.. وحُـدّدت الجلسة الأولى في المحكمة يوم السبت المقبل». تثاءبتُ: «لماذا التنهّد؟ أنت محامٍ وهذه فرصتك لتكسب أموالاً أكثر من الشيخ». انفرج فمه عن ابتسامة عريضة، ثمّ عاد لتمثيل دور التابع المُخلص لسيّده: «المشكلة أنّ الشيخ مشغول وليس عنده وقت فراغ لحضور جلسات المحكمة.. وبصراحة، قاضي محكمة الجروم رجل مُتشدّد وقد يُصدر أمراً قضائياً بمنع الشيخ من السفر». تململ في جلسته. كان يتكلّم بصوت عالٍ دون مُبرّر، فأنا جالس بجواره مباشرة: «الشيخ مُنزعج من حكاية منعه من السفر..

لقد تعوّد أن يقضي أسبوعاً من كلّ شهر في شقة من شققه في الخارج». قلت: «إذاً عليك أيّها المحامي العبقري أن تُطالب بمنع جليلة من السفر أيضاً هاها». عبس حمّود. ربّما تبادر إلى ذهنه أنّني أقصدُ معنىً بذيئاً. من جيب قميصه المُنتفخ بالأغراض أخرج أوراقاً مطويّة، ونظّارة قراءة ذات عدستين رفيعتين: «طلبوا منّي تزويدك بملفّ عن القاضي طاهر الدرّاك، والقضايا التي أصدر فيها أحكاماً وكانت فيها ثغرات قانونيّة». فَرَدَ الأوراق وألقى عليها نظرة سريعة، ثمّ ناولني إيّاها. قلت له: «لقد قلت ملف!». رفع إصبعه الوسطى. ابتسمتُ ساخراً من شدّة بخله.

خرجتُ أنا وتاتيانا، وتركنا حمّود شنطة يقيلُ مع عفاريت الشقة.

قصدتُ مكتبة واشتريتُ جرائد اليوم. نشرتْ جريدة «الشعب» التحقيق الصحافي عن منطقة دير بني مساعد على صفحتين ملوّنتين، مع عشرين صورة لوجهائها، وحواراً مع شيخ قبيلة بني مساعد، وصورة كبيرة له. ونُشرت أيضاً مطالبهم بتوفير الخدمات ببنط عريض. أمّا الحوار الذي أجريته مع جابر شنيني فقد شغل صفحة كاملة، وصورته وحدها احتلّتْ ربع الصفحة.

رأت تاتيانا رجلاً لديه بسطة في الشارع يبيع المخلوطة[1] فطلبتْ أن أتوقف عنده، ونزلتْ تشتري منه. غرف لها الرجل عشر كرات من مقلاة الزيت ووضعها في قرطاس ورقي، وأعطاها سحاوق حارّة في مشمّع نايلون. عندما صعدتْ وأخذتْ تأكل المخلوطة بنهم، قلت لها إنّني أستغربُ إقدامها على أكل طعام يُعدّ في الشارع ومكشوف للشمس والغبار ويفتقر للنظافة، وهي قبل قليل تقزّزتْ

[1] كرات من العجين تُضاف إليها البطاطس والكراث والكزبرة، وتُقلى في الزيت.

من أكل الطعام الذي جهّزته بيدها. احمرّ وجهها من الفلفل وراحت تنفخ: «أنا لستُ نيّقة في طعامي.. معدتي قويّة وتستطيع مقاومة الجراثيم، لكنّ صديقك كان يأكل بطريقة مُقرفة.. وهذا شعور نفسي لا أقوى على كبحه ولا علاج له». قلت لها مازحاً: «تاتيانا لا تكوني قاسية عليه.. لقد سألني إن كنتِ متزوّجة أم لا.. يبدو أنّك أعجبتِه!». زوت تاتيانا حاجبيها وصوّبت لي نظرة ثاقبة: «أرجوك دعني أستمتع بالمخلوطة». ابتسمتُ ولزمتُ الصمت.

بعدما أنهتْ وجبتها ونظفتْ يدها من الزيت بمنديل ورقيّ مبلول بقطرات من الماء قالت وهي تنظر إلى صورة في خيالها: «يا إلهي إنّ له سحنة تاجر رقيق!».

الاثنين (44)

انتشر خبر وفاة الطفلة محسنة في القنوات الفضائية والصحف ووكالات الأنباء في جميع دول العالم كالوباء. مليارات من البشر عرفوا بالحادثة. المصدر الذي أدلى بالخبر كان منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات. سمعة اليمن صارت في الحضيض الأسفل.

اشتقتُ لسماع أصوات أطفالي، اتّصلتُ بزوجتي لكنّها لم تجب.. هذه المرأة المتذمّرة من حياتنا الزوجية تقول إنّها ليست سعيدة معي.. قبل شهرين اكتشفتُ أنّها تتعاطى دواءً مضادّاً للاكتئاب! بالطبع سألتها لماذا، فأخبرتني أنّها فكّرتْ عدّة مرّات في الانتحار!! صُدمت.. كنت أحسبني وفّرتُ لها كلّ أسباب السعادة: النقود الوفيرة، والمضاجعات المثيرة، ومائدة عامرة بأفضل أنواع الطعام، ومصروف جيب يومي كبير.. وعلى سرير النوم أسدّد لها ديوني مرّة أو مرّتين في اليوم! أعطيتها ثلاثة أطفال كالأقمار، أصحّاء، أذكياء، وسماء، فما الذي ينقصها؟ لا أعلم!

تقول إنّها تريد منّي «مشاعر»! هووه.. لن تفهم هذه المرأة المدللة أنّ «مشاعري» قد ضاعت في زحمة الحياة.

تتحسّر طوال الوقت على أيّام الكليّة، وتتمنّى أن نعود عشّاقاً كما كنّا! هذه امرأة معتوهة.. تريدنا أن نعيش الحياة في حبّ وآهات رومانسيّة، وتنسى أنّ للحياة متطلّبات عمليّة، وأنّ النقود لا تأتي من تلقاء نفسها، ولا مفرّ من خوض صراع يومي للحصول عليها، وانتزاعها من أفواه الآخرين.

تريد أن تعيش نمطاً مرفّهاً من الحياة، وفي نفس الوقت تريدني أن أبقى متفرّغاً لحبّها ومغازلتها ومطارحتها الغرام، وكأنّنا مراهقان لا تئنّ أكتافهما بأحمال الالتزامات والمسؤوليّات.. تريدني أن أعمل داخل البيت أيضاً، أعمل كخادم لتلبية احتياجاتها العاطفيّة! أي إنّها لا تترك لي فرصة للراحة، ولا فرصة لنسيان واجباتي في الحياة. إنّها تريد منّي كلّ شيء، جسدي وروحي.. وهذا هو الاستحواذ المَرَضِيّ.. وآخرته ستفضي بأحدنا إلى مصحّة أمراض عقليّة.

الثلاثاء (43)

فتحت نيابة الجروم تحقيقاً في القضيّة، واستجوبت إبراهيم بلغيث والد الطفلة محسنة الذي أقرّ بأنّه زوّج ابنته ذات السبع سنوات، لكنّه أنكر وفاتها، وقال إنّها حيّة تُرزق وإنّ بإمكانه أن يحضرها إلى النيابة في أيّ وقت يشاؤون ليتأكّدوا بأنفسهم.

حضرتُ سير التحقيق معه، وسجّلته للتوثيق. خصّص لي وكيل النيابة – وكان مُتعاوناً معي للغاية – غرفة خاصّة لأنفرد بنفسي، وأكتب الخبر العاجل. فور إنهائي الصياغة طيّرته إلى إيميل رئيس التحرير رياض الكيّاد. وما هي إلّا ساعة حتّى انتشر التكذيب الرسمي لواقعة وفاة الطفلة محسنة في جميع المواقع الإخباريّة الحكوميّة.

تناولتُ الغداء مع وكيل النيابة، العقيد دبوان حيدر، في مكتبه، كنّا في حالة استنفار قصوى. الاتّصالات تنهمر كالذباب، تطلب وكيل النيابة، لتأخذ منه تصريحاً، ومعظمها كانت من مراسلي وسائل إعلام أجنبية. أجابهم جميعاً بأنّ البنت محسنة موجودة في مبنى تابع للدولة، ويمكنهم رؤيتها في أيّ وقت يشاؤون.

توافد بعض المراسلين إلى مقرّ النيابة، وكلّ واحد منهم يأمل نيل سبْق صحافي. لم يحضر سامي قاسم مراسل جريدة «الأيّام».. قيل لي إنّه قد استُضيف في مكان ما ريثما يمرّ اليوم على خير!

نزلتْ من صنعاء فرق تصوير بكامل الكاميرات والمعدّات أرسلتها القنوات التابعة للدولة. كان الجميع يسعى إلى عقد لقاءات تلفزيونيّة مع الطفلة محسنة، وبثّها على الهواء مباشرة.

سألتُ وكيل النيابة إن كان يعرف مُراسل جريدة «النضال». كان هناك حشد كبير من الصحافيّين. أشار العقيد دبوان حيدر إلى شابّ أسمر فارع القامة، يضع نظّارة طبّية مربّعة، شعره يُشبه شجرة العرعر، وجهه حليق، خدّاه منتفخان، شفتاه غليظتان، يلبس ملابس شبابيّة تُواكب آخر صيحات الموضة. سألته إن كان يعرف اسمه، حكّ وجنته وأجاب: «غالب زبيطة». فوجئت، لقد كان هذا رئيس تحرير الجريدة الذي تاقت نفسي لرؤيته، لكنّي شعرتُ بخيبة كبيرة.. لست أدري لماذا لم أستسغ شكله الخارجي.. بدا لي شابّاً يافعاً – ربما في الخامسة والعشرين من العمر – ومهتمّاً بالأناقة وبلفت أنظار الصبايا، وليست له هيئة مناضل جسور يُسخّر وقته وطاقته لخدمة الآخرين. راقبتُ حركات يديه ولفتاته، وطريقته في الابتسام والكلام، فبدا لي كأنّه يُقلّد تصرّفات نجم من ممثلي الأفلام في هوليوود، مَن بالضبط؟! لم أكن على دراية كافية بالممثلين الأميركان، ولكن أيّ شخص حصيف سوف يُدرك على الفور، ومن النظرة الأولى، أنّ هذا الشاب لم يعد يعيش في شخصيّته الأصليّة، بل حوّل نفسه إلى مسخ مشوّه، قرد، مُعتقداً في نفسه أنّه شخص آخر.

بعد صلاة العصر ذهبنا في حافلات كبيرة – وفّرتها الدولة – إلى مبنىً فخم جداً مكوّن من خمسة طوابق، واجهته مُلبّسة بالحجر الأبيض المصقول الباهظ الثمن. علقوا لافتة ضخمة مكتوب عليها:

«مركز الحماية المؤقتة للزوجات الصغيرات بالجروم». كان من الواضح أنّ اللافتة كُتبت على عجل، فبالإضافة إلى الخطأ النحوي، كان استخدام مصطلح «الزوجات الصغيرات» إقراراً من الدولة بانتشار آفة الزواج المُبكر. الأكثر غباءً كان كلمة «المؤقتة» وكأنّ الدولة ستحتفظ بالبنت في المركز مؤقتاً إلى حين تنضج ثمّ تُسلّم لزوجها!

تدافعنا للدخول من بوابة المركز التي احتشد فيها الجنود المسلحون، ولا أعرف لماذا كانوا يُفتّشوننا! وجدنا محسنة في غرفة واسعة مفروشة بموكيت جديد، وأمامها كومة ألعاب. تسابق الجميع لإلقاء الأسئلة عليها، وحاصرتها الكاميرات التلفزيونية من كافة الجهات. تسلّطت عليها الأضواء وأعمتْ عينيها، احتضنها والدها إبراهيم محاولاً إبعاد الميكروفونات الموجّهة لفم الطفلة المفزوعة من منظرها وكأنّها أعضاء ذكوريّة! سادت حالة من الهرج، وكان الكثيرون يتكلمون معها في وقت واحد. تمكّنتُ بصعوبة من التقاط صورة لها، حاولتُ تسجيل أجوبتها، لكنّ صوتها ضاع في الضجيج المحيط بها. لاحظتُ أنّ الطفلة البديلة تبدو شبيهة جداً بمحسنة، حتى الندبة، استنسخوها، لكن كان من الواضح أنّه جرح حديث، فالدم المتخثّر لا يزال ناتئًا فوق الجلد.. هذا أقصى ما توصّلوا إليه من براعة!

تشاجر صحافيّان وتبادلا اللكمات، وسبّبا بكاء البنت، فأخرجنا العقيد دبوانمن الغرفة.

في الرواق صرّح إبراهيم، والد الطفلة، لوسائل الإعلام بأنّه سيرفع قضيّة على منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات لنشرها خبراً كاذباً، تسبّب بأضرار مادّية ونفسيّة لعائلته، وأنّه سيطالب بتعويض. بعد هذا التصريح أخرجنا العسكر بفظاظة.

ونحن نتأهّبُ لصعود الحافلات، خاطبنا غالب زبيطة بصوت جهوري: «يا ناس، هل من المعقول أنّ الثراء قد بلغ بدولة اليمن إلى درجة تخصيص عمارة ضخمة من أجل طفلة.. ولماذا لا توجد مراكز شبيهة بهذا المركز في المدن الكبرى.. لا شك في أنّ هذا المبنى هو الوحيد من نوعه في اليمن كلها، كما أنّه مؤقت لحماية ضحايا الزواج المبكّر لمدّة يوم واحد فقط، وربما بعد أن نُغادر هذا الشارع سيطردون البنت شرّ طردة ويسلبونها حتى ألعابها». كان يتكلم بطريقة استعراضية، مُتباهياً بنفسه وأزيائه وذكائه، فبدا كديك نافش ريشه.

عدنا إلى مقرّ النيابة، حيث تحوّلت المكاتب إلى غرف تحرير للأخبار. أرسلتُ خبراً عاجلاً إلى جريدتي، «الشعب»، مرفقاً بصورة الطفلة البديلة لمحسنة.

قرابة الساعة التاسعة ليلاً أنهيتُ أعمالي. علمتُ من العقيد دبوان أنّ الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي حاولت صباح اليوم التحقيق مع الممرّضات الهنديّات في المستشفى الذي تُوفيت فيه الطفلة محسنة، لكنّ شقيقات الزوج الهارب اعتدين عليها بالضرب، ثمّ أتت الشرطة ووضعتهنّ في الحجز.. وقبل ساعة تقريباً أُفرج عنهنّ.

خرجت من النيابة يُخامرني شعور الجندي الذي كسب المعركة ويُشيع الرضى في نفسي. غادرتُ الجروم واتّجهتُ إلى مدينة الحُديدة، واللهفة تملأ قلبي للقاء تاتيانا التي غبتُ عنها منذ الصباح.

طوال الطريق كانت الغيوم تضرب الأرض بالبَرَد ثمّ أغرقتها بماء منهمر، وكأنّ فيها صنبوراً مفتوحاً بحجم القبّة السماويّة. اضطررتُ عدّة مرّات للتوقف انتظاراً لتحسّن الرؤية. عجبتُ لهذا المطر الذي يهطل في الليل، وكأنّه يُعاندنا، ولا يأتي في النهار حين نكون في أشدّ الحاجة إليه ليحمينا من أشعّة الشمس، ويرحمنا من حرارتها اللاهبة،

التي تكاد تدفع المرء للتخلّي عن الاحتشام وخلع ملابسه كلها والمشي عارياً.

على طريقي اشتريتُ سندوتشات الشاورما التي تحبّها تاتيانا. كنت أقود بسرعة وأُسابق الوقت للوصول إليها. ركنت سيّارتي عند باب العمارة. كانت سيّارة الأجرة التي اشتكتْ منها تاتيانا غير موجودة. صعدتُ الدرج قفزاً، ضربتُ الجرس لتنبيهها ثمّ فتحتُ بمفتاحي ودخلت.

لم ألمح حذاء تاتيانا، فانقبض قلبي. رأيت شبشب المحامي حمّود شنطة الأسود المُغطّى بطبقة كثيفة من الغبار، وحذاءً بلاستيكيّاً نسائيّاً رخيصاً لونه هجين بين الوردي والأحمر. خلعتُ جزمتي. كانت تاتيانا هي التي لمّعتها في الصباح قبل خروجي. شعرتُ بدوار يلفّني، وشممتُ في الهواء رائحة غريبة، لا تنتمي إلى حياتنا المشتركة.

دخلتُ إلى الديوان، وسألتُ حمّود دون مقدّمات: «ماذا تفعل هنا؟». كان مُخزّناً وخدّه يكاد ينفجر من ضخامة تكويرة القات في فمه: «أحمل لك رسالة». تركته ورحتُ أُفتّش في الشقة، وجدتُ في المطبخ بنتاً صغيرة تغسل المواعين. تصاعد الغضب في داخلي، وعدتُ إلى حمّود، صحتُ فيه:

– أين تاتيانا؟

– اهدأ.

– لن أهدأ.. أين تاتيانا؟ تكلم.

– اعتقلتها الشرطة.

– لماذا؟

– هناك بلاغ بأنّها متورّطة في إجراء عمليّات ترقيع غشاء البكارة.

– كذب.. أين هي الآن؟

– رُحّلتْ بالطائرة إلى صنعاء، ومن هناك ستُرحّل بطائرة أخرى إلى بلادها.

– مستحيل.. تاتيانا مُعتقلة عندكم.. سأتّصل بالسفارة الروسيّة وأفضحكم.

– صدّقني هذه هي الحقيقة، فلا تتهوّر.

لم أستمع لبقيّة كلامه، غادرتُ الشقّة صافقاً الباب خلفي بقوّة. كان لديّ شعور ضاغط بأنّها مُعتقلة في مكان ما في المدينة.

شغّلتُ سيّارتي باتّجاه فرع الاستخبارات – المبنى الذي سبق لي أن أنزلتُ المحامي حمّود شنطة بقربه – كان دمي يغلي، وصوت صفير يخترق أذنيّ وكأنّه صفارة إنذار. كدت أرتكبُ عدّة حوادث مروريّة، كان بدني كلّه يرتجف من الغضب والغيظ والقهر.

عندما وصلتُ، صرختُ بجنون في وجوه الحرّاس طالباً مقابلة مدير الفرع، ألقوا عليّ القبض، ورموني في زنزانة انفراديّة.

الأربعاء (42)

أطلقوا سراحي في الصباح. رئيس الفرع جاء بنفسه واعتذر، طمأنني بأنّ تاتيانا قد وصلت إلى بلادها ونصحني بأن أنسى أمرها ودعاني إلى كوب شاي في مكتبه.

شغّلتُ سيّارتي التي ركنوها في الحوش واتّجهتُ إلى شاطئ البحر. جلستُ خلف المقود أنظر إلى اصطخاب الأمـواج، وأتأمّل حياتي التي هي كومة من النذالات. ألحّ عليّ هاجس يتعلّقُ بتاتيانا، قـرّرتُ الـعودة إلى الشقة لأفتح النت وأرى ما إن كانت مواقعنا الصحافيّة نشرت شيئاً عنها.

مـررتُ على مكتبة وسألتهم عن الصحف، لم تكن قد وصلت بعد من صنعاء، فأخذت عدد اليوم من جريدة «النضال» التي تصدر من مدينة الحُديدة. كانت صورة الطفلة البديلة لمحسنة تشغل نصف الصفحة الأولى مع مانشيت كبير: «مطالبة دوليّة بمنع زواج الصغيرات». كرّر رئيس التحرير الكلام نفسه الـذي قاله لنا أمس، مع توسّع في شتم الحكومة، وطالب بتعديل الدستور ليحتوي على مادّة تُحدد سنّ الزواج للفتيات بثمانية عشر عاماً في الحدّ الأدنى. ثمّ تكلّم عن علماء الدين الذين يُعارضون صدور تشريع كهذا، ووصفهم

بالشهوانيّين الذين يُعانون من شراهة ممارسة الاتصال مع المرأة (Nymphomania) وأنّ شراهتهم امتدّت إلى الطفلات أيضاً. ووجّه لعلماء الدين سؤالاً وقحاً: «هل ستجرؤون في الجنّة على أن تطلبوا من الله حوريّات صغيرات أعمارهن سبع سنوات؟».

ربطتُ بين مقالته وشكله «المُستغرِب» المُتهافتْ على تقليد كلّ ما هو هوليوودي فشعرتُ بالاشمئزاز. لم يكن سوى ببّغاء يُردّد مقولات المنظمات الأجنبيّة العابرة للقارات. كوّرتُ الجريدة ورميتها من نافذة السيّارة.

شعرتُ بوهن في جسمي من الجوع. لم أكن قد ذُقتُ لقمة منذ غداء أمس. نزلتُ عند أول كافتيريا صادفتها، وطلبتُ سندوتش جبن مع الطماطم وكأس ليمون. بعدما أسكتُّ جوعي، دخّنتُ سيجارتي الأولى في هذا اليوم الحزين.

عدتُ إلى الشقة. وأنا أفتح الباب سمعتُ صوت الغسّالة، لاحظتُ الحذاء البلاستيكي الذي يخصّ الفتاة، أمّا شبشب المحامي فلم يكن موجوداً. نقمتي المكبوتة تصاعدتْ فجأة كبخار سام من جوفي، لم أخلع جزمتي وتوجّهتُ إلى الحمّام الذي كان بابه مفتوحاً، كانت البنت ترتدي قميص نوم خفيفاً جداً يُظهر تفاصيل جسمها، لم تنتبه لحضوري، إذ كان ظهرها للباب وهي مُنحنية تنقع الملابس في ماء البانيو.

زعقتُ فيها بصوت مُزلزل: «ماذا تفعلين هنا؟». أطلقتْ صرخة رعب مدوّية، وقفزتْ إلى الزاوية وهي ترتعش. لا شكّ في أنّ سحنتي المُقطّبة وذقني النابتة قد أسهمتا في ترويعها. أشرتُ لها بيدي طارداً: «هيّا انقلعي من هنا». جرت المسكينة إلى غرفة النوم وجمعتْ أغراضها القليلة في كيس. ارتدتْ قميصاً من النوع الشائع

لبسه عند العجائز، والعباءة السوداء، وغطّتْ شعرها بوشاح أصفر وخرجتْ.

عدتُ للحمّام لأتأكّد إن كانت نسيتْ شيئاً من ملابسها في الغسيل. وجدتُ أنّ جميع الملابس تخصّني. ذهبتُ إلى المطبخ وفتحتُ قارورة فودكا وسكبت قدحاً. فتحتُ الفريزر ووجدتُ الوعاء الخاصّ بمكعّبات الثلج ممتلئاً.. لا أذكر أنّني أعدت ملأه في المرّة الأخيرة، البنت التي طردتها للتوّ هي من عبّأته. أخذتُ أربعة مكعّبات وألقيتها في الكأس.

ذهبتُ إلى غرفة النوم. كانت مُرتّبة ونظيفة جداً وتتضوّع بعبير أنثوي مُثير. أخرجتُ كمبيوتري المحمول من الحقيبة السوداء وشغلته. انتبهتُ لنظافة أرضيّة لوحة المفاتيح، أمّا المفاتيح نفسها فكانت تلمع وكأنّها خرجت للتوّ من المصنع. قلت في نفسي: «ما هذا.. تبدو صاحبة خبرة كبيرة في شغل البيت مع أنّها بنت عمرها بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة».

فتحتُ الموقع الإلكتروني لجريدة «الشعب»، ووجدتُ خبراً عن تاتيانا: «القبض على طبيبة روسيّة تقوم بعمليات جراحيّة لترقيع غشاء البكارة». ونشروا صورة لها. فتحتُ المواقع الإلكترونية لصحف أخرى، موالية للحكومة، ووجدتُ الخبر نفسه منشوراً فيها كلّها مع اختلاف يسير في الصياغة، وتنويع في الصور. كانت الصور مسحوبة من هاتفها المسروق. انهمرتْ الدموع من عينيّ.. كانت هذه مكافأتنا لها على الخدمات الطبّية التي قدّمتها لبلادنا.

جلبتُ القارورة من المطبخ ورحتُ أعبُّ من رأسها. دخلتُ الفايسبوك، وشتمتُ ولعنتُ مُطلقاً العنان لاضطغاني، كسكّير تعتعه السُكر، ولو كان في موقع فايسبوك مجال لإضافة السوائل، لتبوّلتُ عليهم وعلى منشوراتهم.

عندما نفد الشراب من القارورة، فقدتُ تماسكي، وبكيتُ بحرقة، جأرتُ بالبكاء بأعلى ما أستطيع، غير مبالٍ بالجيران الذين قد يسمعونني.. ولا أتذكّر متى غبتُ عن الدنيا وأسلمتُ نفسي للكرى.

الخميس (41)

اتّصلتُ بزوجتي. أخيراً فتحت الخط، لم تتكلم معي، أعطتْ الهاتف لابني هايل الذي تكلم معي طويلاً، ثمّ تكلمتُ مع ابنتي نجاة التي حكتْ لي عن الدرّاجات التي اشترتها أمّها وألعاباً غيرها، وأمّا آخر العنقود كرامة فلم تنطق بحرف واكتفتْ بالضحك. ضحكاتها الصافية أعادت الحياة إلى قلبي العليل، طريقتها في ترنيم كركراتها أخرجتني من حالة الشقاء التي تُحاصرني إلى حالة من البهجة والاسترخاء. ساعة وعشر دقائق من الحديث مع أطفالي كانت بمثابة غسل لروحي المُتعبة الآسنة.

قمتُ خفيفاً نشيطاً لحلاقة ذقني التي طالتْ، وتنظيف بدني من الشعر الزائد ومن ثمّ الاغتسال. فكّرتُ أنّ زوجتي المصلحيّة لم تسمح لي بمحادثة أبنائي إلّا لأنّها تنوي أن تطلب منّي المزيد من النقود.

تصفّحتُ النت، ووجدتُ أخباراً تذكر أنّ إبراهيم بلغيث والد الطفلة محسنة قد تقدّم بشكوى إلى نيابة الجروم ضدّ منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات، وأنّ الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي ستمثل أمام

النيابة يوم السبت المقبل للتحقيق. نشرت صحيفة «الأيّام» العدنيّة الاسم الرباعي للزوج المختفي، وذكرت أنّه سافر للعمرة!

دخلتُ موقع الفايسبوك. كانت الحرائق التي أشعلتها أمس ما تزال مُشتعلة، والمفسبكون والمفسبكات يعوون مثل الكلاب المضروبة.

ذهبتُ إلى المطبخ وحضّرتُ لنفسي وجبة باردة. نويتُ أن أرتاح اليوم في البيت، وأتفرّغ لكتابة عدّة مقالات لعمودي اليومي.

عندما أذّن الظهر، قرّرتُ الخروج لأتغدّى في مطعم صنعاني. كنت أشتهي وجبة «السلتة» التي لم أتذوّقها منذ نزولي إلى الساحل. كنت أريد أيضاً شراء القات والجرائد.

فتحتُ باب الشقّة وصُعقتُ، عندما رأيتُ تلك البنت التي لا أعرف اسمها، جالسة على بسطة الدرج مُحتضنة كيس ملابسها. شهقتُ وضربتُ بيدي على جبهتي. اقتربتُ منها وسألتها: «متى عدتِ؟». ردّت بصوت ضعيف خافت: «أنا لم أذهب إلى أيّ مكان». أمسكتُ نفسي بصعوبة من البكاء. حملتُ كيس أغراضها وطلبتُ منها أن تدخل. صعدتْ درجتين وترنّحتْ. أسندتها واضعاً يدي تحت إبطها، وساعدتها على صعود الدرجات الباقية.

أجلستها في الصالة وسقيتها ماءً. سألتها وأنا ألاحظ حالة الإعياء التي تُعاني منها: «لماذا لم تعودي إلى بيتك؟». ردّتْ: «لا أعرف الطريق». قلتُ: «من أين أنتِ؟». قالت: «من دير الدموع». حككتُ أنفي، لم أكن قد سمعتُ أبداً عن قرية بهذا الاسم. قلتُ: «ما اسمكِ؟». «خاتمة»، نطقتْ اسمها وهي تتنهّد.

ذهبتُ إلى المطبخ وحضّرتُ لها وجبة سريعة، مكوّنة من الجبن المالح والزيتون والحلاوة الطحينيّة مع الخبز وقدّمتها لها لتأكل. كان من الواضح عليها أنّها لم تأكل شيئاً منذ صباح أمس. طلبتُ منها

أن تأكل، فمدّتْ يدها وقضمتْ قطعة خبز جافة، ثمّ توقفتْ، قالت إنّها تشعر بغثيان. لم أعرِف ماذا أفعل لها، ولم أستحسن إسعافها للمستشفى، ماذا أقول لهم.. إنّها لم تأكل منذ يوم ونصف. أخبرتها أنّني سأذهب في مشوار وأرجع بعد ساعة. كانت تنظر إليّ بعينيها ولا يصدر عنها أيّ تعبير.

خرجتُ وأنا مهموم. قصدتُ مطعم «السلتة». لم أستمتع بالوجبة، شعرتُ بتأنيب الضمير، لأنّني تسبّبتُ بتجويع إنسانة كان مصيرها مُعلقاً بي، وتوقّعتُ أن أرحم ضعفها وغربتها. توقفتُ عن الأكل، وطلبتُ أن تُغطى المدرة بالقصدير لأحمل الطبق معي إلى البيت، ودفعتُ لأصحاب المطعم ثمنها وغادرت.

اشتريتُ قاتاً وسجائر، وأخذتُ من مكتبة في شارع صنعاء الصحف التي وصلت للتوّ. وجدتُ في صحيفة «الثوري» التي تصدر عن الحزب الاشتراكي اليمني خبراً لفت انتباهي: «مقتل الرفيق مساعد أول سعد موسى في ظروف غامضة». تأمّلتُ الصورة وعرفته، كان الجنديّ الضخم الجثة الأسود البشرة – من طائفة الأخدام – الذي تصدّى للشيخ وأعوانه في قسم شرطة باب المنجل. ورد في الخبر أنّ جثة سعد موسى، عضو الحزب، قد وُجدتْ مرمية في أحد دروب قرية باب المنجل ورأسه وأطرافه مقطوعة. وجاء أيضاً أنّ الشبهات تحوم حول الشيخ بكري حسن الذي سبق له أن توعّد الرفيق بالقتل أمام حشد من أهالي المنطقة. كان كاتب الخبر صديقي الذي لم يعد صديقي، سامي قاسم.

تذكّرتُ التهديد بالقتل الذي تلقّاه كاتب الخبر بنفسه أيضاً... شعرتُ ببرودة في أطرافي، وتساءلتُ في نفسي إن كنت أنا غير معنيّ بالتهديد ومع ذلك شعرتُ بالخوف، فما مقدار الرعب الذي يشعرُ به سامي الآن...

عدتُ إلى الشقّة وأنا أحمل المدرة وكيساً فيه خبز «كِدَم». اتّجهتُ إلى المطبخ فوجدتُ خاتمة تغسل الصحون المتراكمة في حوض المغسلة. لُمتُها وطلبتُ منها أن تترك كلّ شيء على حاله وترتاح. تابعتْ عملها دون أن ترفع رأسها نحوي. أمسكتها من ذراعها وأمرتها أن تشطف يديها من الصابون. نفّذتْ الأمر وقد انعقد حاجباها الرفيعان وبرطمتْ بشفتيها. سحبتها إلى الديوان، وأمرتها أن تقعد في المكان الذي حدّدته لها حتى أعود. قعدتْ وعقدتْ ذراعيها، لم تكن راضية بالقعود وثمّة شغل لم تُنجزه، قلبها يأكلها لأنّها لم تُنه عملها. وضعتُ مدرة «السلتة» على النار، وذهبتُ إلى غرفة النوم لأبدّل ملابسي، رأيتُ الملابس التي كانت في الغسيل منشورة على الحبال في الشرفة. قلت في نفسي: «هذه البنت لا تريد أن ترحم نفسها».

عدتُ إلى المطبخ وفتحتُ الثلاجة، وكما توقعت، كانت قد أعادت الأطباق التي قدّمتها لها لتأكل منها كما هي، ما عدا قرص الخبز الذي أكلتُ أقلّ من نصفه. رفعتُ المدرة عن النار، وجهّزتُ غداءً متواضعاً، وحملته إلى الديوان ووضعته على الأرض، قلت لها: «تعالي تغدّي». قالت: «أكرمك الله، شبعانة». نهرتها: «خاتمة، اسمعي الكلام وتعالي إلى هنا». زحفتْ على يديها وركبتيها وجلستْ أمامي. رحتُ آكل، بينما كانت هي تنزع من «الكِدْمة» قشرتها القاسية، وتمضغها حافية. اضطررتُ أن أغمس لقمة في السلتة وأطعمها بيدي. تمنّعتْ، ورفضتْ فتح فمها، فهدّدتها بالضرب – كنت أمزح طبعاً – ولدهشتي استسلمتْ فوراً، وكأنّما قلتُ كلمة سحرية. تابعتُ إطعامها بيدي حتى تجشّأتْ من الشبع، وتركنا المدرة خاوية كالمسجد بعد خروج المصلّين من صلاة الجمعة. شعرتُ بسعادة وانفراج نفسي لأنّها أكلت، وأحسستُ أنّني كفّرتُ عن ذنبي. سألتني هل أسمح لها بأن ترفع الأطباق فمنعتها، عادتْ إلى مكانها

السابق عاقدة ذراعيها. رفعتُ السفرة وذهبتُ للمطبخ وغسلت الأطباق. قطّفتُ أوراق القات الطريّة الحمراء كاللحم وغسلتها ثلاث مرات.

كان برنامجي الاعتكاف في غرفة النوم، وكتابة مقالات. أعطيتُ لخاتمة قاتاً، قالت إنّها لا تُخزّن. شغّلتُ لها التلفزيون وناولتها جهاز التحكم عن بعد، فقالت إنّها لا تُشاهد التلفزيون! قلت لها وقد طفح غضبي: «هل تعرفين كيف تجلسين على مؤخّرتك بهدوء؟!». يبدو أنّها رأت عرق الغضب قد انتفخ في جبيني، فردّت فزعة: «يه». قلت لها مُهدّداً: «إذاً لا تُصدري أيّ صوت.. أنا مشغول.. أريد أن أكتب».

تركتها ومضيتُ إلى غرفتي، قلت في نفسي إنّ أفضل ما في هذه الفتاة أنّها مُطيعة.

الجمعة (40)

وجدتُ قمصاني وبنطلوناتي مكويّة ومُعلقة في الدولاب، وملابسي الداخليّة مطويّة في أحد الأدراج. استغربتُ كيف عبرتْ خاتمة غرفتي إلى الشرفة، وأخذتْ الملابس وكوتها ورتّبتها في الدولاب دون أن أُحسّ بها مُطلقاً، أهي خفّة يدها، أم هو نومي الثقيل. أطفأتُ المكيّف وفتحت النافذة، فدخل الهواء البحريّ حارّاً وكنس الأوكسجين المُعلّب غير الصحّي من قفصي الصدري، وعلى الفور زال الخمول من جسمي، وشعرتُ بأنّني بخير وعافية، وأتمتّع بصحّة ممتازة.

فتحتُ النت، ودخلتُ موقع الفايسبوك، كان هناك جدال حول جليلة. البعض كان يُطالب بالاحتشاد في قاعة المحكمة صباح الغد – السبت – لمؤازرة البنت جليلة. وكانت هناك أيضاً دعوات لوسائل الإعلام لحضور المحاكمة، لكي يكون الرأي العام على علم بما يجري، ولكي يُشكّل ضغطاً شعبياً يُطالب بتطبيق العدالة.

كتبتُ «بوست» قلت فيه إنّ نشر وقائع المحاكمة في وسائل الإعلام بمختلف أشكالها هو جَلد للمغتصَبة، وإضرار بسمعتها لسنوات طويلة في المستقبل، وأمّا المُغتصِب – على افتراض أنّ الشيخ قام بفعلته غصباً لا عن تراضٍ بينهما – فإنّ المجتمع الشرقي

سينظر إليه كفحل، ولن تتأثر سمعته البتة، بل على العكس، ستتهافت عليه النساء حبّاً في رجولته!

كان صوت خطيب الجمعة يصل إلى مسامعي وهو يتوعّد ويتهدّد الغرب، ويتلاعب بطبقات صوته كالقطّ المُتقدم في السنّ - الـعُـرّي - عندما يدخل في مواجهة مع قطّ أكثر فتوّة. أغلقتُ النافذة، وذهبتُ إلى المطبخ لأحضّر لنفسي وجبة خفيفة.

وجـدتُ أنّ خاتمة قد أعـدّتْ لي بيضاً مسلوقاً وفـولاً وفطائر بالزيت وشاياً حفظته في الترمس. أكلتُ فطيرة مع رشفات من الشاي. كان طعم الفطير لذيذاً جداً، طبقاته هشّة ويكاد يكون جافّاً من الزيت، وهذا دليل على مهارة فائقة في عجنه وقليه. ما لم تكن خاتمة تعرفه عنّي هو أنّني لا أتناول الفول إطلاقاً.. وأعترف بأنّني أتجنّبه لكونه وجبة شعبيّة، وعلامة على الانتماء للفقراء. أمتنع عن أكله لأسباب طبقيّة، أنا برجوازي، ولا أقبل أن أتدنّى إلى مستوى طبقة البروليتاريا، وأعتقد أنّني ضحّيتُ بقدر لا يُستهان به من الأخلاقيّات والمثل العليا لأتخلص من هذه الوجبة وإلى الأبد.

بحثتُ عن خاتمة في الديوان فلم أجدها، كانت في الغرفة الثالثة تنظف الموكيت بخرقة مُبلّلة بالماء الممزوج بالمُطَهِّر. قلت لها مُقرّعاً: «خاتمة.. ماذا تفعلين.. هذا البيت ليس بيتي ولا بيتك، لماذا تنظفين الموكيت ونحن سنتركه؟!». توقفتْ عن المسح، ونكستْ رأسها ولم تجاوب. نظرتُ إلى الجدران، كانت تلمعُ من النظافة، فشددتُ شفتي أسفاً. سألتها: «أكلتِ؟». ردّت: «يه». زفرتُ بارتياح. قلت لها أن تأكل البيض والفول كلّه، لأنّني سأتناول غدائي في المطعم.

خرجتُ من الغرفة، ثمّ خطر ببالي أن أشكرها على غسلها وكيّها لملابسي، فرجعتُ ورأيتها ساهمة جامدة الحركة، باغتّها

بالسؤال: «خاتمة، ما لك؟ في أيّ شيء تفكرين؟». نظرتْ إليّ وركزت بصرها على قدميّ: «أفكّر في مشيتك». حككتُ ركبتي، كنت أظنّها ستلومني لأنّني مشيتُ على الموكيت وهو مبلول لم يجفّ بعد: «ما لها مشيتي؟». قالت: «مشيتك جبليّة.. رجلك ترتفع وكأنّك تصعد جبلاً». أضحكتني ملاحظتها ولم أشعر بأنّها مُهينة: «وأنتم كيف تمشون؟». قالت وهي تنظر في عينيّ: «نحن نمشي براحة، ندفع أقدامنا للأمام ولا نرفعها إلّا مقداراً يسيراً». لمحتُ في عينيها ذكاءً غير عاديّ، استبدّ بي الفضول وسألتها: «هل دخلتِ إلى المدرسة؟». قالت: «درستُ إلى الصف الثالث الابتدائي». قلت: «إذاً أنتِ تعرفين القراءة والكتابة؟». ردّت: «يه». قلت مُجاملاً: «لو أنّكِ تابعتِ دراستكِ لكنت الآن تدرسين في الإعداديّة». وقفتْ فجأة وراحت تُقلّد مشيتي، ضحكنا. قلتُ: «هل رأيتِ.. مشيتنا فيها رجولة.. أليست أجمل من مشيتكم الزاحفة؟». قالت: «لا.. مشيتكم فيها إظهار للقوة، نحن لا نحتاج لإظهار قوّتنا». رنّتْ كلمتها في أذني.. صبيّة صغيرة ومع ذلك تمتلك من الفطنة ما ليس موجوداً عند السواد الأعظم من السياسيّين والمثقفين.

خرجتُ من الشقة وأنا أرجو من الله أن لا يُعطيها أحدهم كتباً لكارل ماركس أو لينين، لأنّها بصراحة ستكون داهية سوداء، وقد تتسبّب بانهيار الرأسمالية البدائيّة في هذا البلد! مشيتُ في الشارع وأنا أخبطُ الأرض بقدميّ وكأنّني في استعراض عسكري. عندما وصلتُ إلى سيّارتي رفعتُ رأسي إلى الأعلى، رأيتها في النافذة تُشيّعني ببصرها، أدّيتُ لها التحيّة العسكريّة، فضحكتْ وتوارت إلى الداخل. على مسافة قريبة من سيّارتي كانت هناك سيّارة ربع نقل «تويوتا هايلوكس» مُتوقفة وسائقها بداخلها. صعدتُ وشغلتُ المحرّك، دققتُ النظر في السائق وعرفته، كان هو المخبر نفسه الذي

أرسلوه في المرّة السابقة لمراقبة تاتيانا.. سخرت في نفسي من غباء الأمن، لقد غيّروا السيّارة ولم يُغيّروا الرجل! خطر ببالي طبعاً أنّهم يُراقبونني، وكان هذا أمراً غريباً، لكنّي لم أقلق، وأقنعتُ نفسي بأنّه قد حان الوقت لكي أنضمّ إلى قائمة الشخصيّات المهمّة المشمولة بنظام الحماية السرّية، التي غالباً ما تشملها الحماية دون إذن منها.

تغدّيتُ وقيّلتُ في متنزّه يُقدّم النرجيلة، وتابعتُ الكرّ والفرّ في موقع الفايسبوك. لقد كان أجدادي فرساناً يُقاتلون بالسيف، وأنا ما زلتُ وفيّاً لتقاليد الفروسيّة، ولكنّني أخوض حروبي بلوحة المفاتيح. القتل في هذا العصر قتلٌ نفسي لا جسمي، والجروح لا تخترق الجلد بل الروح مباشرة. كانت المبارزة في الماضي أكثر شرفاً ونبلاً، وبرهاناً دامغاً على الشجاعة، أمّا اليوم فإنّ مبارزات العالم الافتراضي تُعلّم الإنسان الخسّة والضعة، وتصنع من أكبر جبان في العالم بطلاً.

بعد المغرب اتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد، وطلب منّي الذهاب غداً إلى محكمة الجروم لكتابة تقرير صحافي عن سير قضيّة جليلة.

قبل منتصف الليل بدقائق، عدتُ إلى الشقة. كانت خاتمة نائمة في الديوان. دخلتُ إلى المطبخ، ووجدتُ فاصوليا مطبوخة، سخّنتها وقضيتُ عليها. قلت في نفسي إنّها فتاة لمّاحة، ستعرف أنّني أموتُ في الفاصوليا وستطبخها لي دائماً. وضعتُ لها نقوداً ورسالة كتبتُ فيها أن تشتري ما يلزم من مؤونة للمطبخ. ضبطتُ المنبّه في هاتفي ليرنّ في تمام الساعة السابعة صباحاً.

السبت (39)

غصّتْ محكمة الجروم بالبشر. نسبة الصحافيّين عالية. توتّر الجوّ فجأة عندما أمر قاضي المحكمة طاهر الدرّاك بإدخال الشيخ إلى قفص الاتّهام. بعد أخذ ورد، وتوسّل من وكيل النيابة، انصاع الشيخ بكري حسن للأمر ودخل إلى القفص. كانت جليلة وجدّها وعدد آخر من أقاربها حاضرين في الصف الأوّل. خارج المحكمة جلب الشيخ عشر سيّارات تحمل أكثر من مئة مسلح، بغرض إرهاب المحكمة، وربّما هذا ما استفزّ القاضي وجعله يتشدّد معه ويأمر بحبسه في القفص. نظرتُ إلى محامي الشيخ، حمّود شنطة، كان وجهه مُتغّيراً والأمور تنذر بسوء موقف موكّله.

قدّم محامي الطفلة شعيب العجيل مُرافعة بليغة طالب في ختامها بتوقيع عقوبة السجن المؤبّد على الشيخ. دفع محامي المتّهم بعدم صحّة التقرير الطبّي، وتقدّم بطلب إعادة إجراء فحص عذريّة الطفلة جليلة، وقدّم للقاضي وثائق تُثبتُ عدم أهليّة الدكتورة تاتيانا نظراً لتورّطها في أعمال مُنافية لأعراف وتقاليد البلاد، ومنها قيامها بعمليّات ترقيع غشاء البكارة. حدثتْ المفاجأة الكبرى عندما رفض القاضي طلب محامي المتّهم، بحجة أنّ المحكمة قد اعتمدت التقرير

الطبّي الذي كتبته الطبيبة تاتيانا، وأنّ الإدانة التي لحقت بالطبيبة في قضايا أخرى لا تُخلّ بصحّة التقرير. انهار دفاع المحامي حمّود شنطة ولم يعرف ماذا يفعل.

أصدر القاضي أمراً بمنع الشيخ من السفر خارج البلاد إلى حين صدور الحكم في القضيّة، وحدّد موعداً للجلسة الثانية في العاشر من أغسطس.

خرج أنصار الطفلة جليلة من المحكمة وهم مبتهجون ويصرخون: «عاشت العدالة». أُخرج الشيخ من قفص الاتّهام وهو يُنغض رأسه وكأنّه يتفادى ضربة غير مرئيّة. أمّا أتباعه فكانوا صامتين، يتهامسون ويتحرّكون بعصبيّة وتوتّر. كان الصحافي سامي قاسم يتبع القاضي كظله متبادلاً معه بعض الكلمات. فكّرتُ أن ألتقط صورة للقاضي، لكنّني تراجعتُ، ثمّ مرّ بقربي وهو خارج. كان رجلاً في السبعين، فخماً مهيباً، يمشي الهوينى، يُسلّم ويُبادر إلى المصافحة، ويسأل الكبير عن أحواله، والصغير عن أحوال أبيه وأهله، وإن مازحه أحد لا يمتعض. بدا لي متواضعاً، وكأنّه بمجرّد خروجه من المحكمة قد خلع رداء القاضي وصار واحداً من المواطنين العاديّين. شخصيّة غريبة، ساحرة، محبوبة، لم أجد مثيلاً لها من قبل. حاذاني وكيل النيابة، وطلب أن آتي معه. ذهبنا – كلٌّ بسيّارته – إلى النيابة. عندما وصلنا سألته ما الأمر، فقال لي إنّ الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي التي حضرتْ صباح اليوم للتحقيق معها بشأن نشر أخبار كاذبة قد رفضتْ إحضار ضمانة تجاريّة، فاضطرّ إلى احتجازها. ذهلتُ، سألته لماذا لم تحضر ضمانة تجارية، فردّ بأنّ الغرور قد أعماها، وتصوّرتْ أنّه لا يمكن القبض عليها. سألني إن كنت أرغب في تصويرها، فأجبته بأنّني أودّ رؤيتها فقط.

قادني إلى الحجز، وما إن وقع بصري عليها حتى قالت: «جئتَ تشمتُ يا قليل الأصل». قلت وقد دفعتني للتباهي بنسبي: «لا والله أنا لست قليل الأصل، أنا من بيت مشائخ، وأجدادك كانوا رعيّة عند أجدادي». وكأنّها كانت تنتظر هذه الفرصة لينفثئ غضبها، فراحتْ تسبّني بألفاظ بذيئة سوقيّة، زُقاقيّة، يندى لها جبين الإنسان الحرّ! أخرجتُ الكاميرا والتقطتُ لها عدّة صور، فازدادت ضراوة، وأخذتْ تضرب الحاجز الحديدي مُطلقة العنان للسانها.

تركناها وعدنا إلى مكتب وكيل النيابة. قال الأخير ضاحكاً: «لا أدري لمَ أُصيبتْ بالجنون عندما رأتك.. هل رأيت كيف كانت تضرب الشبك؟! وكأنّما ركبها جنّي!». استأذنته وأنا خارجٌ لأحضر كمبيوتري المحمول من السيّارة حتى أكتب خبراً عنها. قال إنّه سيطلب لنا غداءً.

كتبتُ بسرعة وأنا تحت تأثير الغضب خبراً مرفقاً بالصور تحت عنوان: «على خلفيّة اتّهامها بترويج أخبار غير صحيحة: حبس الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي على ذمّة التحقيق». وأرسلتُ الخبر إلى جريدتنا.

بعد دقائق اتّصل رئيس التحرير وقال إنّه يشدُّ على يدي، وقال إنّ الصور التي بعثتُ بها لا تُقدّر بثمن وضحك. ثمّ قال إنّه سيُحوّل لي بمبلغ ثلاثمئة ألف ريال دعماً لمخّي النظيف، ثمّ أغلق الخط.

تناولتُ غدائي براحة بال، لقد نفّستُ عن غضبي، وكوفئتُ بسخاء. جلب العقيد دبوان وكيل النيابة ربطة القات المُغلفة بورق الموز وخزّنّا. كتبتُ تغطية صحافية لجلسة اليوم، ممالئة للشيخ، وبعثتُ بها للجريدة مع صورة للقاضي وهو على منصّة المحكمة.

جاء رجل ضئيل الحجم وهمس في أذن العقيد دبوان بكلمات جعلته يكاد يغصّ بالقات. لاحظتُ تغيّر وجهه. كان مُتّكئاً فاعتدل

جالساً. قال بعد انصراف المُخبر: «الشيوعي حسين البطّاح يُحرّض الناس على الخروج في تظاهرة ليليّة للزحف علينا». شعرتُ برعدة تضرب بدني كالبرق: «هل تتوقع أعمال شغب؟». قال وهو يتقلقل في جلسته: «حسين البطّاح متهوّر وقد يُشجّع الغوغاء على اقتحام النيابة لتخريب المكاتب وإحراق الملفّات وربما يفتح الحجز ويُحرّر السجينة». قلت له: «وماذا ستفعل؟». قال وقد استقام واقفاً: «القوّة التي عندي لا تكفي لمواجهتهم، ليس معي إلّا عدد محدود من الأفراد، سأطلب تعزيزات من الحُديدة».

اتّجه إلى الهاتف ورفع السمّاعة، كان متوتّراً ولاحظتُ ارتعاش يده وهو يضرب الرقم غيباً من الذاكرة. لا شكّ في أنّنا كنّا على أعصابنا، وحياتنا مُعرّضة لخطر جسيم، ففي حالة حدوث اضطرابات، من الممكن أن نتعرّض للقتل ضمن موجة عنف لن يُؤاخذ عليها أحد بالتحديد. تلقى العقيد دبوان جواباً مُطمئناً، وأخبرني أنّ كتيبة من الأمن المركزي في طريقها إلينا. صارحتُ العقيد دبوان برأيي:

– ماذا لو تُطلقُ سراح تلك المرأة أمّ النحس وتُفوّت الفرصة على المُخرّبين؟

– سلام مهدي تتحدّى القانون.. تريد أن تقول إنّها أكبر منّي ومن هذه المؤسّسة.

– أعتقد أنّها تعمّدتْ حبس نفسها لتلفت الأنظار إليها بقوّة.. إنّها مهووسة بالشهرة.. ألا تتّفق معي في هذا الرأي؟

– أعرف جيّداً هذه الألاعيب الصغيرة، وأنّ البعض يبحثُ عن الإثارة، ويضع نفسه في صدام معنا لكي يُقال عنه إنّه مناضل، لكنّ الأمر تجاوز حدود سلطاتي.. لا أستطيع الآن إطلاق سراحها إلّا بأمر من فوق.

– إذاً هذه الشقيّة التي خطّطتْ مُسبقاً لكلّ هذا مع صديقها حسين البطّاح ستحقّق مأربها وستُضخّم مسألة اعتقالها، وتجني من ورائها المزيد من الشهرة والسمعة الحسنة في الخارج، ومن المؤكّد أنّها ستحصل على التأييد والتعاطف من الأجانب.. أرجوك فكّر في كلّ هذا...

– لا تضغط عليّ يا صاحبي.. حتى لو أنّها خطّطتْ لإثارة القلاقل فلن تخرج حتى تستسلم وترضخ للقانون.. أنا متأكّد من أنّني قد اتّخذتُ القرار الصحيح.

– في كلّ الأحوال أنا سأبقى معكم لتصوير أيّة حوادث شغب قد تقع.

أطلق العقيد دبوان زفرة ارتياح، وصوّب نحوي نظرة امتنان. بعد الغروب مباشرة وصلتْ سيّارات الأمن المركزي وعلى متنها العشرات من الجنود المُدجّجين بالسلاح، وتوزّعتْ على الجهات الأربع لمبنى النيابة.

جاء هبوب بارد من الشرق، ما يدلّ على هطل أمطار غزيرة على المرتفعات الجبلية. بعد صلاة العشاء بدأت شراذم من الشبّان المراهقين بالتجمّع أمام بوابة النيابة. اتّصل العقيد دبوان بمدير كهرباء الجروم، وطلب منه قطع التيّار عن الشارع الذي تقع فيه النيابة. غرق الحيّ بكامله في الظلام الدامس، وصعد عدد من القنّاصة إلى سطح المبنى. أضاء المتظاهرون الشموع، كان عددهم بالآلاف، وراحوا يُردّدون الشعارات.

صعدتُ إلى السطح وأخذتُ أُصوّرهم، كانوا يملأون الشارع وزئير صراخهم يُرجفُ القلوب. قلت في نفسي إنّ سلام مهدي التي ولا شك تسمع أصواتهم ستنتفخ من الفخر، وسيُعاودها مرض جنون

العظمة. مرّت التظاهرة بسلام دون حوادث تُذكر، وفي الساعة العاشرة ليلاً تفرّق المتظاهرون.

بعد نصف ساعة عاد التيّار الكهربائي، كتبتُ بسرعة خبراً موجزاً عن التظاهرة وأرسلته. طبّقتُ كمبيوتري المحمول، وهممتُ بالمغادرة. جاء العقيد دبوان وعلى فمه ابتسامة عصبيّة: «بشرى سارّة.. لقد ألقوا القبض على حسين البطّاح». صافحته مُودّعاً واتّجهتُ إلى سيّارتي.

طوال الطريق إلى الحُديدة انشغل ذهني بالتفكير في سلسلة الأخطاء المشؤومة التي تقع فيها السلطة، والتي بسببها يتحوّل نفر من الأغبياء إلى أبطال في نظر الشعب. ربّما كنت أشعر بحسد طفيف تجاه سلام مهدي وزميلها حسين البطّاح.. إنّه شعور غريب، أيُّ نَفسٍ هذه التي أحملها بين جنبيّ! يبدو أنّني ورثتُ من أجدادي جينات البطولة والإقدام، لذلك تحنُّ نفسي إلى المجابهة مع قوى أكبر منّي لأظهر صلابة معدني.. ها أنا أعترفُ بأنّ الوقوع في الأسر هو أمنية خفيّة مُتأجّجة في أعماقي، لأنّ سيرة أيّ فارس عظيم لا تخلو من ذلك، وكان ممّا يُغيظ أن يمنح التاريخ هذه الهبة لشخصين تافهين ليست لهما أدنى صلة بشيم الفروسيّة.

الأحد (38)

فتحتُ عينيّ وهوووب إلى الفايسبوك! لقد أصبحتُ مُدمناً على «الفسبكة». كما تنبّأتُ، تداول المفسبكون الأخبار عن اعتقال سلام مهدي، وحوّلوها إلى شهيدة الحرّية وبطلة الحقوق المدنيّة، وكأنّها مارتن لوثر كينغ اليمن!

كتبتُ «بوست» ونشرتُ جميع الصور التي التقطتها لها في الحجز مع تعليق: «متّعوا أبصاركم يا هواة الحرّية المستوردة بمنظر نبيّتكم سلام مهدي وهي خلف القضبان».

وردتْ إلى ذهني فكرة مقال لعمودي اليومي، فأسرعت بتدوينها:

«بمناسبة دخول مُتعهدة الحفلات سلام مهدي السجن: هذه المرأة التي تعمل بعقلية المُرائي الذي يفرح بالتقاط الصور مع الضحايا ليتفاخر بإنسانيته المزعومة، وتدير منظمتها المشبوهة بطريقة عائليّة دكاكينيّة، هذه التي تُعلق يافطة أكبر من مساحة الشقة الوضيعة التي تستأجرها لمنظمتها، لتبهر عيون المخصيّين الأجانب الذين يُعارضون زواج الصغيرات، ينبغي أن تفهم أنّ من المستحيل

نشوء منظمات مجتمع مدني في بلد يغلبُ عليه الطابع الريفي ولم يُنجز بعد تحوّله إلى مجتمع مدني، وهذا يعني أنّ منظمتها ما هي إلّا تلفيق غربي مصطنع يُراد به إيهام اليمنيّين بأنّه صالح للتداول في بيئتهم».

سمعتُ طرقات على الباب، استغربتُ لأنّني أكّدتُ على خاتمة أن لا تزعجني البتّة. أعطيتها الإذن بالدخول، فتحت الباب وقالت وهي تريني جريدة في يدها: «لقيت هذه تحت عقب الباب». أخذتها منها، كانت جريدة «النضال» التي تصدر من الحُديدة وتتوفر هنا منذ السابعة صباحاً. نشروا في الصفحة الأولى صورة كبيرة للشيخ وهو واقف في القفص، مع مانشيت كبير بالأحمر: «الشيخ بكري حسن في قبضة العدالة أخيراً». نشروا أيضاً خبراً عن احتجاز الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي. وأمّا احتجاز حسين البطّاح فلم يُذكر، ربّما لأنّ الاعتقال حدث في وقت متأخّر من الليل، أي بعد ذهاب العدد إلى المطبعة. في الصفحة الداخليّة، فوجئتُ بأنّهم نشروا صورتي مع تعليق خبيث: «الصحافي السفسطائي مُطَهَّر فضل المُكلّف من السلطة في صنعاء بالتغطية على جرائم الشيخ وتحسين صورته أمام الرأي العام». فعلها رئيس تحرير جريدة «النضال» السفيه المُنحدر من سلالة مُضاجعي إناث الحمير.. لقد بدأ هو بالهجوم، وأنا لن أسكت، وسأتدبّر طريقة للردّ عليه.

سألتُ خاتمة إن كانت تعرف من الذي وضع لنا الجريدة، فردّتْ برفع كتفيها. فهمتُ من بريق عينيها أنّها قد قرأتْ الجريدة، ورأتْ صورتي وما كُتب عنّي. حين جال هذا الخاطر بذهني احمرّ أنفي، وشعرتُ بالحرج منها. طلبتُ منها أن تُعدّ الفطور، فقالت إنّه

جاهز. شعرتُ بالتشوّش، وقررتُ إكمال المقالة في وقت آخر. طبّقتُ الكمبيوتر المحمول، وذهبتُ إلى الحمّام.

وجدتُ في البانيو حشرة غريبة سوداء اللون، ذات رأس وظهر مُستديرين، وأقدام كثيرة جداً، تشبه أمّ أربع وأربعين، لكنّ حجمها كبير وشكلها مختلف. قتلتها بعصا الممسحة. رفعتها وتأمّلتها، كان مظهرها مُخيفاً، بالمجسّات التي تبرز على أطراف أقدامها وتعطيها هالة صفراء غامقة.. رميتها في فتحة المرحاض وسحبتُ السيفون. عشّش في قلبي الشعور بالتشاؤم، فعندما تدخل حشرات غير مألوفة إلى بيت الشخص، فهذا يعني إنذاراً بأحداث غير سارّة.

مدّتْ خاتمة السفرة في الديوان. كان الإفطار الذي أعدّته يتكوّن من الفاصوليا وفطائر الزيت الهشّة المقرمشة والشاي بالحليب. طلبتُ منها أن تجلس وتأكل معي. قالت إنّها قد أفطرتْ، أصررتُ عليها، فقعدتْ وراحتْ تأكل على استحياء. تأمّلتُ كفّها وأناملها، كانت ثخينة خشنة وكأنّها يد رجل. إنّها فتاة شغّيلة، وربّما هي تمارس العمل الشاق منذ بلغت السابعة أو السادسة من عمرها. وجهها الذي سفعته الشمس يبدو مرهقاً، والجفن الأسفل لعينيها مُجعّد ومُسودّ.. لمستُ بشرة وجهها بأصابعي فجفلتْ. أغمضتُ عينيّ وتابعتُ تحسّس وجهها، كانت البشرة قاسية، والجلد مشدوداً يخلو من طراوة الصبا، ملمسه جافّ كالح كلوح خشبي. تنهّدتْ خاتمة على دفعتين.. فتحتُ عينيّ، وسحبتُ يدي. حدّقتُ في عينيها، ورأيتُ فيهما حياة مُثقلة بالمعاناة، وشخصيّة غنيّة بعالم مدهش من الأسرار والسحر والغموض.. كانت أكبر من سنّها بعشر سنوات، ولديها خبرة في الحياة، والرجال، وتصاريف الأقدار، ربّما أكثر منّي أنا الذي ناهزتُ الثالثة والثلاثين من عمري. لم أشعر نحوها برغبة

جنسيّة، دون ريب إنّها صبيّة حسناء، وتمتلك قواماً جذاباً وخصراً نحيلاً مُغرياً، ولكنّ فيها شيئاً يُنفّرني لا أعرف ما هو...

سمعنا هتافات، فجرينا إلى النوافذ التي تطلّ على الشارع، كانت حافلات مُكتظّة بطالبات المدارس تعبر، رافعةً صور المُدرّس حسين البطّاح. أدركتُ أنّ هناك تظاهرة يجري الحشد لها. ارتديتُ ملابسي، وحملتُ حقيبتي ونزلت.

أدركتهم عند مبنى المحافظة، وهناك رأيتُ أغرب تظاهرة شعبيّة في تاريخ اليمن: خمسة آلاف فتاة في وقفة احتجاجيّة أمام مبنى المحافظة، يُطالبن بإطلاق سراح حسين البطّاح والناشطة الحقوقيّة سلام مهدي. وهدّدن بأنهنّ لن يُغادرن أماكنهنّ حتى يُستجاب لمطالبهنّ. تسلّلتُ إلى مبنى المحافظة الذي كان في حالة من الفوضى والازدحام بسبب تكدّس رجال الأمن بالزيّين الرسمي والمدني. علمتُ هناك أنّ حسين البطّاح نُقل ليلاً إلى الحديدة، وهو مُعتقل الآن لدى جهاز الاستخبارات. نقل إلينا ضابط موثوق أنّ تظاهرة مماثلة تحدث بالتزامن في الجروم أمام النيابة، تشارك فيها حوالى ثلاثة آلاف طالبة.

اتّصل بي رئيس التحرير رياض الكيّاد طالباً منّي تغطية فوريّة للأحداث. باشرتُ بكتابة خبر وصغته دون تركيز وأرسلته.

كنت وسط مجانين، والشائعات تُبقبق مثل قدر حساء على النار. المؤكّد أنّ الأحزاب اليساريّة المتحالفة هي التي نظّمتْ هذه التظاهرة. لكنّ المذهل هو القدرة اللوجستيّة على طباعة المنشورات والصور، والدقة في التنظيم، والضربة الكبرى هي في حشد هذا الرقم الكبير من الجنس اللطيف للتظاهر والسرعة الفائقة في ردّة الفعل، فالعالم ما إن يسمع بهذا النبأ حتى يهبّ بكاميراته ومايكروفوناته لاستطلاع هذا الحدث الفريد من نوعه في بلاد العرب!

هكذا، تواقد عشرات الصحافيّين ومراسلي القنوات الفضائية، ولم يعد بالإمكان تفريق المتظاهرات بالقوّة...

الساعة الثانية من بعد الظهر أصدر المحافظ – الذي وقع تحت ضغط هائل من أولياء أمور الطالبات – أمراً بإطلاق السراح الفوري لحسين البطّاح وسلام مهدي. ردّت الفتيات بزغاريد فرح أصمّتْ آذاننا، وربّما سمعها جيراننا الأفارقة على الضفة الأخرى من البحر الأحمر.

في الساعة الثالثة وصل حسين البطّاح إلى ساحة التظاهر، وألقى كلمة عبر مُكبّر الصوت في الطالبات، وعندما انتهى، ألهبن أكفهنّ بالتصفيق له.. يا له من مجد! من كان يتصوّر أنّ رجلاً ضئيل الشأن كهذا سيحوزه! كان هذا يوماً اسودّتْ فيه وجوهنا، وتلقّينا فيه ضربة موجعة، وأعداؤنا خرجوا منتصرين.

لم أُطق كتابة الخبر، رغم إلحاح رئيس التحرير، إذ كانت معنويّاتي في الحضيض، والدموع تُبلّلُ عينيّ، وأرغب في التحطيم والتكسير لأنفّس عن شعوري بالقهر. لا أحد يفهمني ولا حتى رئيس التحرير، ما كان يحزّ في نفسي ليس الجولة التي خسرناها، بل خسارتي الشخصيّة للبطل الذي في وجداني.. لقد كنت أراه مُجسّداً هناك، والجماهير تحفّ به وتهتف له، ولكن مع الأسف انتحله شخص غيري.. سرقه منّي حسين البطّاح.. أنا البطل، وهذا العرش كنت أنا الأحقّ به من ذلك الأشمط، لكنّ القدر اللعين يُشقلبُ الأوضاع ويمنحُ البطولة لمن لا يستحقّها.

أيّ هدف نضعه نصب أعيننا سوف نناله، طال الزمان أو قصر، ما دمنا نخصّص له وقتنا وجهدنا وروحنا. تبقى الصعوبة الكبرى هي في معرفة ذلك الهدف الذي اخترناه في أعماقنا، لأنّنا في الحقيقة لا نعيه.. إلّا بعد فوات الأوان!

اشتريتُ قاتاً بسعر خيالي وعدتُ للشقة. استقبلتني خاتمة وحملتْ عنّي الربطة وحقيبتي الثقيلة، وقالت إنّ الغداء جاهز. كذبتُ عليها وقلت إنّني قد تغدّيت. طلبتُ منها أن تغسل القات ثلاث مرّات.

دخلتُ غرفتي وشغلتُ التكييف، شعرتُ بالتعب، فقلت أضع رأسي على الوسادة لأريح عينيّ قليلاً، لكنّ النوم حملني على أجنحته وطار بي إلى جُبّ الأحلام.

الاثنين (37)

استيقظتُ الساعة الثالثة فجراً وأنا أشعرُ بجوع شديد، سرتُ إلى المطبخ وأكلتُ لقيمات من قدر فيه خضار مُشكّلة كانت خاتمة قد طبختها. كان قاتي مُقطّفاً ومحفوظاً في الثلاجة أيضاً. شعرتُ بضيق، فقرّرتُ الخروج إلى شاطئ البحر لاستنشاق الهواء. وضعتُ قدراً من شراب الروح في عبوة مياه معدنية، وأخذت علبة سجائر، وخرجت.

عبرتُ الشارع بخطى حثيثة إلى البحر، دنوت منه وقعدتُ على الرمال الدافئة. بعدما شربتُ وعالجتُ قلبي، اتّصلتُ برئيس التحرير رياض الكيّاد، كنت أعلم أنّه صاحٍ ولا يزال يعمل في مكتبه ويراجع ويُحدّث أخبار الصفحة الأولى. فتح الخط وخاطبني بلهجة مرحة:

– ما سَرّنا؟

– تعبت وأريد العودة إلى صنعاء.

– لا تستعجل.. نحن نُعدّك لأشياء أكبر.

– أنا أثق بوعدك، لكنّي بالفعل لم أعد أقدر على التحمّل، أحتاج للراحة بعد كلّ هذا الضغط العصبي المدمّر.

– أنا أتّفق معك، لكنّ انسحابك الآن من ساحة الوغى لا يعني هزيمتنا فقط، ولكن يعني أنّك أنت بالذات جبان.. هل ترضى أن يُقال عنك هذا الكلام؟!

– لا.

– إذاً اصمد يا بنيّ، وسترى خلال أيّام كيف سنقلب موازين المعركة لمصلحتنا.

– أيّام فقط؟

– أقسم لك بشرفي.. نحن نعمل ليل نهار، ومن المستحيل أن تخرج الأمور عن السيطرة.

– أدفع عمري ثمناً لأعرف ما هي الخطّة بنت العاهرة التي نشتغل عليها.

– هاها.. تأكّد أنّ قضيّتنا ستنتهي نهاية سعيدة.. هل تريد أن أُفشي لك سرّاً لترتاح أعصابك؟

– يا ليت.

– نحن نشتغل تمريناً على إدارة الأزمات.

– ما اسم التمرين؟

– المنطاد.

– الآن فهمت.

– ماذا فهمت؟

– آ.. كيف يكون إعداد الخطط أسهل وأنت في الأعلى.

– مضبوط.. أنت ذكيّ جداً، فلا تسمح للخور بأن يتسلّل إلى نفسك.. ينتظرك مستقبل مُشرق يا بنيّ.

– إن شاء الله.

– من الجيّد أنّك اتصلتْ، لديك مهمّة أيّها البطل.

– ما هي؟

– القاضي طاهر الدرّاك.. هذا الشيبة الخرف شوكة في حلوقنا.
– وما العمل؟
– العمل عليك، تكفّل به، أنت الآن صرت تعرف أسلوب عملنا، أوجد فكرة ألمعية لإطاحته.
– المعلومات التي زوّدني بها حمّود شنطة غير نافعة.. الرجل سجلّه نظيف جداً.
– ابحث عن مدخل آخر.
– حقيقة لا يخطر بذهني أيّ شيء.
– هل سمعت عن مطعم السكارى؟
– لا.
– اذهب إليه الآن وأنا متأكّد أنّك ستجد الأفكار المطلوبة.
– أتعرف كم الساعة؟! نحن على أبواب الفجر.
– يا ابني هذا المطعم يفتح من الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى أول ضوء للنهار.
– هاها.. لأجل هذا سمّوه مطعم السكارى!
– هيّا اذهب، إنّهم يسألون عنك، يقولون هناك واحد مفقود هاها!

أعطاني العنوان وأغلق الخط.

تلبّثتُ قليلاً لأجهز على ما بقي من الفودكا، ثمّ قصدتُ المطعم.

قدت السيّارة بتمهّل، رغم أنّ الشوارع فارغة من السيّارات. أوقفتُ السيّارة أمام مدخل المطعم ونزلت. سرتُ بخطوات حذرة محاولاً المحافظة على توازني. فوجئتُ بأنّ المطعم كان مكتظاً بالزبائن عن آخره. وقفتُ محتاراً في الوسط كالحمار الذي اختفى صاحبه! لاحظ نادل ضخم الجثّة مُكرّش وقفتي البلهاء، فأمسكني من ذراعي، وأجلسني في أحد المقاعد. حدّق في وجهي لثوان ثمّ أطلق

نداءً مُجلجلاً: «نفر كبد وزِدْه». وضع نادل آخر عيناه مُحمرّتانِ ووجهه مُتجهّم كأس قهوة أمامي. أخذتُ أرشف القهوة وأنا أدور بنظري بين الزبائن. كانوا صاخبين يتكلمون بأصوات عالية، ويضحكون بقهقهات ترتجّ لها الجدران. أقبل نادل ثالث عيناه أشدّ حُمرة من سابقيه وسحنته عاصفة عابسة، ووضع أمامي الخبز. تجرّأتُ وشكرته، فرشقني بنظرة حادّة وكأنّه يريد أكلي. عاد النادل الأول «المُكرّش» ووضع أمامي طبقاً فيه كمّية كبيرة من الكبد المطبوخ مع البصل والطماطم. شكرته، نظر إليّ بترفّع ولم يفتح شفتيه بكلمة. توقعتُ أنّ أناساً بهذه الصرامة والأفواه المُطبقة كالنمور لن ينجحوا أبداً في طبخ وجبات جيدة، ولكنّني عندما تذوّقت الكبد وجدته لذيذاً جداً، يذوب في الفم كالشوكولاتة، والخبز المُلوّح يُقرمش كرقائق البطاطا.

غادر الجالس بجواري وجاء آخر، اقترب منه النادل المُكرّش وحدّق في وجهه – كما فعل معي – ثمّ صاح: «نفر بيض.. يأكل». جلب له النادل الثاني شاياً أحمر. استغربتُ من أحوال هذا المطعم، فالزبائن هنا لا يطلبون، وإنّما يجلسون مُكتّفي الأيدي، قانعين بالرضوخ لتناول الوجبة التي يفرضها عليهم مزاج النادل المُكرّش! لا يبدو أنّ أحداً هنا يجرؤ على الاعتراض، فسُحَن أصحاب المطعم لا تُبشّرُ بخير، وعضلاتهم المفتولة تُبيّن أنّهم مجرمون خارجون عن القانون، ولعلهم هاربون من السجون، لذلك يتجنّبون العمل في النهار ويفضّلون العمل تحت ستار الليل! وضع النادل المُكرّش طبقاً مشروخاً مسطحاً فيه القليل من البيض، ربّما نصف الكمّية، أمام الوافد الجديد صاحب اللحية الكوسج. قلت في نفسي يبدو أنّ شكله لم يرق في أعينهم! دنوتُ منه وسألته أين يقع المطار، فضحك قائلاً: «أنت فعلاً سكران ولا تعرف رأسك من رجلك!». عندما تكلم لم تنبعثْ منه رائحة الكحول، فعرفتُ أنّه لا يشرب، ولهذا السبب يُضايقه النادل المُكرّش.

مع الأسف لم يوحِ لي الشاب الكوسج بأيّ فكرة. لكنّ المائدة التي أمامي أوحتْ لي بفكرة.. فقد نشب خلاف بين سكرانين، كان كلّ واحد منهما يُصرّ على الآخر أن يدفع الحساب. كانا يرتديان الزيّ السائد في الساحل، القميص المفتوح الأزرار والإزار. الأول كهل شعره أشهب جعد، وملامحه تدلّ على أنّه مثقف وذو شخصيّة جادّة، والثاني شابّ على مشارف العشرين، وملامحه تدلّ على أنّه طاووس دعيّ. تابعتُ بفضول جدالهما:

الكهل: إمّا أن تدفع الحساب وإمّا أن تقوم بشقلبة القرد.

الشاب: (...) أمّك! عينك طويلة! كيف عرفت أنّني نسيتُ ارتداء سروالي الداخلي؟؟

الكهل: أنت مشكلتك نسيان شيئين دائماً.. الفلوس وسروالك الداخلي!

ضحكنا جميعاً، طبعاً باستثناء الشاب الطاووسي والنُدُل الواقفين كالجلاميد وكأنّ الابتسامة تُقلّلُ من هيبتهم في عيون الزبائن.

الشاب (نظر إلى النادل المُكرّش): إذا وافق الشباب فسأدفع الحساب غداً.

النادل المُكرّش: بشرط واحد.

تطاولتْ أعناقنا إلى النادل المُكرّش، وتعلّقتْ عيوننا بشفتيه منتظرين ما سينطق به.

النادل المُكرّش: أن تقوم بشقلبة القرد!

انفجرنا نضحك حتى إنّ البعض منّا سقط عن كرسيّه، وأنا أوجعني بطني من الضحك واحمرّ وجهي بشدّة.

الشاب: عليكم لعنة الله يا أنذال.. عندما أُصدرُ قصائدي الوطنيّة وأصيرُ غنيّاً سأبول عليكم جميعاً من فوق.

أحد الزبائن: سبحان الله ستصير غراباً!

الكهل (يدفع الشاب الطاووسي للنهوض): هيّا تشقلب.. لن يتضرّر الوطن إن قمت بشقلبة واحدة!

وقف الشاب وبدا عليه الحرج الشديد، ركّزنا عليه أنظارنا وكتمنا أنفاسنا وساد صمت متحفّز، حتى إنّنا كنّا نسمع طنين الذباب. رفع يديه عالياً ثمّ هوى عليهما مُتشقلباً، واندفع إلى الأمام واقفاً على رجليه. صفّقنا له بحرارة، ونحن غارقون في الضحك، والبعض راح يُصفّر. عاد الشاب إلى مقعده وهو يكاد يذوب من الخجل، لأنّ الجميع رأوا عورته تُحلّق في الهواء كالعلم! دفعتُ الحساب وخرجتُ حامداً الله أنّي لم أنس أن أحمل في جيبي نقوداً!

رجعتُ إلى الشقّة وقد شعشع ضوء الصباح. فتحتُ باب الديوان فلم أجد خاتمة. نظرتُ إلى التلفزيون المُكفّن بستارة بيضاء وقلت في نفسي إنّ هذه الفتاة الوحشيّة لم تستأنسها الحضارة بعد. فتحتُ باب الغرفة الثالثة فوجدتها نائمة على مسافة بعيدة عن فراشها، لقد كانت كثيرة التشقلب في نومها. عندما خطرت ببالي شقلبة القرد كادت تُفلتُ منّي ضحكة. أغلقتُ عليها الباب ومضيتُ إلى المطبخ. كان مزاجي قد تحسّن، وعادتْ إليّ طاقة العمل. أخرجتُ القات من الثلّاجة، وأخذت زجاجة مياه غازيّة وذهبتُ إلى غرفتي. كان رئيس التحرير مُصيباً، لقد أوحى لي مطعم السكارى بفكرة أشدّ فتكاً من الديناميت، وستفجّر القاضي طاهر الدرّاك عند نشرها إلى أشلاء.

شغّلتُ كمبيوتري المحمول، ورحتُ أكتبُ مقالة تحت عنوان: «كلام في سرك.. حكاية القاضي الفاسد». تحدّثتُ فيها عن الميول «الغلمانية» عند قاضي محكمة الجروم – لم أذكره بالاسم – التي أثّرت على عدالة الأحكام التي يُصدرها، وأنّه كان مُنحازاً في عدد من

القضايا التي قضى فيها، وطالبتُ بمراجعة سجلّه القضائي ومحاسبته. ذكرتُ مُستشهداً أنّه يذهب للاغتسال صباح كلّ جمعة في وادي الدود، حيث تأتي طائفة من الصبيان الذين يستحمّون عراة، فإذا خرجوا وارتدوا مآزرهم – وهم ريفيّون لا يرتدون السراويل الداخليّة – عرض عليهم مالاً مقابل قيامهم بشقلبة القرد، فكان الأولاد يتسابقون للشقلبة أمامه، وهم غافلون عن غرضه، فيعطي لكلّ واحد منهم مئة ريال.. وأمره مشهور بين قرى الوادي، لكنّهم يتغاضون عنه، ويعدّونها متعة لا تضرّ، وتسلية لا تتجاوز حدود النظر، وهو من وجهة نظرهم عاشق عذري، ابتلاه الله بمحبّة الصبيان!

أتممتُ كتابة المقالة على نَفَسٍ واحد، دون تلكؤ، وبعثتُ بها. كنت متأكّداً من أنّ رئيس التحرير رياض الكيّاد سيُجنُّ من الفرح عندما يقرأها.

خرجتُ من غرفتي ووجدتُ خاتمة قد استيقظتْ. احتضنتها وقبّلتها في مفرق شعرها، وطلبتُ منها أن تطبخ فاصوليا، وتُعدّ الفطائر المقليّة بالزيت.

دخلتُ الحمّام وحلقتُ واغتسلت، ثمّ دهنتُ شعري بالزيت، كنت سعيداً ولا أعرف ماذا أفعل بالساعات التي تفصلني عن موعد استيقاظ رئيس التحرير ظهراً.

ذهبتُ إلى الديوان، أبعدتُ الستارة البيضاء عن التلفزيون وشغّلته. كانت هناك عدّة قنوات فضائية تبثّ تقارير إخباريّة عن التظاهرة النسائيّة الضخمة التي جرتْ في كلّ من مدينتي الحُديدة والجروم. ظهرتْ سلام مهدي بوجهها الطويل الشبيه بالكوسا وهي تشكر بنات اليمن. أحضرتْ خاتمة الإفطار، فأمرتها أن تجلس وتأكل معي. كنت أُقلّبُ القنوات الفضائية وأراقبها وهي تأكل بتمهّل وتشاهد التلفزيون.. لاحظت حركتها الخفيّة: كان رأسها مُلتفتاً إلى

جهة التلفزيون وتتعمّد عدم النظر إليّ، لكنّها كانت تسترقُ النظر من طرف عينها. فأنا في مدى رؤيتها، وبإمكانها مراقبتي من دون أن تُشعرني بأنّها تفعل. لم تكن تجرؤ على النظر إليّ مباشرة كما أفعل أنا بنظراتٍ صريحة مُستقيمة. عندما كففتُ عن الأكل، وضعتْ يدها على جبينها والتوى وجهها من الألم. سألتها بماذا تشعر، فردّتْ: «صداع وألم في معدتي». طلبتُ منها أن تلبس وتستعدّ للخروج. أخذتها إلى مستشفى خاصّ، كشف عليها الطبيب، ثمّ انتحى بي جانباً وقال لي إنّ البنت بخير وتعاني فقط من أعراض المُراهقة! إنّها تتمارض فقط لكي تحظى ببعض الاهتمام والحنان. فكّرتُ في أنّني قد أهملتها، وعاملتها كحيوان خدوم، دون أيّ اعتبار لمشاعرها.

عندما صعدنا إلى السيّارة سألتها إن كانت تحتاج إلى شيء، فهزّتْ رأسها بالنفي. سألتني عمّا قاله لي الطبيب، انعقد حاجباها وأظهرتْ تلك النظرة الحادّة المُفترسة كنظرة لبؤة. لا ريب أنّها خمّنتْ النميمة الخبيثة التي قيلتْ بحقّها. قلت لها مازحاً لكن دون أن يظهر ذلك على ملامح وجهي الجادّ: «قال الطبيب إنّك تعانين من حمّى داخليّة». قالت وقد التصق حاجباها الرفيعان الفاحما السواد: «ولماذا لم يكتب لي علاجاً؟». ضغطتُ على دوّاسة البنزين وانطلقنا: «قال إنّ أفضل علاج لكِ هو الآيس كريم هاها!».

كان هناك محلّ آيس كريم في شارع المطراق، دخلناه وأخذنا طاولة عائليّة بستائر. قدّموا لنا آيس كريم بنكهة المانجا في أكواب زجاجيّة وعصَوَين من البسكويت. كنت قد لاحظتُ أنّها طوال فترة إقامتها في الشقة تلبسُ قميصاً أزرق بزهور حمراء فجّة من الطراز القديم الشائع بين العجائز ولا تُغيّره. سألتها كم قميصاً تملك، فرفعتْ أربع أصابع، قلت لها إنّني لم أرها ترتدي سوى قميص واحد، فردّتْ أنّها لم تجلب معها من قريتها سوى القميص الذي فوقها.

أخذتها في جولة على محالّ الملابس، واشتريتُ لها أربعة قمصان من الموديلات العصريّة. رأيتها تُطيلُ النظر إلى محلّ يبيع أدوات التجميل، فدخلنا إليه. اعترف بأنّ خبرتي في هذه الشؤون معدومة، فانتحيتُ بالبائع وأشرتُ إلى خاتمة وتكلّمت بصوت خافت: «أترى هذه البنت الشرسة.. ستتزوّج بعد أسبوع وأريدك أن تُجهّزها بجهاز عروس». رفع البائع حاجباً واحداً: «كان الله في عون زوجها!». أخذتُ لها علبة ماكياج وعطوراً فرنسيّة، ومراهم للعناية بالجلد، ومُزيل الروائح، ومُزيل الشعر، وزيوت شعر وشامبوهات، وأكسسوارات. دفعتُ له بعد مُساومة ساعدتني خاتمة في حسمها لمصلحتي بعدما رمت الأغراض على زجاج طاولة المحلّ وهدّدتْ بالمغادرة.

بعد خروجنا قالت خاتمة إنّني لا أعرف كيف أُساوم. قلت لها إنّني غالباً لا أُساوم عندما أشتري، وأدفع المبلغ الذي يطلبونه. قالت وهي تحضنُ الأغراض إلى صدرها: «أول شيء عليك أن تفعله وأنت تشتري هو أن لا تبتسم بل أن تنظر في عيني البائع وكأنّه قتل أمّك». ضحكتُ وقلت: «وثاني شيء؟». قالت: «تتكلم فوراً عن عيوب السلعة التي تريد شراءها وتقدّر سعرها بربع ثمنها الحقيقي». قلت لها وأنا أنظر إليها نظرة جانبية: «يا ليت المسؤولين الأغبياء الذين يعقدون صفقات السلاح بمليارات الدولارات يسمعون كلامك».

كنا نشعرُ بعطش شديد، فالشمس في كبد السماء، ولهيبها يصهر الأدمغة. اقترحتُ أن نرجع إلى محل الآيس كريم، فوافقتْ خاتمة بسرور كبير. وضعنا المشتريات في السيّارة، وهرولنا إلى المحلّ ونحن نسبح في بحر من العرق. طلبنا آيسكريم بالشوكولاتة، التهمتْ خاتمة حصّتها بسرعة وأنا كذلك. طلبتُ ماءً، فشربنا حتى ارتوينا، وشعرنا ببرودة لطيفة تسري في عروقنا. أحببنا المحلّ ولم

نرغب في مُبارحته. نظرتُ إلى خاتمة وفكّرتُ في أنّ عُقدة لسانها ستنحلّ بعدما صرفتُ نقودي عليها بسخاء:

– قلتِ إنّك من دير الدموع؟

– يه.

– من هو شيخكم؟

– الشيخ بكري حسن.

– هل أبواكِ على قيد الحياة؟

– أبي.. أمّا أمّي فتُوفيت وعمري ثلاث سنوات.

– ماذا يعمل والدك؟

– راعي غنم.

– هل أنتِ مخطوبة؟

– مخطوبة!! هاها.. أنا تزوّجت وعمري ثماني سنوات.

– ولماذا هذا الاستعجال؟!

– المثل يقول خذ بنت الثمان وعليّ الضمان.

– وأين زوجكِ؟

– طلّقني بعد عامين وسافر للعمل في السعودية.

– ولماذا طلّقكِ هذا الحمار الغبيّ؟

– من فضلك لا تسبّه، إنّه ابن عمّي.

– عجيب، أما زلتِ تحبّينه؟

– لقد طلّقني بغير رضاه.

– لماذا؟ هل اشترطت عليه السعودية أن يُطلقك؟!

– لا.. سيّدي.

– من سيّدك؟

– الشيخ.

– آه!

كانت تحكّ سطح الطاولة بأظافرها، وقد ظهر تقوّس حزين على شفتيها. نسيتُ أن أتغزّل بشفتيها.. جمالهما يبرز أكثر عندما تكون حزينة! شفتها العليا رقيقة بارتفاع بسيط في وسطها، و السفلى ممتلئة ومقوّسة كالكعك المُكوّب. سألتها بحذر وأنا أعرف أننا قد وصلنا إلى منطقة محظورة:

– هل تزوجكِ؟

– لا.. أنا حلال له أصلاً.

أخذت تُعضعض شفتها السفلى قلقة من زلّة لسانها.. وخمّنتُ على الفور السرّ الذي تخفيه عن أمثالي ربّما خوفاً على حياة والدها وأقاربها. قلت بصوت خافت:

– هل أنتنّ كثيرات؟ (كنت أفكّرُ أنّ للشيخ حريماً على غرار القدماء).

– ...

– هل تعرفين بنتاً اسمها منى؟

تحوّلتْ خاتمة إلى صخرة صمّاء وكفّتْ عن الكلام. كانت ملامح وجهها مُكفهرّة. دفعتُ الحساب وخرجنا.

ونحن في الطريق إلى مطعمي المُفضّل، اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد، وقال إنّه يشدّ على يدي، أثنى على المقالة، ووعدني بأنّه سيُحوّلُ لي مكافأة سخيّة عقب نشر المادّة. استدرك أنّه سيحتاج منّي إلى تدعيم مقالتي بشهادات تؤيّد كلامي مأخوذة من أعيان قبيلة بني مساعد، فوعدته بالعمل على ذلك. احتفلتُ بنجاحي وطلبتُ غداءً فخماً. أكلنا حتى شبعنا، وبعض الأطباق لم نتذوّقها حتى. أصرّتْ خاتمة على لفّ الطعام الزائد وأخذه للبيت. أوصلتها للشقة، وأخبرتها أنّني قد أتأخّر.

مررتُ على مكتبة واشتريتُ الجرالد، ثمّ تابعتُ طريقي باتّجاه مدينة الجروم. اتّصلتُ بجابر شنيني، وأخبرته بالموضوع، فقال إنّه سيسبقني إلى دير بني مساعد ليهيّئ لي الأجواء، ويختار الأشخاص المُناسبين.

الثلاثاء (36)

نشرتْ جريدة «الشعب» المقالة والاستطلاع الصحافي على صفحتين في الوسط، بعناوين مثيرة، وصور لجميع من شملهم الاستطلاع. اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد وهنّأني. كانت تهنئته تحمل مغزىً مُعيّناً، ويبدو أنّ شخصيّات مهمة اتّصلتْ تمتدح موضوعي.. وطلب منّي في نهاية مُكالمته أن أذهب لتسلّم حوّالة ماليّة. عندما وقفتُ أمام شباك الصرّاف فوجئتُ بضخامة المكافأة.

ارتدتْ خاتمة قميصاً من القمصان الجديدة، وتكحّلتْ وحمّرتْ شفتيها، ودهنتْ شعرها وتعطّرتْ، وأزالتْ الشعر الخفيف من ساعديها.. فبدت حقاً غادة فاتنة، لكنّني لم أكن مائلاً إليها.

اِنعزلتُ في غرفتي، وانشغلتُ بكتابة مقالات لعمودي اليومي، ومطاردة غالب زبيطة رئيس تحرير جريدة «النضال» في الفايسبوك بالتعليقات الساخرة، وإضافة صور لنساء قبيحات جدّاً بوصفهنّ العجائز المُتصابيات اللاتي يُموّلن صحيفته. وما كاد الليل ينتصف حتى حظرني، فدخلتُ موقع «تويتر» وواصلتُ القصف المدفعي عليه حتى مطلع الفجر.

الأربعاء (35)

اليوم نهاية الشهر، تلقيتُ رسالة من زوجتي تطلب نقوداً! هذه ليست امرأة طبيعيّة، حتى الفأرة لا تستطيع أن تشمّ رائحة النقود من هذه المسافة! فتحتُ النت، ودخلتُ موقع فايسبوك حيث مررتُ سريعاً. تعالى أذان الظهر فرنّ جرس الجوع في معدتي. فكّرتُ أن آخذ خاتمة ونذهب لتناول سمك «الموفا» في أحد المطاعم.

وجدتها ممدّدة على فراشها، مريضة ودرجة حرارتها مرتفعة. عرضتُ عليها أن أُسعفها للمستشفى فرفضتْ. أحضرتُ ثلجاً ومنشفة، وعملتُ لها كمادات على جبينها، وبعد دقائق تحسّنتْ وهبطتْ درجة حرارتها.

ذهبتُ إلى المطبخ، وقطعتُ خياراً وأضفتُ إليه الملح. تمنّعتْ عن الأكل، وقالت إنّها تشعر بغثيان، توسّلتُ إليها، فوافقتْ على التهام شريحة واحدة. وضعتُ وسائد تحت عنقها ورفعتها قليلاً، أطعمتها ثلاث شرائح، ثمّ طلبتْ سطلاً. أسرعتُ إلى الحمام وأحضرته، فتقيأتْ فيه. ومضى اليوم في تمريضها والعناية بها.

الخميس (34)

نشرتْ جريدة «النضال» المعارضة تقريراً خطيراً عن تورّط محافظ الحُديدة في تجارة زواج الصغيرات، وذكرتْ أنّه يدير شبكة لزواج القاصرات من مليونيرات يمنيّين وعرب. قرأتُ التقرير وقلبي تتسارع نبضاته، أدركتُ أنّ منى هي واحدة من البنات اللائي تحدّث عنهنّ التقرير.. وبما أنّنا في موسم الإجازة الصيفيّة الذي يتوافد فيه الأثرياء العرب للحصول على المتعة الشرعيّة، فقد تسرّب إلى قلبي الشكّ بأنّ الشيخ قد سحب منى من عندي ليُزوّجها بثريّ على مشارف قبره.

هاجمتني الخواطر السوداء، وتخيّلتُ منى في أوضاع جنسيّة مع مليونير هرم ذي جلد مترهّل، فضاقت نفسي وكادت تخرج من حلقومي. ربّما ارتفع ضغط دمي، لأنّني شعرتُ بنشيش يسري في جسمي، وكأنّني سمكة في مقلاة. فكّرتُ بأنّ الحملة الصحافيّة على محافظ الحُديدة هي نوع من ردّ الفعل على هجومنا الضاري على القاضي طاهر الدرّاك.

الحالة الصحّية للآنسة خاتمة لم تتحسّن. أخذتُ لها دواءً مضادّاً للغثيان وآخر خافضاً للحرارة. لم تعد تأكل إلّا إذا أطعمتها بيدي، وكانت تأكل لقيمات بالعدد. أهديتها الهاتف المحمول الذي

كنت قد اشتريته لمنى، حاولتُ رفع معنويّاتها. انشغلتْ به أمداً قصيراً ثمّ تركته جانباً بإهمال. عرضتُ عليها أن أُوصلها بسيّارتي إلى بيت والدها في قريتها، فاعترضتْ بشدّة وبكتْ.

نزلتُ إلى البقالة واشتريتُ لها حلويات تشيبس وأصنافاً كثيرة من البسكويت والكيك. أحبّتْ التشيبس، أكلتْ كمّية منه مع الشطة. كانت تتحسّنُ عندما أبقى بقربها، فإذا غبتُ عنها لشأن من شؤوني لفترة بسيطة أعود لأجدها قد انتكستْ. اضطررتُ هذه الليلة للبيات معها في نفس الفراش، لأنّها أبتْ أن تُفلت يدي.. شعرتُ كأنّها ستفارق الدنيا في تلك الليلة، نمنا وأصابعنا متشابكة.

الجمعة (33)

اهتمام عالمي غير مسبوق بتجارة زواج الصغيرات في اليمن. الخبر الأكثر انتشاراً عن اليمن خلال السنوات الخمس الأخيرة! حتى الأخبار السياسيّة لهذا البلد لم تُحقق نفس الدرجة من الحضور في وسائل الإعلام الدوليّة. لقد حققتْ صحيفة محليّة متواضعة – بضربة حظ غير متوقّعة – نجاحاً كبيراً. أتخيّلُ أنّ رئيس تحريرها غالب زبيطة قد انتفخ ورِكاه من شدّة إعجابه بنفسه، وراح يمشي مختالاً وضراطه يُفرقع في ذقون أعدائه.

ما تزال خاتمة مريضة، تشكو من الصداع والقيء وارتفاع درجة حرارتها. قرّرتُ في نفسي أن أُسعفها غداً إلى المستشفى ولو غصباً عنها.

خرجتُ بعد صلاة الجمعة واشتريتُ غداءً جاهزاً، وقاتاً وسجائر وجرائد اليوم وكرتون بفك. شرّبتها مَرَقاً عصرتُ فيه ليموناً، وأطعمتها بضع ملاعق من الأرزّ وقطعة لحم صغيرة بحجم الظفر ثمّ أغلقتْ فمها. لم ترض أن تردّ على توسّلاتي ولا حتّى بكلمة. كانت تطرفُ بعينيها وكأنّها لا تسمعني.

تغدّيتُ حتى شبعت، ثمّ أعطيتها الدواء. أحضرتُ الجرائد واتّكأتُ بجوارها. كانت تغفو ثمّ تصحو، ونَفَسُها يتحشرجُ أحياناً.

اتّصل رئيس التحرير رياض الكيّاد، وبدا من صوته أنّه مُنزعج وأعصابه فائرة:

– علينا أن نقوم بحملة صحافيّة مُضادّة لإنقاذ سمعة المحافظ.

– ماذا تقترحون؟

– اذهب صباح الغد إلى المحافظ واعمل معه لقاءً صحافيّاً، وركّز على أن يكذّب الأخبار المتداولة عنه.

– تمام.

– ويوم الأحد أريدك أن تقوم بعمل ريبورتاج طويل جداً عن منجزات المحافظ، وكيف أصبحت مدينة الحُديدة لؤلؤة البحر الأحمر في عهده.. سننشر الريبورتاج في أربع صفحات ملوّنة.

– انتظر إنّني أُدوّن.

– ويوم الاثنين قم باستطلاع للرأي العام يشمل مختلف الشرائح الاجتماعية عن رأيهم في المحافظ.. أريد مديحاً يُعيدُ لهذا الرجل كرامته واعتباره.. لا تنس أنّه من رجال الرئيس المخلصين، وعلينا أن نُقاتل بأسناننا لإخراجه من الأزمة.

– مفهوم.

– أرجوك لا تخذلني.

أغلق الخطّ وأنا مُندهش من تغيّر لهجته، للمرّة الأولى منذ اشتغلتُ عنده يستخدم كلمة «أرجوك» في مخاطبتي. يبدو أنّ الأمر جلل، وربّما خرج للمرّة الأولى عن نطاق السيطرة!

صحتْ خاتمة وهي تتأوّه. استفسرتُ منها بماذا تُحسّ، فقالت إنّها تُعاني من صداع. قلت لها إنّني سأنزل إلى الصيدليّة وأُحضر لها «بانادول».

اشتريتُ شريطاً وأعطيتها حبّة، ولكنّها لم تتحسّن. اقترحتُ عليها أن نذهب إلى أيّ عيادة مناوبة، ولكنّها رفضتْ. طلبتْ منّي أن أسندها لتتفرّج على البحر من النافذة. ساعدتها على الوقوف ومشت مُتّكئة عليّ. عندما وقفنا عند النافذة بدا كأنّها غير قادرة على الوقوف، فأدخلتُ يديّ من تحت ذراعيها وأسندتها بجسدي لأبقيها واقفة، ألقتْ بثقل جسدها عليّ وتأوّهتْ.. كانت رغبتها مُستعرة، وعلى وشك أن تذوب بين يديّ كالزبدة. رفعتها عن الأرض وحملتها إلى الفراش، وأعطيتها من الدواء الذي يشفي القلوب العليلة، واستمرّت الجرعات من العصر حتى بزوغ الضوء الأول للنهار... وأستطيع القول إنّها قد شُفيتْ تماماً، ولو سُمح لها بأن تُشارك في سباق للجري لأحرزتْ ميداليّة أولمبيّة!

السبت (32)

أجريتُ اللقاء الصحافي مع المحافظ حمزة شعيل بعد نهاية الدوام. بدا لي شخصاً طيّباً، بل وحتى مسكيناً، وأنا شخصيّاً اقتنعتُ بأن لا علاقة له من قريب أو بعيد بتجارة زواج الصغيرات. كان يحفظ الكثير من الشعر، واستشهد في حواري معه عدّة مرّات بأبيات شعريّة. هو ينتمي إلى قبيلة مشهورة ببسالتها في الحروب، وميلها إلى التمرّد على الحكومة المركزيّة، لذا يتوقّع المرء أن يرى رجلاً تهتزّ الأرض تحت قدميه، ولكنّه كان على العكس من تلك الصورة التي رسمتها في خيالي عنه.. رجلاً رزيناً مثقفاً، ووديعاً كحمامة.

عدتُ إلى الشقة عصراً، وجهّزت الحوار في وقت قياسي وأرسلته. بعد ذلك لم أجد وقتاً للجرائد ولا للقنوات الفضائية ولا حتى لإطلالة سريعة على الفايسبوك، إذ ناوشتني غزالة تقتل بمسكها الفوّاح، فقاتلتها بالرمح حتى لاح الصباح.

الأحد (31)

وافقتُ على أن نغتسل معاً، لأول مرّة يقوم أحد ما بتلييفي. إنّها بارعة جدّاً في هذا الأمر أيضاً. أخذتها معي في جولة على مدينة الحُديدة. وصوّرتُ الحدائق والمتنزّهات، والشوارع المُسفلتة والمدارس والمستشفيات، والمراكز التجارية والجامعة، والميناء البحري، والكورنيش والمطار.

تغدّينا في مطعم يُقدّم سمك «الموفا» مع الخبز الملوّح. قالت خاتمة إنّها ترغبُ في الآيس كريم، فذهبنا إلى شارع المطراق، وطلبنا أصنافاً جديدة لم نتذوّقها في المرّة السابقة. انتهزتُ الفرصة والتقطتُ صوراً كثيرة للشارع التجاري الأكثر شهرة في المدينة.

قصدنا شاطئاً نائياً، قلت لخاتمة إنّني سأبقى بداخل السيّارة لأشتغل، واقترحتُ عليها أن تسبح. قالت إنّها لا تعرف السباحة، ولكنّها ستنزل في البحر إلى خصرها لتلعب بالماء. أنجزتُ خلال ساعتين كتابة الريبورتاج عن مدينة الحُديدة، ونسبتُ كلّ شيء لسيادة المحافظ. وبعد مراجعة سريعة واختيار الصور، أرسلتُ المادّة للجريدة.

كانت الشمس قد غربت، وأخذ الظلام بالاندفاع إلى الأمام، ناطحاً بقرنيه فلول النهار، وفي عينيه غضب وانتقام. ضغطتُ على بوق السيّارة، فعادتْ خاتمة مُسرعة وملابسها مبلولة. كانت سعيدة جدّاً وتتقافز من الفرح. قالت إنّها المرّة الأولى في حياتها التي تنزل فيها للبحر! وضعتُ تحتها بطانية، وانطلقنا عائدين إلى الشقة.

كنّا نشعر بشوق عارم بعضنا لبعض، كلّ سنتيمتر في بشرة الواحد منّا كان متلهّفاً للالتحام بنظيره في بشرة الآخر.

الاثنين (30)

اشتريتُ قميصاً رجالياً وبنطلوناً على مقاس خاتمة، وقبّعة عريضة الحواف مصنوعة من سعف النخل، وعلّمتها كيفيّة استخدام الكاميرا. كان صدرها ممسوحاً كولد، وهذا ساعد في أن تنزل معي إلى الشوارع مُتنكّرة في زيّ صبيّ.

كنت أختار الناس عشوائيّاً، وأُوجّـه إليهم الأسئلة، وتقوم خاتمة بمهمّة التصوير. شكّلنا ثنائياً رائعاً، وأنجزنا العمل ونحن نشعرُ بالنشاط والحيوية، والضحكات تتدفّقُ منّا كماء من النبع.

رجعنا إلى الشقة وقد غسلتنا أشعّة الشمس المتنمّرة بالعرق. دفعتني إلى الحمّام، ودعكتْ جسمي بالصابون، وطوال الوقت لم تكفّ عن تقبيلي، كانت مُفعمة بالسعادة، ومسحورة بتجربتها الميدانيّة كصحافيّة. لقد أثارتْ فيها مزيجاً من النشوة والغبطة لم يسبق لها أن أحسّت بمثله، فلم تعد تعرف كيف تشكرني أو تُعبّر عن امتنانها لي.

الثلاثاء (29)

صحونا على كارثة... أصدر البرلمان الأوروبي بياناً عن اليمن يُدينُ زواج القاصرات، ويدعو الحكومة اليمنيّة إلى سنّ تشريعات تُحدّد السنّ الأدنى للزواج بثمانية عشر عاماً.

اتّصل رئيس التحرير وطلب منّي أن أكتب سلسلة مقالات لعمودي اليومي تُدافع عن القيم الأخلاقيّة للمجتمع اليمني المحافظ. قال إنّ الصحافة الحكوميّة في حالة استنفار قصوى، وإنّ جميع الأقلام مُسخّرة للدفاع عن الدستور اليمني والسيادة الوطنيّة.

الأربعاء (28)

صـدرتْ اليوم حزمة من الـقـرارات الجمهوريّة، منها إقالة محافظ الحُديدة حمزة شعيل، وتعيين الأستاذ جابر شنيني مكانه.

كذلك صدر قرار بإيقاف القاضي طاهر الدرّاك عن مزاولة عمله وإحالته إلى الهيئة العليا لمكافحة الفساد، وتعيين القاضي مقداد العدّاد رئيساً لمحكمة الجروم.

هـذا بالإضافة إلى قـرارات أخـرى كثيرة شملت العديد من القضاة والمحافظين.

قمنا بحملة إعلاميّة ضخمة لإقناع سفراء دول الاتحاد الأوروبي بأنّ التغييرات تأتي استجابة لبيان برلمان الاتحاد الأوروبـي، وبأنّ اليمن ماضية في طريق التحضّر والـمـدنـيّة، والـحـدّ مـن الـعـادات والتقاليد الهمجيّة. ماذا نفعل.. كان علينا الانحناء للعاصفة ريثما تمرّ، فهذه الدول تمنح اليمن الكثير من القروض والمساعدات التي لا غنى عنها لاقتصادنا.

بعدما أنهيتُ أشغالي، خرجتُ ليلاً إلى البحر ومعي خاتمة، لأعلّمها السباحة كما وعدتها. قضينا ليلة من أمتع ليالي العمر، وأشبعتها تماماً.

الخميس (27)

تم دور التسليم والتسلّم بين المحافظ الجديد والمحافظ السابق في الصباح. وحضرتُ أنا إلى مبنى المحافظة بعد الظهر للسلام على صديقي الأستاذ جابر شنيني وتهنئته.

عندما رآني أدخل مكتبه قفز من كرسيّه وهبّ لمعانقتي والسرور يطفح من وجهه. كان يرتدي بذلة سوداء غالية الثمن، أنيقة جداً، وربطة عنق حمراء أضفتْ عليه الفخامة المطلوبة لملء المنصب. أنْهَضَ موظفاً كان جالساً على الكرسيّ القريب لمكتبه وأجلسني مكانه، وطلب أن يُحضروا لي مشروباً بارداً. قعد على كرسيّه الوثير وراح يدور يميناً ويساراً كطفل مبسوط بألعابه. بخفّة يد دسّ حفنة من النشوق الأسود تحت شفته السفلى فاسترخى وتحسّن مزاجه على الفور وابتسم ابتسامة واسعة.

قلت له مازحاً:

– أنا أطلب منك حق الولاية.

– كيف؟

– لو لم أنزل من صنعاء وأقلب الساحل رأساً على عقب بمقالاتي الصحافية لما صرت محافظاً.

– وأنا أطلب منك حق الشماية (يقصد السِماية).

– كيف؟

– أمش كان يوم شعدي، فقد عُيّنتُ محافظاً وأنجبتْ زوجتي ولداً شمّيته مُطَهَّر على اشمك يا أشتاذ.

– ألف مبروك، هذا الولد قدم السعد عليك إن شاء الله.

– وأنت أيضاً قدم الشعد عليّ يا أشتاذ، فأنا أمضيتُ عشرين عاماً في التعاونيّات والمجالش المحليّة، وكنت قد يئشتُ من نيل أيّ ترقية.

خرجتُ من عنده وقد نقل إليّ عدوى شنشنته، فصرت أقلب السين شيناً، وما عدت قادراً على إصلاح اعوجاج لشاني!

الجمعة (26)

انقطع التيّار الكهربائي وتوقّف المكيّف، فسخنت الغرفة بسرعة، وأفقتُ من النوم أتخبّطُ في عرقي. كانت صلاة الجمعة قد انقضتْ، والساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد الظهر. تلمّستُ خاتمة التي أمستْ تُشاركني سرير النوم، لقيتها يقظى ومتوثّبة.. يبدو أنّها استيقظتْ قبلي قبل مدّة واحترق قلبها لهفة.. لم أُخيّب أشواقها وأخذتها.

اتّصل رئيس التحرير وطلب منّي أن أحضر إليه على الفور! استغربتُ طلبه، شرح قائلاً إنّه في مدينة الحُديدة، في فندق «الثريّا»، وأغلق الخطّ.

كانت دهشتي كبيرة. حتى يترك رجلٌ مهمّ يهابه الوزراء مثل رياض الكيّاد قلعة النسور وينزل شخصيّاً إلى الساحل، فهذا يعني أنّ الأمور قد ساءت وخرجت عن السيطرة تماماً. انتابني قلق وتوقّعات سلبيّة... تجهزتُ للخروج وأنا مُشوّش، أخبرتُ خاتمة أنّ عندي عملاً طارئاً وقد أتأخّر، أحضرتُ مقصّاً صغيراً وشذّبتُ شاربي، ثمّ مسحت جزمتي، ولحقتْ بي إلى الدرج لتناولني مفاتيح السيّارة التي كنت قد نسيتها، وسحبتْ زمام البنطلون الذي غفلتُ عنه وتركته مفتوحاً!

قدت سيّارتي باتّجاه الفندق، وأنا أتذكّر أيّامي القصيرة السعيدة مع منى في الغرفة 307. دخلتُ إلى البهو وطلبتُ من الموظف أن يتّصل، فسألني عن اسمي، أخبرته، نظر في ورقة أمامه ثمّ طلب منّي الصعود إلى الجناح 505.

تلقّاني رياض الكيّاد بالأحضان. أجلسني إلى طاولة عليها قارورة ويسكي وكأس ممتلئة إلى ربعها وكمبيوتر محمول. سألني إن كنت جائعاً، فقلت نعم، فرفع سمّاعة الهاتف الداخلي وطلب غداءً إلى الجناح. طلب أطباقاً كثيرة.

انتبهتُ إلى صوت جهاز مجفّف شعر ينبعثُ من الحمّام المغلق. عندما لمحني رياض الكيّاد ولاحظ حاجبي الأيسر المرفوع وبصري المُثبّت على باب الحمّام، أطلق نحنحة عالية، وكأنّه يُنبّه من بداخل الحمّام إلى حضوري.

قعد وحدّق في وجهي ثمّ انفجر مقهقهاً. زويتُ حاجبيّ وسألته ما الذي يُضحكه، قال وهو يُدخلُ أصبعه الصغير في منخره: «الظاهر أنّ أمّك تدعو لك... لأنّك غداً ستدخل عالم الكبار». انحنيتُ في جلستي كالقطّ: «يا رجل أنا راضٍ بوضعي». فُتح باب الحمّام، وخرجتْ منه شابّة جميلة أصغر منّي بعامين أو ثلاثة، بشرتها بلون الزبدة، نهداها كبيران، وبطنها بارز للأمام بكرش ملمومة مرنة كالجيلي. عندما رأتني ندّت عنها شهقة، وعادت أدراجها إلى الحمّام، وطلبتْ من «الأستاذ» بصوت خفيض أن يُناولها ملابسها. قال «الأستاذ» بوقار: «عن إذنك». ثمّ ذهب وناولها ملابسها من وراء الباب الموارب. قلت وكأنّني أُكلّم نفسي: «أوه إنّها امرأة». ضحك رياض الكيّاد: «أكنت تحسب أنّني شاذّ يا حقير هاها!».

أبعد الكمبيوتر المحمول، وأحضر قدحين إضافيّين، وسكب شراباً في كلّ منهما، وأضاف قدراً إلى كأسه، ثمّ أخرج من ثلّاجة صغيرة قصعة فيها مكعّبات ثلج ووضعها على الطاولة.

خرجت المرأة من الحمّام وهي ترتدي تنّورة حمراء وبلوزة بيضاء، قدّمها إليّ قائلاً: «فتحيّة مرشد». وقفتُ، فمدّت يدها وصافحتني. تابع مُعرفاً بي: «الأستاذ مُطَهَّر فضل، مديرك الجديد إن شاء الله». اتّسعت ابتسامتها، ولاح من عينيها بريق إعجاب جعل شعر جسمي كلّه يقف. طلب منّا أن نجلس وأن نكفّ عن الرسميّات غامزاً بعينه! كان الفضول قد نهش قلبي فسألته عن الموضوع. قرّب رأسه موحياً بأنّه يُفشي سرّاً، ففاحتْ منه رائحة الويسكي: «عندنا أوامر بالاستيلاء على صحيفة النضال». فوجئتُ وعقدت الدهشة لساني. تابع ورؤوسنا نحن الثلاثة تتقارب: «تقضي الخطّة بأن يدهم الأمن مقرّ الصحيفة الساعة العاشرة ليلاً، ويعتقل جميع العاملين فيها من البوّاب إلى رئيس التحرير، ثمّ يحلّ محلّهم الطاقم الصحافي البديل.. طبعاً سيصدر عدد الغد وكأنّ شيئاً لم يتغيّر». صفرتُ وأنا أشعر بأنّ الدنيا تدور بي: «هل ستجري العملية الليلة؟». جحظتْ عينا رياض الكيّاد: «الليلة، وأنت يا مُطَهَّر ستصير رئيساً للتحرير». ابتلعتُ ريقي، وأدركتُ أنّني مُقدم على خطوة مصيريّة، لا يمكن الآن حُسبان عواقبها المستقبليّة. وضع يده على ظهر فتحيّة وابتسم: «والزميلة العزيزة فتحيّة ستعمل تحت قيادتك». سألتها وعيناي تنزلقان رغماً عنّي إلى منبت نهديها: «هل أنتِ خرّيجة كليّة الإعلام؟». ردّتْ ضاحكة: «لا، أنا أحمل دبلوم كمبيوتر، يمكنني أن أقوم بأعمال الصف والإخراج الفنّي». قلت وأنا أحكّ ذقني: «جيّد.. سنحتاج إليكِ أكثر من أيّ شخص آخر». ربّت رياض الكيّاد كتفي: «بديع.. هذه هي اللهجة التي أُحبُّ أن أسمعها منك.. لهجة رئيس التحرير!».

قاطعنا طرق على الباب، أدخل النادل عربة الطعام، ووضع الصحون وأدوات المائدة على طاولتنا ثمّ خرج.

رحتُ آكل بصمت مفكّراً في الاعتذار عن المشاركة في العمليّة.. كنت أشعر كأنّني في مستنقع، وكلّ خطوة تجعلني أتورّط أكثر فأكثر في الصراع المُميت بين السلطة والمعارضة. كان رياض الكيّاد يتبادل حواراً ثنائياً دون كلفة مع فتحيّة.

فجأة قطع رياض الكيّاد حديثه مع فتحيّة وخاطبني: «الساعة السادسة سيحضر إلى هنا الشباب، نصف ساعة تعارف ثمّ تنزلون إلى القاعة في الأسفل، علينا أن نُعدّ موادّ العدد خلال الساعات الثلاث المقبلة، وبعد ذلك ستتحرّكون جميعاً إلى مقرّ الصحيفة».

قامت فتحيّة لتغسل يديها، انحنيتُ وتكلّمتُ بصوت هامس: «بصراحة يا أستاذ رياض، أنا أرى أنّ هذا العمل لا يُناسبني». تغيّرتْ سحنته وظهر الغضب في حملقة عينيه وانتفاخ عروق وجهه: «اخرس.. الخطّة كلها مبنيّة على أساس وجودك فيها.. كن رجلاً ودع هذا الضعف للنساء.. نحن نقدّم لك فرصة العمر أيّها المنيو...». لم يترك لي مجالاً للدفاع عن وجهة نظري فلزمتُ الصمت. كانت لديه قدرة غريبة على ضبط أعصابه، إذ فجأة اختفى الوجه العابس المخيف، وحلّ محلّه وجه أليف بشوش.. قال بلهجة ودودة: «يا ابني سوف تحصل على راتب شهري قدره خمسة آلاف دولار.. هذا غير الحوافز والمكافآت». شعرتُ بأنّني أطير بين السحاب، كان رقماً فلكيّاً مقارنة براتبي الحالي الذي لا يزيد عن مئتي دولار شهريّاً. قال وهو يُحدّق في عينيّ: «ستقلعُ طائرتي عند الثامنة، أتمنّى أن أسمع منك أخباراً طيّبة يا بنيّ».

انضمّتْ إلينا فتحيّة وتبارينا في إلقاء النكات، ودقّ الكؤوس، فأشرقت صدورنا وسالت البهجة من أطراف بناننا.

الساعة السادسة إلّا خمس دقائق، أخفى رياض الكيّاد قارورة الويسكي - الفارغة - والأقداح بعيداً عن الأنظار، ووضعتْ فتحيّة الحجاب على رأسها.

بعد دقائق بدأ الشباب بالتوافد. تعرّفتُ إلى شريف الذي سيشغل موقع مدير التحرير، وهو شابّ نحيل ذو شعر ملفوف كصوف الخروف ويعاني من عرج خفيف لا يكاد يُلحظ، ولولا العكّاز التي يحملها لما انتبه أحد إلى عرجه. لم أشعر بنفسي مرتاحاً إليه.. فيه شيء عصيّ على الهضم، نظراته غير مستقرّة، وتأخذ زوايا حادّة عندما يُحدّق، وجهه يعكس أنّه صاحب شخصيّة عصبيّة. وعلى العكس منه شعرتُ بشيء من الاستلطاف نحو نور الذي كان يضع على رأسه قبّعة مُسطّحة للحماية من أشعّة الشمس، وحزرتُ من تقاسيم وجهه أنّه يحمل موهبة فنّية أو أدبيّة. كان من المقرّر أن يشغل هذا الشابّ موقع سكرتير التحرير، أي إنّ معظم عبء العمل سيقع على زنديه. الخمسة الباقون سيعملون محرّرين لصفحات الأخبار المحليّة والدوليّة والتحقيقات والرياضة والمنوّعات. كانت أعمارهم تراوح ما بين السابعة عشرة والثامنة والعشرين. وباستثناء شريف الذي كان يعمل مُراسلاً لعدّة صحف محليّة، فإنّ البقيّة كانوا مجرّد هواة لا خبرة سابقة لهم في العمل الصحافي.

تأملتُ الطاقم الصحافي الذي سأعمل معه، ومن ضمنهم فتحيّة، وعملتُ في ذهني تقييماً سريعاً لمستويات ذكائهم وأنماط سلوكهم. بدا بعضهم طيّباً سهل المعشر، والبعض الآخر وصوليّاً يريد الاستحواذ على الاهتمام ولفت الأنظار إليه...

تجاوزنا الوقت المحدّد، وأشارت الساعة إلى السابعة وبضع دقائق، فطردنا رياض الكيّاد من غرفته وهو يقهقه. نزل الشباب بالمصعد إلى الدور الأرضي، ووقفتُ أنا عند الباب لأودّع رئيسي،

نظرتُ إلى فتحيّة التي كانت تقفُ في الداخل، قالت وكأنّها تلميذة تطلب الإذن للتغيّب عن الحصّة: «سألحقُ بكم بعد قليل». صافحتُ رياض الكيّاد وتمنّيتُ له الوصول بالسلامة. استدرتُ وأنا أهمّ بالاتّجاه صوب المصعد، فإذا به يُمسكني من ذراعي ويهمس في أذني: «الرجل كلّما تقدّم في السنّ ازدادتْ رغبته فيهنّ!». ضحكتُ وغمزتُ له بعيني ثمّ مضيت.

أحضرتُ كمبيوتري المحمول من السيّارة، وهرولتُ إلى القاعة. كانت قاعة فخمة تتّسعُ لمئة وخمسين شخصاً. تحلّق الشباب حول مائدة مستديرة – أُعدّت مُسبقاً – وكان فوق كرسيّي الشاغر شنطة سوداء، وعلى الطاولة قلم ودفتر. سلّمتُ عليهم، وتفحّصتُ حقيبتي مُفكّراً في المحامي حمّود شنطة الذي سيزداد حقده عليّ عندما يعرف أنّني قد حصلتُ على واحدة جديدة. علّق شريف مازحاً: «لا تخف، لم يُبدّل أيّ واحد منّا حقيبته بحقيبتك!». كان الوحيد الذي ضحك من مزحته السمجة ولم يُشاركه أحد. رمقته بنظرة جادّة. عندما ضحك توتّرتْ عضلاتُ وجهه فبدا شبيهاً بالضُّغْبُوس. في وسط الطاولة وضعوا لنا «البيتي فور» وعصير الأناناس والبرتقال. وفّرتْ لنا إدارة الفندق على طاولة مجاورة كمبيوتراً مكتبيّاً متّصلاً بآلة طابعة.

ناقشنا ترويسة الجريدة وتبويبها وإخراجها الفنّي، واتّفقنا على أن نُبقي كلّ شيء على حاله لكي لا يشعر القارئ بالتغيير في هيئة التحرير. ثمّ وزعتُ المهامّ عليهم وبدأنا العمل.

الساعة الثامنة إلّا ربعاً انضمّتْ إلينا فتحيّة. كانت تتهادى في سيرها بدلال وغنج أنثوي مثير، ومنحتني تلك النظرة التي تعني بلغة العيون: «كلّ ذرّة في جسمي تهفو إليك».

مرّتْ الساعات الثلاث كبخّة عطر ولم ننجز شيئاً يُذكر. كانت فتحيّة تصُفُّ الهُراء الذي يكتبه الشبّان وتطبعه وتمرّره إليّ. كان العمل

معهم كابوساً، وفكّرتُ أنّهم سيحتاجون إلى عام كامل من التدريب لكي يكون بمستطاعهم تحرير مادّة صحافيّة يستسيغها القارئ دون أن تُسبّب له إسهالاً. كان من المفترض أن ننتظر في الفندق حتّى نتلقّى اتّصالاً يطلب منّا المجيء لتسلّم مقرّ الصحيفة، لكنّي شعرتُ بنوع من الإثارة، وأيضاً الفضول، لرؤية ذلك الهيبي المُبرقش غالب زبيطة وهو يُجرجر من أنفه. نظرتُ في ساعتي وصفّقت طالباً منهم التأهّب للمغادرة. انتظرنا حتى سحبت فتحيّة الموادّ التي صفتها إلى ذاكرة الفلاش ثمّ انطلقنا. جلستُ فتحيّة في المقعد الأمامي، وانحشر الشباب في المقعد والصندوق الخلفي للسيّارة. تحرّكنا ونحن نشعر بالحماسة، وكان شريف يُطلق التعليقات الساخرة من غالب زبيطة وشلّته ويتوقع لهم حفلة ترحيب ساخنة في الأمن.

وصلنا إلى الشارع الذي يقع فيه المقرّ، وتوقفتُ على بعد خمسين متراً. كانت هناك سيّارة شرطة تويوتا هايلوكس صندوقها مُقفّص ومغطّى بقماش سميك واقفة أمام مدخل العمارة، وثلاث سيّارات أخرى بدون لوحات، ومجموعة من العسكر المسلّحين بالبنادق الآليّة كانوا يشكّلون طوقاً أمنيّاً.

طلبتُ من الشباب البقاء في أماكنهم، ونزلتُ وحدي. تجمهر عدد من سكّان الحيّ محاولين استطلاع الأمر، فاختلطتُ بهم ووقفتُ أتفرّج. سمعنا صياحاً وضجّة، وبعد قليل نزل الجنود وهم يُجرجرون أربعة رجال بصعوبة، كانوا يُقاومون الاعتقال ويشتمون، ما عدا واحداً منهم كان يبكي ويسترحمهم راجياً إطلاق سراحه. أصعدوهم إلى الصندوق وشهر الجنود البنادق في وجوههم ليهدأوا ويكفّوا عن إقلاق السكينة العامة.

ثمّ ظهر أخيراً غالب زبيطة مخفوراً بجنديّين، وخلفه ضابط بزيّ مدني. ركّزتُ على وجهه متوقعاً أن يكون شاحباً ومنقلباً من الرعب،

ولكنّه بدا هادئاً كبركة ساكنة. حسدته على قوّة أعصابه ولامبالاته بالاعتقال.. صعد بشموخ إلى الصندوق دون دفع من أحد، وجلس مع رفاقه، لمحني بين الحشد فرفّت على شفتيه ابتسامة هازئة. لا شكّ في أنّه رجل حديدي يملك قدرة لا مثيل لها على تحمّل المصائب. فتنتني شجاعته وتجلّده في مواجهة المصاعب، فتبدّلتْ مشاعري نحوه من النقيض إلى النقيض، وصرتُ أحترمه وأكنُّ له الإعجاب.

ابتعدتْ سيّارة الشرطة، وبقيت السيّارات الأخرى، وحفنة من الضبّاط المدنيّين المسلّحين بمسدّسات تحت معاطفهم. انبجس فجأة من بين الظلام شخص ما وصافحني بحرارة قائلاً: «مبروك عليكم الصحيفة يا أستاذ». حدّقتُ فيه مليّاً وتذكرته، لقد كان مدير فرع الاستخبارات شخصيّاً.

السبت (25)

مكثنا في المقرّ إلى أن وصلتنا النسخ الأولى من العدد. تسلّمتُ المفتاح الجديد للمقرّ، وجرى تبديل الحراسة وقت خروجنا، أي في حوالى الساعة السابعة صباحاً. كلّفتُ نور سكرتير التحرير بالسفر فوراً إلى الجروم لتغطية جلسة المحاكمة الثانية في قضيّة جليلة. دعاني الشباب للإفطار في محلّ قريب يقدّم فول الجرّة مع التميس، فاعتذرتُ لهم وقلت إنّني قد طلّقتُ الفول ثلاثاً! ضحك الشباب باستثناء شريف الذي علّق ساخراً: «بهذه السرعة.. ومن أول ليلة!». ضحكنا جميعاً، كنّا سعداء ونضحك من أيّ شيء.

أوصلتُ فتحيّة إلى منزلها، كانت متعبة، وقالت إنّ يومها كان طويلاً للغاية ومزدحماً بالعمل! كانت تسكن في حيّ فقير جدّاً، والبيت الذي خلّفه لها والدها المتوفّى كان شعبيّاً، ومكوّناً من غرفتين وحمّام ومطبخ. كانت بكر أبيها، وهي التي تعول أسرتها منذ وفاته. قمتُ بمناورة لكي تنزل من السيّارة إلى عتبة بيتهم مباشرة، لأنّ المجاري كانت طافحة، والشارع صار بحيرة. لا أعرف كيف تستطيع الدخول والخروج من هذا البيت الذي يحتاج إلى زورق! لوّحتُ لها مودعاً، وظهر أشقّاؤها الصغار تتطاول رؤوسهم لرؤية السيّارة الفخمة التي

نزلت منها أختهم. خرجتْ من بين أضلاعي تنهيدة طويلة، وفكّرتُ في التمزّق النفسي الذي تمرّ به فتحيّة.. فهي قد قضت لتوّها ساعات في جناح فاخر بفندق خمس نجوم، وذاقتْ نعيم الحياة المُرفّهة، وها هي الآن تعود إلى الفقر المدقع... أيّ إنسان يستطيع أن يتحمّل هذا؟! فكّرتُ أنّ فتحيّة المرحة اللطيفة التي لا تفارق الابتسامة شفتيها هي ضحيّة العيش بين عالمين متناقضين، وأنّ في داخلها حزناً لا تتّسعُ له بحار العالم.

قمتُ بجولة على المكتبات، وتأكّدتُ من أنّ توزيع جريدة «النضال» يسير بصورة روتينيّة. كان الناس يشترون جريدتنا دون أن يرتابوا في شيء. وبحسب الخطّة، نزل العدد إلى الأسواق بأسماء هيئة التحرير السابقة.

رجعتُ إلى الشقة عند الساعة التاسعة صباحاً. كانت خاتمة نائمة، فخمّنتُ أنّها ظلّتْ طوال الليل ساهرة في انتظار عودتي. تمدّدتُ بهدوء بجوارها محاولاً كبت الصرير اللعين الذي يصدر عن خشب السرير. من شدّة الإرهاق لم أُبدّل ملابسي، آخر فكرة خطرتْ ببالي قبل أن يدهمني النوم هي أنّني حقّقتُ حلمي وصرتُ رئيس تحرير صحيفة، ولكنّ تحقيق الأمنية كان مُنغّصاً، يشبه الحصول على المتعة من الطرف الآخر بالإكراه.

صحوتُ عند الرابعة عصراً. تفقّدتُ هاتفي فلم أجده، ناديتُ على خاتمة فجاءتني به، قالت إنّها أبعدته عنّي لكي لا يُقلق نومي. وجدتُ عشرات المكالمات الفائتة. خاتمة معها حق، يبدو أنّه لم يكفّ عن الرنين. وجدتُ مكالمات من رياض الكيّاد، والمحامي حمّود شنطة، وزميلي الجديد شريف. ويا للمفاجأة، مكالمة من زوجتي! اتّصلتُ أولاً بها. فتحت الخط وشتمتني دون مقدّمات، لم تقل حتى كلمة «ألو» المعتادة. قالت إنّ القنوات الفضائيّة قد عزّرتْ

بي، وأنّ ملايين البشر يعتقدون أنّني التجسيد الحيّ لذيل الشيطان. وقبل أن تُغلق الخط في وجهي طلبتْ أن أرسل لها مصروف الأولاد! تركتني مصدوماً والذهول مرتسم على وجهي.

دخلتْ خاتمة وسألتني إن كنت جائعاً، فطلبتُ منها أن تُحضر لي سندوتش فاصوليا وكوب شاي أحمر. شغلت كمبيوتري المحمول ودخلتُ الشبكة، كانت فضيحة لا أول لها ولا آخر.. وسائل الإعلام كشفتْ كلّ شيء، وكأنّهم كانوا حاضرين معنا الليلة الماضية. فكّرتُ أنّ اكتشاف ما حدث أمس – وأنا الصحافي العارف بدهاليز الصحافة – يحتاج إلى وقت معقول في الأحوال العاديّة. ولم يكن هناك سوى احتمال وحيد، وهو أنّ واحداً من مجموعتنا سرّب المعلومات إلى مراسلي وكالات الأنباء وقبض أجراً...

قادني تفكيري إلى الشك في شريف الرجل الأقرب إلى شغل موقعي إذا ما غرقت مراكبي واضطررتُ للاستقالة.. ولكن يمكن أيضاً أن يفعلها أيّ واحد من الشباب مدفوعاً بالطموح والرغبة في الصعود السريع.. أو لعلّ بيننا واحداً لا تزال عنده رواسب من الميول اليساريّة. استبعدتُ فتحيّة لأنّني متأكّد – ونظرتي في النساء لا تخيب أبداً – من أنّها تكاد تطير من الفرح لاختيارها للعمل معي، وليس من مصلحتها في شيء إحراق اسمي وتلويث سمعتي.

اتّصل شريف وأنا أفكّر به، كان غاضباً ويتكلّم بحدّة، واتّهم نور سكرتير التحرير صراحة بأنّه هو من سرّب أنباء اعتقال غالب زبيطة وشركائه وحلولنا مكانهم. هدّأته وقلت له إنّنا سنعقد اجتماعاً في مقرّ الصحيفة بعد ساعة، طالبته بالالتزام بآداب الحوار وعدم الانفعال، وعدم إلقاء التهم جزافاً.

اتّصلتُ بالأستاذ رياض الكيّاد الذي بارك لي نجاح العمليّة، وهوّن عليّ الضجّة الإعلاميّة، قائلًا إنّها مجرّد زوبعة في فنجان وستهدأ

بعد أيّام.. أعطاني إذناً بنشر أسماء هيئة التحرير الجديدة، قال إنّه لم يعد ثمّة داعٍ للتمويه.

التهمتُ سندوتش الفاصوليا وأنا أتحضّر للخروج وأرتدي ملابسي. ودّعتُ خاتمة بقبلة طويلة، وقلت لها بما يُشبه الاعتذار إنّني مشغول جداً.

عند باب العمارة وجدتُ عدّة نسخ من جريدة «النضال» مكوّرة وممزّقة، كانت إشارة تحذير.. ممّن؟؟ لا أعرف. مؤكّد أنّ هناك من يحوم حولي ويريد أن يُوصل لي رسالة معيّنة. تلفّتُ، لم أجد سيّارة يُوحي منظرها بالريبة.

اتّصلتُ بفتحيّة وطلبتُ منها إبلاغ جميع الشباب بسرعة الحضور إلى مقرّ الصحيفة. على الطريق اشتريتُ قاتاً وسجائر وجرائد اليوم.

وجدتُ نور قد سبقني – فتح له العسكر – كان مُتّكئاً يُخزّن القات في مقيل الصحيفة. سلّمني التحقيقات التي كتبها عن مجريات قضيّتيْ جليلة ومحسنة. في قضيّة جليلة أصدر قاضي محكمة الجروم قراراً ببطلان الكشف الطبّي الذي أجرته الطبيبة الروسيّة تاتيانا، نظراً لسجلّها الجنائي غير النظيف وفقدانها الأهليّة، كما أصدر قراراً بتكليف طبيبة يمنيّة – اختارها مستشفى الجروم – لإعادة الكشف الطبّي على الطفلة جليلة، كما أصدر قراراً بتكليف طبيب – بنظر مدير مستشفى الجروم – لإجراء الفحص الطبّي على الشيخ بكري حسن!

وفي النيابة تواصلت التحقيقات في القضيّة المرفوعة ضدّ الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي، وأصدر وكيل النيابة أمراً بإجراء فحص طبّي للبنت محسنة، التي زعمتْ منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات أنّها قد ماتت نتيجة دخول زوجها عليها.

حصل نور أيضاً على تصريح صحافي من هادي زهير – جدّ جليلة – قال فيه إنّه يرفض إعادة الكشف الطبّي الجديد نظراً لمرور أكثر من شهر وعشرة أيّام على الحادثة، وإنّه مُتمسّك بتقرير الطبيبة الروسيّة الذي أثبت الحالة وقت وقوعها. وحصل على تصريح صحافي من المحامي شعيب العجيل الذي كان يترافع عن الناشطة سلام مهدي انتقد فيه قرار وكيل النيابة إجراء فحص طبّي للتأكّد من عذريّة محسنة، معتبراً إيّاه حرفاً لمسار القضيّة، وأنّ مسألة عذريّة الطفلة من عدمها ليست موضوعاً للشكوى.. وطالب بالتحقيق في هويّة الطفلة التي تنتحل صفة محسنة المتوفّاة.

ورغم بعض الهنات في الصياغة، كان مجهود نور طيّباً، ويُبشّر بميلاد صحافي موهوب. اتّصل المحافظ جابر شنيني وأخبرني أنّه أصدر قراراً بتعيين الشيخ بكري حسن مستشاراً. فوعدته بنشر الخبر في الصفحة الأولى من عدد الغد.

وصلتْ فتحيّة يسبقها عطرها مُبشّراً بمقدمها. لم تكن رائحة العطر غريبة عن أنفي، إنّه العطر نفسه الذي تتعطّر به نسمة سكرتيرة رياض الكيّاد.. لا بدّ من أنّ هذا الزير يمتلك كرتوناً منه! خلعتْ فتحيّة حذاءها ذا الكعب العالي، وقعدتْ في طرف المجلس. كانت مُتفتّحة كوردة، وتفاؤل الدنيا يطلّ من عينيها. أجريتُ تعديلات طفيفة على مادّة نور واخترتُ عناوين زاعقة، ثمّ سلّمتها لفتحيّة لتبدأ بصفها.

ظهر شريف فجأة في الباب وهو يُحدّقُ فيّ وفي نور بنظرات تُبطنُ كلاماً يُسرّهُ في نفسه، وليس من الصعب التخمين أنّه لم يكن حسناً.

اتّصل رياض الكيّاد واقترح أن ننشر مادّة تُهاجم جريدة «الأيّام» العدنيّة المعارضة. طلب أن نُلقّنهم درساً. وعلى الفور كلّفتُ مدير التحرير شريف بكتابة مقالة تقصف «الأيّام» وتصفها بانعدام

المهنيّة، وخرق أبسط قواعد العمل الصحافي، وأن يستشهد بتسرّعها في نشر خبر وفاة الطفلة محسنة الذي ثبت في ما بعد عدم صحّته.

أتى المحامي حمّود شنطة وهو يحمل إعلاناً عن الأعمال الخيريّة التي يقوم بها الشيخ بكري حسن. طبعاً كان علينا نشر الإعلان مجّاناً. انضمّ إلى مقيلنا ليُخزّن القات وهو أمر ضايقني.. هل أرسله الشيخ ليكون عيناً عليّ وعلى الجريدة؟؟

حوالى الساعة السابعة مساءً اكتمل حضور طاقم العمل. عقدنا اجتماعاً في مكتبي – التصق بي حمّود شنطة كالهرّ – فراجعنا نظام توزيع العمل، وكلّفتُ كلّ واحد بمهامّ محدّدة. عقب انفضاض الاجتماع مدّ لي حمّود شنطة بقصيدة عموديّة راجياً نشرها... قرأتها، كانت قصيدة غزليّة تافهة من تلك التي يكتبها المراهقون في الصفوف الثانويّة، لكنّني رحّبت بنشرها، وقلت في نفسي كلّ شيء فاسد في البلد، فما الذي يمنع أن نُفسد ذوق القرّاء أيضاً!

استأذن نور في الانصراف مُبكراً، قال إنّه لم ينم، وما يزال ساهراً منذ أمس، وافقتُ، وقلت له إنّني سأتولى مراجعة مادّته بعد صفّها.

أنهينا عملنا قرابة منتصف الليل، وأخذ شريف العدد إلى المطبعة. عرضتُ على فتحيّة أن أوصلها إلى بيتها فوافقتْ. في الطريق سألتني أين أسكن ومن يُقيم معي، لم أخبرها شيئاً عن خاتمة، وقلت لها إنّني أُقيم في شقة مفروشة وحدي. تلميحها كان واضحاً ولا يحتمل تأويلاً آخر. كانت تتكلّم وتُحدّقُ فيّ بنظرة تكاد تلتهمني، بينما كنت أتجنّبُ أن تلتقي نظرتي بنظرتها مُركّزاً على القيادة. تجرّأتُ وسألتها:

– لماذا لم تتزوّجي؟

– على يدك.. هب لي عريساً وأنا سأتزوّجه الآن قبل أن تُشرق الشمس!

– غير معقول.. بنت في مثل جمالك لا تجد عريساً يطرق بابها، هل أُصيب الرجال في بلادي بالعمى؟؟

– كلّ الرجال الذين تقدّموا لي كانوا يريدونني زوجة ثانية.

– هل تُعارضين تعدّد الزوجات؟

– كنتُ أعارضه إلى أن دخلتُ في سنّ الثلاثين وظهر الشعر الأبيض في رأسي.

– يعني إن تقدّم لك رجل متزوّج فستقبلين؟

– طبعاً.. المهمّ أن أتزوّج.. أنت لا تعرف مقدار عذاب المرأة العانس في اليمن.. ولو عرفت لأشفقت عليّ وتزوّجتني فوراً هاها!

– هاها.. ما رأيك لو نخصّص صفحة للمرأة تُشرفين أنتِ على تحريرها؟

– أوافق بشرط.

– ما هو؟

– أن تهتمّ قليلاً بالمرأة التي معك في السيّارة!

ضحكنا ووعدتها خيراً!

الأحد (24)

ركنتُ سيّارتي، ورحتُ أمشي على قدميّ دون هدف. كان الوقت عصراً والسماء مُلبّدة بالغيوم، ولكنّها غالباً لن تمطر هنا، بل ستتسلّق الجبال وتُمطر في صنعاء. الناس هنا معهم حق عندما يشتكون من مركزيّة الدولة!

وقفتُ عند بسطة إحدى المكتبات، جريدتنا «النضال» مكدّسة وبائرة. لمحتُ نسخة مهترئة متآكلة الأطراف من كتاب تذكاري عن والدي، انتابتني مشاعر متناقضة، ثمّ حسمت أمري واشتريتها.

رغم أنّه قد طبع قبل عشر سنوات، لم أكن قد قرأته بعد. كان قد صدر بمناسبة حفل التكريم الذي أقامته أحزاب المعارضة لأبي.

أتذكّر أنّني لم أحضر الاحتفال، ولم أقل لأبي حتى كلمة «مبروك». تجاهلته بصلف، ورفضتُ قراءة النسخة التي أهداها لي. شعرتُ بالغيرة منه، ومن تقدير وتوقير المجتمع له، وحسدته على الاحترام الفائق الذي يحظى به في أوساط الناس. منذئذ حصل شرخ في علاقتنا، وبدأت أنفر منه، ومن اليساريّين الأقزام الذين افتتنوا به

وسجدوا له.. أنا لم أسجد، ولم تُعمني هالته.. وأشعرته بذلك في كلّ سانحة.

مؤكّد أنّ والدي قد حدس بما يصطرع في داخل نفسي من بغض له، وآلمه ذلك، وربّما هناك من وشى بي وأخبره أنّني مزقتُ نسخته المهداة نتفاً وألقمتها الزبالة.

وزيادة في النكاية به، رميتُ يساره خلف ظهري، وانضممتُ إلى السلطة، ولعلّي عن عمد وسبق إصرار قد عجّلتُ بوفاته.

الاثنين (23)

قرأتُ الكتاب الذي عن أبي، ففهمتُ شيئاً جديداً عن نفسي.. وعيتُ أنّ صراعي لم يكن مع ظروف الحياة القاسية، بل مع أبي.. لقد ظللتُ أتصارع معه حتى وهو مسجّى في قبره.. لقد ضحّيتُ به من أجل تفّاحة فاسدة.

وقعتُ في حبّ حوريّة من أوّل يوم لنا في كليّة الإعلام. شخصيّتها القويّة جذبتني إليها. غرورها وغطرستها خيّبا آمال العشاق المتهاوين كالفراش من حولها، أمّا أنا فقد زادني تكبّرها وتعاليها هياماً بها.

لقد أذلّتني في مواقف عديدة – وحدها أو مع صديقاتها – ولقيتُ منها صدوداً ونفوراً، ربّما بسبب رثاثة ملبسي، لكنّي لم أستسلم ولم أيأس قطّ، حاربتُ حولين كاملين حتى لانت وتبسّطت معي في الحديث، ونجحتُ في تغيير نظرتها إليّ من الازدراء إلى الشغف. حسبتُ أنّها قرأت مقالاتي فتبدّل موقفها منّي.. سألتها عن هذا الأمر لاحقاً بعد زواجنا، فقالت إنّها لا تعرف لماذا أحبّتني! الآن أعلم أنّ ثناء الأساتذة على مواهبي قد جعلني محطّ إعجاب الزميلات وتودّدهن، فربّما غارتْ منهنّ وأحبّتني لهذا السبب!

أكملنا دراستنا ونحن نحلم ببيتنا المشترك، وعدد الأطفال الذين سننجبهم، والبلدان التي سنزورها في الأعياد.

عقب التخرّج، طلبت منّي أن أقابل والدها ليتعرّف إليّ، ويقرّر مصيرنا.

حُدّد الموعد، وذهبت. عند البوّابة استوقفني الحراس، وأجروا اتصالاً. فتشوني ثمّ سمحوا لي بالدخول. مررتُ من حديقة تتوسّطها نافورة، نبح عليّ كلب بوليسي ضخم الجثّة، فحمدتُ الله أنّه مقيّد بسلسلة. فتحتُ باباً من الألمنيوم، ودخلت إلى دهليز محكم الإغلاق، خلعتُ حذائي الرياضي ووضعته في صوان مخصّص للأحذية. ثمّ فتحتُ باباً خشبيّاً يشبه في ثقله وضخامته بوّابة قلعة حصينة. وما إن وضعتُ قدمي على الموكيت الفخم حتّى سمعتُ صوتاً أجشَّ ينهرني: «خطأ.. أغلق الباب خلفك». لم أجرؤ على رفع رأسي لأنظر من الذي أصدر الأمر، واستدرتُ مغلقاً الباب. بعدما أصلحتُ خطئي رأيتُ حماي المستقبلي واقفاً في آخر الردهة بوجه عابس صارم. صافحته وأنا أُعرِّف بنفسي متلعثماً، لم يأبه أن يعرّفني بنفسه: «نحن نغلق الأبواب لنمنع الذباب من الدخول». هززتُ رأسي بحماسة، وعلى فمي ابتسامة بلهاء.

قال لي وهو يوجّه لي نظرة قاسية تفتّت الصخر: «ألم تفهم؟ أنت لم تغلق الباب الصغير.. هيّا اذهب وأغلقه». أطعته بطريقة مُذلّة. هرولتُ إلى الدهليز وأغلقتُ الباب الألمنيوم، ثمّ عدت أدراجي فلم أجده في مكانه. تلفّتُ هنا وهناك، ثمّ رأيت حجرة عن يميني مضاءة بالثريّات ومؤثّثة بأثاث فخم. حسمتُ أمري ودخلتها، وجلستُ على الأريكة الأقرب إلى الباب. جاءت خادمة فلبينيّة حسنة الوجه وقدّمت لي عصير المانجو. وبسرعة تحسّن مزاجي، لأنّني

لم أعد أتنفّس الأوكسجين المبتذل المتاح لكلّ من هبّ ودبّ في الخارج، بل أعبُّ بخور «العودة» الفاخر.

أتى وهو يحمل جرواً، وقفتُ احتراماً له، قعد في الصدارة، وانشغل برهة بملاعبة جروه، ثمّ التفتَ إليّ: «مالك واقف هناك كإشارة المرور! تعال اجلس هنا». أطعته والشعور بالصغر والضعة يستولي عليّ.. قعدتُ على طرف الكنبة ملموماً على نفسي، ومكثتُ عنده قرابة ساعة ونصف، ثمّ صرفني.

لقد أيقظ حضوره الطاغي عقدة الجوع التي تعذّبني منذ طفولتي.. شعرتُ بالخجل من فقري، وتلاشت ثقتي بنفسي.. صرتُ أخرقَ لا أعرف كيف أتصرّف، وتلعثمتُ في الكلام معه، وصوتي صار خافتاً بالكاد يخرج من حلقي.. تدفّق العرق من إبطيّ وكفّي، ولم أقدر أن أرفع رأسي وأنظر في عينيه مباشرة.

قال إنّه يعرف عني كل شيء! وامتدح عائلتي ذات الأصل القبلي الرفيع. تحدّث عن والدي بالسوء ولم أعترض، بل وافقته، وحين لمس منّي هذا الجانب، قال لي الكلمات التي سترنّ في أذنيّ طويلاً: «أريد أن أزوّج ابنتي لرجل دولة.. فهل أنت على استعداد لأن تكون رجل دولة؟». جوابي كان «نعم». حينها لانت ملامحه قليلاً، ومن بعدها كفّ عن نبرته الصلفة المتعجرفة في كلامه معي.

حذّرني من أن أسلك مسلك الحثالة التي تعارض الدولة.. قال إنّ والدي صعلوك لا قيمة له، دمّر نفسه بنفسه، وكان ضرره أكثر من نفعه للوطن.

من بعد هذا اللقاء، جرى ترتيب وضعي.. فأخذ المال يجري بين يديّ، وتعرّفتُ إلى الطبقة العليا في المجتمع، وبدا كأنّني دخلت الجنّة.

الثلاثاء (22)

كثير من المقالات التي كُتبت عن أبي لم تعجبني، لكنّ هذا الكتاب بصفة عامّة ترك فيّ أثراً معيّناً يصعب شرحه بدقّة.

في هذه البلاد، إمّا أن تنحني للظلم فتأكل ملء الفم، وإمّا أن تحمل القلم وتتحمّل الألم. دربان متناقضان، وأنا اخترتُ الدرب الأوّل، الدرب الأسهل.. إلّا أنّني اكتشفتُ أنّ الذي يفتح فمه سيأكل، بالإضافة إلى اللذائذ والطيّبات، أشياء أخرى لم تخطر بباله، منها على سبيل المثال الخراء.

كانت فتحيّة تُطاردني برسائلها الغزليّة، واتّصالاتها التي ترجوني فيها أن نخرج معاً في موعد غداء أو عشاء. كنت أتهرّب منها بكياسة، محاولاً عدم جرح مشاعرها الأنثويّة. كان من الصعب عليّ أن أشرح لها ما أعانيه، فمنذ قيامنا بعمليّة اغتصاب جريدة «النضال» من أصحابها، وأنا أشعر بفقدان الرغبة الجنسيّة.. حتّى خاتمة لم أقربها! قد يكون السبب الضغط العصبي الكبير الذي أتعرّض له، أو ربّما الإرهاق والسهر فعلا فعلهما في قواي الجسديّة. سوف أضحك على نفسي كثيراً عندما أنضمّ رسمياً إلى نادي العنّينين! لم يكن ينقصني سوى هذا!

تسلّمتْ نيابة الجروم نتائج الكشف الطبّي على الطفلة محسنة، التي ثبت أنّها ما تزال عـذراء. طلبتُ من نور أن يأخذ تصريحاً من الزوج بمناسبة براءته، لكنّه عاد خائباً. فالزوج متوارٍ عن الأنظار منذ نَشْر الخبر الكاذب عنه. طلبتُ منه أن يرجع إلى هناك في اليوم التالي ويُجري حواراً مع والد الطفلة محسنة. كان علينا أن نُظهر للقرّاء ولعيون العالم المُتلصّصة أنّه قد اشترط على زوجها بقاء زواجهما عذريّاً إلى أن تبلغ البنت.. لم يكن نور على علم بأنّ البنت مزيّفة، وأنّ محسنة الحقيقيّة قد صارت كحلوى العيد في أفواه الديدان.

الأربعاء (21)

ذهبتُ إلى مكتب المحافظ الأستاذ جابر شنيني بناءً على اتّصال منه. هناك سلّمني شيكاً بمبلغ عشرة ملايين ريال، وطلب منّي التوجّه إلى الشؤون الماليّة لأوقّع معهم عقداً على توزيع ألف نسخة يوميّاً من جريدة «النضال» على كافّة الدوائر الحكوميّة في المحافظة. كان هذا دعماً سخيّاً، وحفظاً لماء وجوهنا بعد الانخفاض الحادّ في مبيعات الجريدة.

عاد نور من الجروم وهو يحمل حواراً مع إبراهيم بلغيث والد محسنة، وأيضاً صورة من عقد النكاح الذي توجد فيه فقرة تنصّ على اشتراط وليّ أمر البنت عدم دخول زوجها عليها إلّا بعد بلوغها.

بعد تجهيز المادّة للنشر، تدخّل مدير التحرير الأخ شريف وأضاف جملة على لسان بلغيث تقول: «ولأنّ البنت تنشأ عندنا في مجتمع ريفي محافظ فإنّ بلوغها يتأخّر إلى سنّ ثمانية عشر عاماً».

احتجّ نور على هذه الإضافة. تجادلنا مع شريف، لكنّ الجدال مع تيس كان أهون منه، فتجنّبنا شرّه وتركنا إضافته تمرّ.

الخميس (20)

اهتمام دولي باعتقال هيئة التحرير السابقة. الوضع متأزّم.. أصدرتْ عدّة منظمات صحافيّة كبرى في العالم بيانات إدانة.. لا يبدو أنّنا سنفلح.. لقد أصبحنا مثل امرأة بلا سروال، يستطيع أيّ واحد من الشرق أو الغرب أن يتفرّج على مواضع عفّتها، وبإمكانه حتى أن يمدّ يده ويتحسّس!

رفعت نيابة الجروم ملفّ قضيّة الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي للقضاء. سنعرف في الأسبوع المقبل موعد الجلسة الأولى. أعتقد أنّ موقفها ضعيف وسوف تُدان.

اليوم راحة. لن نُصدر عدداً لأنّ غداً نهار جمعة. عصراً حضرتْ فتحيّة فجأة دون موعد، لا أدري كيف حصلتْ على العنوان. فتحتُ لها خاتمة الباب وأدخلتها إلى الديوان. وقعتُ في موقف محرج، وخاتمة كشّرت عن أنيابها ولم تتركنا لحظة واحدة. كانت الغيرة تخرج كالشعاع القاتل من عينيها وتتحفّز لالتهام فتحيّة حيّة! طبعاً شعرت فتحيّة بحالة العداء من جانب البنت الصغيرة، وأدركتُ أنّني لست الزاهد الذي كانت تظنّه.

طلبتُ من خاتمة أن تُقدّم شاياً للضيفة، فأحضرته في أقلّ من دقيقة وكأنّها جنّية بسبعة أيدٍ! لم تترك لنا فرصة للانفراد والكلام على راحتنا. وكلّما رفعتْ فتحيّة الكوب لتشرب، كانت خاتمة تتنحّم لتثير قرفها. بعد رشفتين، رأت فتحيّة بصمة أصابع البنت على الحواف الداخليّة للكوب فأزاحته جانباً وهي لا تُخفي تقزّزها. رشقتها خاتمة بنظرة تبرق بالنصر. اعتذرتْ فتحيّة – لا أعرف لمن ولا عن أيّ شيء – ثمّ استأذنتْ بالانصراف. عرضتُ عليها أن أُوصلها بسيّارتي فرفضت بجفاء، وانصرفتْ دون أن تودّعني.

بعد نصف ساعة تلقيتُ منها رسالة نصّية على هاتفي: «كلّكم أيّها الرجال متشابهون ولا تعجبكم إلّا البنات الصغيرات، جميعكم بحاجة للعلاج النفسي».

قرّعتُ خاتمة على سوء تصرّفها مع زميلتي في العمل، وطالبتها بحسن التصرّف مع ضيوفي. لم تكن تسمع ما أقوله لها، بل كانت تُحدّق في وجهي وتقول كلاماً في سرّها. كان ذلك واضحاً من تعابير شفتيها وحركة عينيها.. تمنّيتُ في تلك اللحظة لو كنت أمتلك وسيلة أو موهبة لقراءة ما يدور في دماغها.

الجمعة (19)

استعنتُ بمحرّك البحث (Google) لأجمع صوراً لأبي. حنين مفاجئ لهذا الرجل الذي لم أعرفه إلّا من خلال عيون الآخرين.

أحسبُ أنّه مضى قانعاً من الحياة وسعيداً وراضياً عن نفسه. أمّا أنا فلا.. كنتُ أظنّ أنّني شخصٌ في قمّة السعادة، وأنّني حققتُ النجاح في الحياة، وانتصرتُ على عقدة الجوع والفقر.. ولكنّني أعلم الآن أنّي لم أكن منتصراً ولا ناجحاً ولا سعيداً. إنّني شخص مهزوم، وهي هزيمة لم أشعر بها، وهي قاسية لأنّها لم تخطر ببالي قطّ.

السبت (18)

برغم العداوة التي فرضتها علينا الظروف، بكيتُ عليه بحرارة. شعرتُ كأنّني متواطئٌ في قتله، وكأنّ يدي ملوّثة بدمه المسفوح ظلماً.. لقد وجدوا جثّة صديقي الذي لم يعد صديقي، سامي قاسم، مراسل جريدة «الأيام» العدنية داخل أجمة موز كثيفة عند ضفاف وادي الدود. وجدوه مذبوحاً ومفقوء العينين... قتلوه بطريقة بشعة، لكنّ ميتته لم تكن بلا بطولة، لقد مات من أجل قضيّته، وهذه هي الميتة اللائقة بالرجال الشجعان.. أمّا الجبناء الذين لم يحملوا أيّ قضية خوفاً من العواقب، فلن يفكّر أحد مطلقاً في سفك دمهم الرخيص. إنّه ليوم مُثخن بالحزن.. أنا حزينٌ على صاحبي، وحزينٌ على نفسي.

لست أخجل من الاعتراف بأنّني أحسده على موته.. لقد كنت محتاجاً لهذه الميتة الأسطوريّة التي ترفع الرأس أكثر منه.. أُدركُ أنّ رغباتي متضاربة، وأنّ قلبي ليس على وئام مع عقلي، ربّما أنا بحاجة، كما قالت فتحيّة، إلى عرض نفسي على طبيب نفسيّ.

الأحد (17)

جرى اليوم النظر في قضيّة الطفلة جليلة، وتسليم نتائج الكشف الطبّي على الشيخ، بينما أصرّ وليّ أمر الطفلة الحاج هادي زهير على موقفه الرافض لأيّ كشف طبّي جديد على حفيدته. عرض القاضي حلّ القضية وديّاً، وذلك بأن يعقد نكاح جليلة على الشيخ بكري حسن في المحكمة، ويفرض عليه – أي الشيخ – دفع المهر المتعارف عليه في المنطقة. أبدى الشيخ بكري حسن موافقته السريعة، وقال إنّه على استعداد لأن يدفع لها مهراً ثلاثة أضعاف المهر الذي جرت العادة على دفعه للبكر في المنطقة. وقف الحاج هادي زهير وأعلن رفضه التامّ للصلح.

حوّلتُ إلى زوجتي مبلغاً متواضعاً.. ما يكفي لشراء الحفاضات والحليب المجفّف، فعلتُ ذلك مُكرهاً.

خاتمة تضع الكثير من البهارات المُحرقة في طعامي.. وتغذّيني تغذية دسمة، لقد سمنتُ، وازداد وزني عدّة كيلوغرامات. نسيتُ أن أُشيد بقدرات خاتمة في المطبخ، إنّها طبّاخة من النوع القاتل، أقصد أنّ المرء لا يستطيع إمساك نفسه عن الأكل حتى يُنهي طبختها كاملة من حلاوتها. طبعاً انتبهتُ إلى ما تفعله، وإلى محاولتها تقوية الباءة

عندي.. كانت مُخطئة، أنا لم أكن أعاني من ضعف جنسي، بل من خور عصبي.. لم يكن مزاجي مُواتياً للمعاشرة.. باختصار، كان ذلك الشيء الذي يتدلّى من خصري مُضرباً عن العمل.. لا أعرف ما هي مطالبه، ولا أنا من جهتي حاولتُ الاستماع لأسبابه، ربّما صدّق ابن الكلب الدعاية المضادّة، فاتّخذ من جانبه خطوة الإضراب للتعبير عن تضامنه مع مطالب الأمم المتحدة التي تُجرّم نكاح الصغيرات.. هذا اللعين صار ناشطاً حقوقيّاً وأنا ساهٍ عنه!

الاثنين (16)

انصاعت السلطة للضغوط الدوليّة وأفرجتْ صباح اليوم عن غالب زبيطة وشلّته. لقد تحوّل ذلك الصعلوك إلى بطل وطنيّ. ابتهاج عارم في جبهة المعارضة.

ضاعفنا الحراسة على مقرّ الصحيفة، لكي لا يتجرّأ ذلك الكائن النتن على التفكير في الاقتراب منه.

صالحتُ فتحيّة، وعزمتها على الغداء في مطعم راقٍ. لمستُ دون قصد ساقها بساقي، فظنّت أنّني أتحرّش بها، فسحبتْ ساقها وقالت مُقطّبة وجهها: «والله أمارس الاسترجاز خير لي منك». لم أفهم ما قالته تماماً، لكنّ معناه وصلني وهو أنّها على استعداد لفعل أيّ شيء ولا تلتجئ إليّ. قلت في نفسي: «ماكرة والله، وكأنّها على علم بمشكلتي!». ومع ذلك فإنّ تجربتي مع النساء تُخبرني أنهنّ لا يعنين كلماتهنّ حرفيّاً، وأحياناً يكفي أن نقلب الجملة لنحصل على المعنى الحقيقي الذي يقصدنه. لا تبدو لي فتحيّة من ذلك النوع الذي يتظاهر بعكس ما يُبطن.. أشعر بأنّها امرأة صريحة، وتُعبّر عمّا في نفسها بطرق مباشرة غير ملتوية.

دخلنا في نقاش أدبي، وفوجئتُ بأنّها قارئة جيّدة. قالت إنّها قرأتْ جميع النصوص المسرحيّة التي وقعتْ في يدها وهي في فترة المراهقة، وأنّها كانت تطمح أن تحترف مهنة التمثيل.. ضحكنا معاً من طموحها الذي يبدو بلا ساقين، في بلد أقرب للعصور الوسطى من أن يكون بلداً مُنتجاً للأفلام السينمائية والعروض المسرحيّة. اخضلّتْ عيناها بالدموع، فسحبتُ ابتسامتي الساخرة وقلت بجدّية: «أنا متأكّد من أنّه لو أتيحت لكِ الفرصة لصرتِ ممثّلة مشهورة». لم تعلّق، ربّما اختنق صوتها بداخلها. لقد كانت هذه لحظة مؤلمة، ويصعب على الإنسان أن يعبر فوقها دون أن تهتز أعمق أعماقه.

تأمّلتها بعين جديدة، لم تعد تلك المرأة الفقيرة السهلة المنال، بل أراها الآن إنسانة تؤوي بين ضلوعها كنزاً من الموهبة، لم تمتدّ إليه يد، ولم يخرج للعلن، وإن توفّر الحظ واستُخرج هذا الكنز فإنّ من الممكن أن تصير نجمة.. لمَ لا وهي حسناء، ناعمة، مرمورة، ولها طلّة وجاذبيّة. الكثيرات والكثيرون يحملون كنوزاً في داخل أنفسهم، لكنّهم يموتون فقراء، لأنّ مصادفة الميلاد في بلد فقير ومتخلّف لم تساعدهم على استخراج كنوزهم المدفونة تحت جلودهم.

الثلاثاء (15)

ارتكب الشيخ بكري حسن غلطة فظيعة.. تهجّم وهو سكران بصحبة أعوانه المسلّحين على بيت الحاج هادي زهير، وهدّده بالقتل إن لم يُوافق على تزويجه بحفيدته جليلة.

بعد انصراف الشيخ وجماعته، ذهب جدّ جليلة إلى النيابة وقدّم بلاغاً عن الحادثة، واتّصل بالناشطة الحقوقيّة سلام مهدي وشرح لها الواقعة بالتفصيل، وبعد ساعات انتشر الخبر، وصارت اليمن كلها تعرف أنّ الشيخ عدواني وسكّير وعاشق ولهان لجليلة!

الأربعاء (14)

فقدتُ حماستي للعمل في جريدة «النضال». لكن علينا الاستمرار في تقديم العلف للقرّاء. الدولة مسؤولة أيضاً عن علْف المتعلّمين بالصحف يوميّاً دون انقطاع. هذا العلف ضروري للمدنيّين كضرورة العلف للدوابّ التي تُربّى في الحظائر. بدون هذا العلف تفقد الدولة سيطرتها على القطيع. ورق الصحف والعلف جاءا من نبات الأرض، وهذا يعني أنّ العلف المُقدّم للناس والحيوانات هو من المصدر نفسه.

الخميس (13)

أنباء غير مؤكّدة عن تسلّم الصحافي المعارض غالب زبيطة رئاسة تحرير جريدة «السنابل الحمراء». أتذكّر أنّ والدي رحمه الله كان ينشر فيها مقالاته. سقى الله تلك الأيّام الخوالي، عندما كانت تزلزل اليمن من شمالها إلى جنوبها، قبل سقوط الاتّحاد السوفييتي، وأمّا الآن فهي مجرّد صحيفة رثّة قليلة الصفحات، تشبه نشرة مدرسيّة، وإصدارها مُتعثّر، تغيب شهوراً، ثمّ تُصدر عدداً أو عددين في السنة. من المفترض – بالنظر إلى المستجدّات الحاصلة – أن يُغيّروا اسمها إلى «السنابل الزبيطاء» نسبة إلى الأحمق الذي سيديرها.

الجمعة (12)

بخّرتني خاتمة. قالت إنّني أُصبتُ بعين شرّيرة! ثمّ طلبتْ منّي أن أرافقها إلى الحمّام لتغسلني بماء خلطت فيه موادّ خاصّة لإزالة العين. جاريتها، لأنّني بصراحة كنت خجلاً من نفسي، لا إيماناً بمعتقداتها الخرافيّة.

الغريب – وهذه ظاهرة لا أعرف لها تفسيراً – أنّني شُفيت. ضاجعتها خمس مرّات بطريقة طبيعيّة. قالت إنّ العين الشرّيرة جاءتني من جهة فتحيّة، لأنّني منذ التقيتها كفّ «هاوني» عن الدق! كانت تشتمها بغلٍّ ونفثت كلّ ما في قلبها من حقد وغيرة. ضحكتُ من تقطيبة وجهها، وتحميلها تلك المرأة المسكينة وزر توقّف آلتي عن العمل.

السبت (11)

رجعتُ من الجريدة الساعة الحادية عشرة ليلاً. أنوار الشقة كانت مُطفأة وخاتمة لم تكن موجودة. حتى حاجيّاتها وملابسها اختفتْ. اتّصلتُ بها على رقم الهاتف الذي أهديته لها ولكنّه كان مُغلقاً. أوّل شيء تبادر إلى ذهني أن يكون الشيخ بكري حسن قد أرسل سائقه واستعادها. اتّصلتُ بالشيخ، وحمدتُ الله أنّه ردّ عليّ، قال إنّه لا يعلم شيئاً عن خاتمة، ولم يُرسل أحداً من طرفه.. قلت له إنّني سأبلغ الشرطة عن اختفائها، فطلب منّي مهلة نصف ساعة ليجري اتّصالاته مع معارفه في دير الدموع ويستخبر منهم إن كانت قد عادت إلى أهلها.

مرّ عليّ نصف الساعة ثقيلاً، وأنا في حالة قلق شديد، وهواجس سوداء تعصف بعقلي. اتّصل الشيخ وأخبرني أنّ خاتمة ليست في بيت أهلها، قال إنّه سيتحرّك غداً مع رجال من المنطقة للبحث عنها. شكرته وصوتي يختنق بالبكاء.

تسلّل إليّ هاجس بأنّها في خطر بسببي.. لا أعرف كيف، لكنّ هذا الهاجس كان ضاغطاً عليّ. اتّصلتُ بالمحامي حمّود شنطة وأخبرته بما حصل، فهوّن عليّ الأمر وقال إنّ خاتمة قد تكون خرجت

وضيّعت طريق العودة. لم أرتح للهجته المسترخية. قلت له إنّ الساعة تقترب من منتصف الليل وملابسها غير موجودة، لقد غادرتْ الشقّة إلى مكان مجهول، فقال إنّه سيتّصل بأقسام الشرطة في مدينة الحُديدة ليسألهم إن كانت وصلتهم بلاغات عن بنت ضائعة. قلت له إنّني سأنتظر اتّصاله.

ظللتُ ساهراً حتى صاحت جميع الديوك معلنة قدوم النهار، ولكنّه لم يتّصل.

الأحد (10)

لم تكن لي صفة قرابة بخاتمة تتيحُ لي التقدّم ببلاغ عنها للشرطة. اتّصلتُ بالمحامي حمّود شنطة، فقال إنّه اتّصل بأقسام الشرطة ولم يجد عندهم خبراً عنها. قال أيضاً إنّه تقدّم ببلاغ مكتوب إلى الشرطة للبحث والتحرّي عنها.

بحثتُ في هاتفي عن صور لها، وجدتُ واحدة مناسبة، لقد قرّرتُ أن أنشر إعلاناً عنها في جريدتنا.

عقدتْ محكمة الجروم صباح اليوم جلسة للنظر في القضيّة المرفوعة ضدّ الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي، بتهمة ترويج أخبار كاذبة. موقفها صار صعباً للغاية، لأنّ الشاهد الرئيس لمصلحتها والمصدر الذي استقتْ منه الخبر قد لقي مصرعه.

قال مراسلنا إنّ المحامي شعيب العجيل قد تقدّم للمحكمة بنسخة من جريدة «الأيّام» التي نشرت الخبر، لكنّ القاضي مقداد العدّاد رفض قبول هذا الدليل، استناداً إلى أنّ جريدة «الأيّام» أهليّة، وليست حكوميّة، وبالتالي ما تنشره من أخبار ليس حجّة، ولا يمكن اعتباره دليلاً يُستند إليه في القضيّة.

الاثنين (9)

صدر عدد الاثنين من جريدتي «النضال» ونزل فيه الإعلان عن خاتمة مع صورة لها، ووضعتُ رقم هاتفي ورقم هاتف المحامي حمّود شنطة للاتّصال بنا عند العثور عليها.

فتحيّة تغيّرت معاملتها لي، تخلّتْ عن تحفّظها، وعادتْ تضحك وتمزح معي.

لم ترد إلينا أيّ اتّصالات عن خاتمة. ولا الشرطة أبلغتنا بالعثور عليها. أشعرُ بالقلق عليها، وأتخوّف من أن تكون وقعتْ في يد عصابة إجراميّة اغتصبتها وقتلتها... كنّا نسمع بين فترة وأخرى عن فتيات تعرّضن لهذا المصير الدموي العنيف. من الوساوس التي مرّتْ بخاطري أنّها ربّما تعرّضتْ لحادث مروري مُميت وأنّ جثّتها مرميّة في ثلّاجة أحد المستشفيات.

بعد خروجنا من مقرّ الجريدة، عند منتصف الليل تقريباً، صعدتْ معي فتحيّة لأوصلها إلى بيتها، وجرّنا الحديث إلى مطعم السكارى، فأصرّتْ على أن تتعشّى هناك، حاولتُ ثنيها عن هذه الفكرة دون جدوى.

قدت سيّارتي إلى المطعم، واخترنا طاولة في الداخل بعيدة عن العيون. كانت تجربة رهيبة، لكنّها مرّت بسلام، وقد أثبت السكارى أنّهم أكثر أدباً ولطفاً من رجل الشارع العادي.

الثلاثاء (8)

اليوم يُنشرُ لي آخر مقال في عمودي اليوميّ بجريدة «الشعب». وجّهتُ تحيّة وداع للقرّاء، واعتذرتُ لهم بانشغالي بعمودي اليومي في جريدة «النضال».

أنهينا عملنا في الجريدة مُبكرين، الساعة التاسعة والنصف ليلاً. قفزتْ فتحيّة إلى سيّارتي وطلبتْ أن أدعوها مرّة أخرى إلى مطعم السكارى، فاعتذرتُ بأنّه لا يفتح أبوابه إلّا من بعد منتصف الليل، ظهرتْ على وجهها تكشيرة مروّعة، فاقترحتُ عليها أن نشتري عشاءً جاهزاً من أحد المطاعم ونتعشّى في شقتي، قلت لها إنّني أحتفظ بقارورة فودكا في الثلّاجة، فرحّبتْ بسرور.

ونحن نتعشّى ونحتسي بنت الكرم، همستْ تسألني إن كان بياتها عندي لا يُسبّب لي مشكلة، فقلت لها إنّ ذهابها للبيات في بيت أهلها هو الذي سَيُسبّبُ لي مشكلة عويصة! ضحكتْ من قلبها وقد فهمت ما أرمي إليه. كنّا متفاهمين، منسجمين بصورة عجيبة، وكأنّها نصفي الآخر الضائع.

الأربعاء (7)

كانت عجينة من الشهوة، ومضى النهار كلّه ونحن معاً في الفراش. لم أشعر مطلقاً بالتعب، وكأنّ في داخلي طاقة سرّية مخزونة منذ طفولتي ومنذورة لهذه المرأة، ولجسدها الذي أعطاني إحساساً صادقاً بأنّه كان في انتظاري منذ تشكّله في الرحم.

بصعوبة جررنا أقدامنا إلى الصحيفة، ونحن نودّ أن لا نفترق لحظة. هناك، وجدنا كارثة في انتظارنا.. لقد صدر عن مجلس حقوق الإنسان الخاصّ بالأمم المتّحدة في جنيف قرار بتجريم نكاح الطفلات في اليمن، وبأنّ مُرتكبي الجريمة سيكونون عرضة للعقوبات.

اتّصل رياض الكيّاد وطلب منّي ملفاً عن إنجازات الحكومة اليمنيّة في الحدّ من الزواج المُبكر لكي يُنشر في جريدة «الشعب». قال إنّ الشباب الذين يعملون معي لديهم خلفيّة واضحة عن الموضوع في الساحل التهامي، وإنّ على الجميع التفرّغ للعمل على الملفّ، كما أمرني بالدوام في المقرّ إلى الفجر، لتحرير أيّ موادّ إضافيّة قد تُطلب منّي. أعلنتُ حالة الطوارئ في الصحيفة، وبدأنا نضغط على خيالنا لاختلاق تلك المنجزات.

اتّصل بي القاضي مقداد العدّاد وصوته فيه رنّة مزاح، يسألني ساخراً عن ماهية تلك العقوبات الدولية التي يُهدّدون بها قضاة اليمن! سيطرت على نفسي بصعوبة وأنا أكاد أضحك، قلت له أن يُسقط من حسابه فكرة تزويج الشيخ من جليلة، وإلّا فإنّ الطائرات بدون طيّار «الدرونز» الأميركيّة ستفتّش اليمن شبراً شبراً بحثاً عن بيته! ضحك القاضي واختتم بشهقة: «والله لن يرى الشيخ ظفرها!». سألته ماذا سيفعل في الجلسة التي سيحلّ موعدها يوم السبت المقبل، فقال إنّه كان ينوي إصدار حكم بإجبار الطرفين على الصُلح وإتمام عقد النكاح – باعتبار أنّ المعاشرة قد حصلت – ولكنّه الآن لا يعرف كيف يتصرّف، خصوصاً أنّ قضيّة جليلة باتت تحت مجهر الصحافة العالمية.

شعرتُ فتحيّة بأنّ الليلة ليست ليلتها، بل ليلة الأمم المتحدة، فظلّتْ تشتمها وتدعو عليها بالخراب! الساعة الحادية عشرة استأذنتْ بالانصراف، فأذنتُ لها، وحلّ محلّها أحد الشباب للصفّ على الكمبيوتر. مرّرتْ لي قُصاصة قبل خروجها، فردتها ووجدتُ فيها هذه الملاحظة: «اتّصل بي عندما ترجع للشقّة لأطمئنّ عليك».

بصعوبة تدبّرنا أمورنا، وأرسلنا الملفّ المطلوب إلى صنعاء، وعملنا ملفّاً آخر أصغر حجماً لجريدتنا، وبمعجزة سلّمنا العدد للمطبعة قبل طلوع النهار.

عُدنا إلى بيوتنا ونحن نزحفُ على بطوننا من الإرهاق. ونسيتُ الاتّصال بفتحيّة.

الخميس (6)

لم يكفّ الهاتف النقّال عن الرنين، كان يرنّ بتتابع دون انقطاع وكأنّ سفّاحاً يهمّ بذبحه. فتحتُ عينيّ بالكاد ونظرتُ إلى الساعة، كانت تشير إلى التاسعة والربع صباحاً، أخذتُ الهاتف وأنا ألعنُ المتّصل، كان الرقم لزوجتي، فذعرتُ وخشيتُ أن يكون واحد من الأولاد وقع عليه مكروه. أجبتها فإذا بها تسبّني سبّاً مُقذعاً، ودون مقدّمات طلبت الطلاق. لم أكن قادراً على استيعاب الذخيرة الحيّة من الكلمات المنحطّة التي تطلقها عليّ، لأنّني كنت لا أزال دائخاً من السهر، ولم أحصل على كفايتي من النوم. وعدتها بالطلاق في أقرب فرصة وأغلقتُ الخطّ في وجهها. حقاً لم أقصد إهانتها، ولكنّني كنت غير متمالك لوعيي. عاود الهاتف الرنين المزعج فأغلقته.

رأيتُ في المنام أنّني أمشي راجلاً في طريق يؤدّي إلى البحر الذي كنت أراه أمامي بوضوح، ثمّ هبّت عاصفة رمليّة شديدة فعجزتُ عن التقدّم. الآخرون كانوا على متن سيّاراتهم، وتابعوا تقدّمهم ووصلوا إلى البحر بسهولة. بذلتُ جهداً خارقاً للوصول إلى شاطئ البحر، الذي بدا محميّاً من العاصفة، وتُقام فيه حفلة شواء ورقص، لكنّي لم أُفلح، فغيّرتُ طريقي وعدتُ للخلف. قرّرتُ أنّ الابتعاد في أيّ اتّجاه خير

من المراوحة في نفس المكان، والتعرّض لذرات الرمل التي أحسستُ أنّها دخلت من أنفي إلى دماغي، ومن فمي إلى قصبتي الهوائيّة ورئتيّ، وسدّت أذنيّ عن السمع، وأعمتْ عينيّ عن الرؤية.

أخرجتني من حلمي قبل أن أكمله طرقات على باب الشقة. ارتديتُ ملابسي وفتحتُ الباب، كانت فتحيّة التي ما إن رأتني حتى ارتمتْ في حضني تبكي. للأمانة كانت تبكي بحرقة فظننتُ أنّ شخصاً عزيزاً عليها قد مات. لاحظتْ أنّني نعسان وأفقتُ للتوّ، سألتني: «هل علمت بالخبر؟». قلت لها وأنا أتراجع بجذعي للوراء: «أيّ خبر؟». فتحتْ حقيبة يدها وأخرجتْ صحيفة تابلويد كانت قد طوتها عدّة طيّات حتى أصبحت بحجم ورقة كوتشينة: «البنت الحقيرة التي فتحت لها بيتك اقرأ ماذا قالت عنك». اقشعرّ جسمي وتسارع نبض قلبي وأنا أفرد الصحيفة.. توقّف نظري أولاً عند الشعار المكوّن من سبع سنابل حُمر، ثمّ المانشيت بالخطّ العريض: «الطفلة خاتمة تروي قصّة هروبها من شقة صحافي مشهور استعبدها جنسيّاً». شعرتُ كأنّ أحدهم ضربني بمطرقة على جمجمتي من الخلف. قلبت على الصفحة العاشرة، احتلّتْ صورة ملوّنة لخاتمة مساحة ربع الصفحة، وتعليق يقول: «الطفلة خاتمة ضحيّة تجارة الجنس بالصغيرات في اليمن». وفي الصفحة المقابلة نشروا صورتي وتحتها تعليق: «الوحش البشري مُطَهَّر فضل، الصحافي الذي اشترى الطفلة خاتمة واستعبدها متّخذاً منها خادمة منزليّة وأداة للمتعة المُحرّمة».

لم أتمكّن من التوازن على قدميّ، فقعدتُ على الأرض ورأسي مستند إلى يدي. كانت يدي اليمنى التي تحمل الجريدة ترتجف، ولم أعد قادراً على متابعة القراءة، فتركتها تهوي على الأرض.

أرادتْ فتحيّة أن تأخذ الجريدة فمنعتها، وقلت لها إنّني سأقرأ الموضوع، لكن بعدما أستوعب الحدث. لاحظتْ فتحيّة أنّني مصدوم

وأكتفي بالنظر إلى الجريدة مشلولاً غير قادر على إتيان أيّ حركة. رفعتني عن الأرض وأسندتني حتى وصلتُ إلى السرير، وطلبتْ منّي أن أرتاح. قلت لها إنّني لن أرتاح حتى تذهب وتُحضر الجريدة، قالت إنّها ستحرقها، قلت لها إنّني أنا الذي أستحقُّ الحرق.

انفجرتْ فتحيّة تبكي، ولم تعرف ماذا تفعل لتواسيني في مصيبتي. لقد انهار زواجي، وسمعتي أصبحت في التراب، وزوجتي مُحقّة في أن تطلب الطلاق. ولا أظنّني قادراً على الظهور في المجتمع بعد هذه الفضيحة المدوّية، ولا حتّى على النظر في عينيْ أيّ شخص يعرف من أنا. لقد قُضي عليّ، انتهيت، لم تعد لي سمعة ولا كرامة، فقدتُ احترامي بين الناس. الموت أفضل من أن يجد المرء نفسه دنساً ونجساً في عيون أهله وأصحابه ومعارفه، والكلّ يتجنّبه وكأنّه مُصاب بالطاعون. مستقبلي تحطّم بضربة فأس ماحقة، ولن أتمكّن ولو عشتُ عشرة آلاف سنة من استعادة سمعتي ومكانتي، واحترام الناس لاسمي واسم عائلتي العريق.. يا لها من نهاية غير متوقعة للبطل!

جاء المحامي حمّود شنطة وعانقني بقوة: «لا بدّ من أن نتكاتف.. اكتب لي توكيلاً لأرفع قضيّة على الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي وعلى جريدة السنابل الحمراء». قلت له إنّني لن أرفع قضيّة على أحد، ومن أساء إليّ سامحه الله. قالت فتحيّة إنّها على استعداد لأن تشهد في المحكمة بأنّ البنت خاتمة كانت مُقيمة عندي برغبتها دون إكراه. قلت لها إنّ الأمر لن يصل إلى المحاكم. قال المحامي مستغرباً: «إذاً أنت لم تقرأ التفاصيل.. الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي قالت إنّها سترفع عليك قضيّة في المحكمة بتهمة استرقاق فتاة قاصر واستغلالها جنسيّاً، وأيضاً لتثبت أبوّتك للجنين الذي في بطنها».

صُعقت، شحب وجهي واختفى منه الدم، وشعرتُ بضجيج حفّارة بين أذنيّ، كانا يتكلّمان ولم أكن أدرك ما يقولانه، كنت أرى فقط شفاههما تزبد كأمواج البحر. كنت بعيداً عنهما، غائصاً في الرمال والرياح تضرب وجهي من كافة الاتّجاهات بقسوة لا يمكن وصفها. هما خارج العاصفة، وأنا وحدي أُصارع غضب القدر وجبروته. كانا في عالم آخر، مستقرّ وآمن، وأقدامهما ثابتة على الأرض، والرؤية من جهتهما واضحة. وأمّا أنا فكنت في عالم متهاوٍ محفوف بالمخاطر والمخاوف، ويلفّه ضباب كثيف.

الجمعة (5)

ممدّد على السرير، أعاني من الحمّى، أطنان من الكوابيس تضغط على جدران دماغي وتكاد تفجره.

فتحيّة تعتني بي.

السبت (4)

ذكرتْ خاتمة أنّها هربتْ من شقتي إلى مقرّ منظمة الدفاع عن حقوق الطفلات لتطلب الحماية من الاغتصاب المتكرّر، والمعاملة الوحشيّة التي كانت تتعرّض لها. وصفتني بالوحش المدمن على نكاح الصغيرات، وقالت إنّ طفلة أخرى اسمها منى قد تعرّضتْ للمعاناة نفسها من الامتهان الجنسي والجسدي ولا يزال مصيرها مجهولاً.

أعدتُ قراءة الموضوع أكثر من ستّين مرّة.. وفكّرتُ طويلاً في مستقبلي، مع الأسف، لم يترك لي أعدائي خياراً آخر. لم يعد أمامي سوى العودة إلى جذوري.

الأحد (3)

قرّرتُ عندما أعود إلى بيتي في صنعاء أن أحرق شهادتي الجامعيّة، فهي لم تعد تلزمني في شيء.

ووضعتُ خطّة محكمة لأستردّ أطفالي بالقوّة، وأرحل إلى الريف، إلى مناطق قبيلتنا المنيعة.

سأنفق مدّخراتي كلّها على شراء الأسلحة والذخيرة. وسأبني اسمي من جديد كرجل قبيلة حقيقي قويّ البأس، مَهيب ويحذر خصومه من سطوته.

قرّرتُ أن أسعى إلى المطالبة بالمشيخة التي تنازل عنها أبي، وأستردّها من عائلة الهجام. سوف أجهّز من قبيلتي صقوراً من أمهر الرماة، وأنصب الكمائن لأعدائي، وأصفّيهم الواحد تلو الآخر دون رحمة: غالب زبيطة، سلام مهدي، وحتّى خاتمة إذا ثبت لي أنّها متورّطة ولم تفعل ما فعلته تحت التهديد.

سوف أتزعّم رجال قبيلتي الشجعان، وأشنّ الغارات على مقرّ صحيفة السنابل الحمراء، وغيرها من الصحف والمنظمات التي شوّهت سمعتي.. ولن ينجوَ إنسانٌ أساء إليّ من انتقامي، ولن يفلت حتى الحجر من نقمتي.

سوف أظهر معدني الأصيل، وأقلب لهم الوجه المضطرم بالنار، وأفرض كلمتي على البلاد من المشرق إلى المغرب.

الاثنين (2)

أول يوم أخرج فيه من الشقة بعد الفضيحة، ضوء الشمس آلم عينيّ، ورأيت كلّ شيء بلون أصفر. في الصباح اشتريتُ ثياباً بيضاء، ومعاطف سوداء، وشالاً وعمامة. وفي المساء استكملتُ هيئتي كوجيه من وجهاء القبائل، بشراء جنبيّة[1] ثمينة، ومسدّس روسي، ومسبحة من العقيق.

استخدمتُ المقصّ لإتلاف بدلي المدنيّة، ورميتها في القمامة غير مأسوف عليها.

١ خنجر يمني معقوف. يرتديه اليمني على وسطه.

الثلاثاء (1)

كتبتُ استقالتي من عملي رئيساً لتحرير جريدة «النضال»، وطلبتُ من فتحيّة أن تُسلّم الاستقالة لمدير التحرير شريف الذي سيحلّ محلّي.

حزمتُ حقائبي استعداداً لرحلة العودة إلى صنعاء. أخبرتها أنّني أشعر برغبة جارفة في رؤية أطفالي ومعانقتهم، وبعد ذلك سأصفّي بعض أعمالي، وأتوارى عن الأنظار في أراضي قبيلتي عدّة أشهر حتى ينسى الناس قضيّتي.

لم تصدّقني، كان حدسها يقول لها بأنّني أنوي شرّاً.. ربّما النظرة التي تطلّ من عينيّ فضحتني..

حملتُ أمتعتي وأغلقتُ الشقّة. انتحبتْ فتحيّة وبُحّ صوتها وهي تتوسل إليّ أن أبقى. عرضتُ عليها أن أُوصلها إلى بيتها للمرّة الأخيرة فلم تُوافق، قالت إنّها ستبقى معي حتى آخر لحظة.

قُدت باتّجاه معرض السيّارات الذي استأجرنا منه السيّارة وسلّمتهم مفاتيحها. أخذنا سيّارة أجرة إلى مكتب شركة الحافلات، جلسنا في المقعد الخلفي، تشبّثت فتحيّة بساعدي، وأسندت رأسها إلى كتفي، مبلّلة قميصي بعبراتها.

أنزلنا الحقائب، وتركتُ فتحيّة – هذه المرأة الوفيّة المخلصة – تحرسها. ذهبتُ إلى الشبّاك لأشتري تذكرة، فقال موظف الشركة إنّ جميع المقاعد محجوزة لرحلات اليوم، وإنّ عليّ السفر غداً إذا أردتُ الحصول على مقعد، شكرته وقلت له إنّني سأدبّر نفسي. لم أكن أُطيقُ البقاء حتى ساعة واحدة في الساحل. كنت كطائر مُحتضَر يبحثُ عن مكان يدفن فيه نفسه.

أخذنا سيّارة أجرة ثانية إلى فرزة سيّارات النقل الصغيرة – بيجو – وبسرعة حصلتُ على مقعد. ودعتُ فتحيّة مصافَحةً، وبصعوبة سحبتُ كفّي من كفّها. ظلتْ واقفة عند الرصيف تمسح عينيها وأنفها، ووجهها مُحمرّ من البكاء، غير مبالية بأشعّة الشمس المحرقة، ولا بنظرات الرجال الجاحظة المُتلكّئة. عندما اكتمل العدد، دفعنا الحساب للسائق وانطلقنا بالتزامن مع أذان الظهر. لوّحتُ لفتحية التي سرعان ما غابت عن ناظري خلف كثبان من السيّارات والبشر.

بعد ساعة وصلنا إلى مدينة باجل فتوقفنا لتناول الغداء. دخلتُ المطعم وأنا أشعر بنفسي دائخاً من الجوع، فأنا منذ الصباح لم أتناول شيئاً سوى الماء. طلبتُ إداماً بالخضار ونصف دجاجة مشويّة. اكتفيتُ بشيء يسير يُخرس معدتي، ولففتُ نصف الدجاجة – لم ألمسها – وناولتها لامرأة فقيرة كانت تفترش التراب وتُرضعُ طفلها.

ذهبتُ إلى بقالة قريبة واشتريتُ سجائر ومياهاً معدنيّة، ووقفتُ في مكان ظليل أنتظر بقيّة الركاب. نظرتُ شرقاً باتّجاه الجبال التي لم تعد تفصلنا عنها سوى كيلومترات قليلة، ورأيتُ البرق يومض والسماء ملبّدة بالغيوم.

بعد نداءات وعمليّات بحث مضنية، نجح السائق أخيراً في تجميع الركّاب وحشرهم بداخل السيّارة، وكأنّهم قطيع من الخراف التي لا تُساق إلّا بعصا الراعي.

توقفنا في محطة للتزوّد بالوقود. صرنا نسمع بوضوح دمدمة الرعد، فعلّق البعض بأنّنا سنستمتع بمناظر السيول والشلّالات.

أتت عجوز تتسوّل، لم يُعطها أحد نقوداً. حتى أنا تراجعتُ عن مدّ يدي إلى جيبي وشعرتُ بالخوف منها. كانت تملك أغرب عينين في العالم، لونهما أصفر، وتعطيان الإحساس بأنّهما تدوران حلزونيّاً للداخل.. عينان قادرتان على جذب كلّ شيء إلى أعماقهما.. لو أخبرني إنسان عن شيء كهذا لما صدّقته، لكنّي اختبرتُ هذا الشيء بنفسي، وهو لا يشبه البتّة الخوف المصطنع الذي نشعر به عندما نشاهد فيلماً مرعباً، إنّه خوف حقيقي يقتحم قلبك ويجعلك تعاني من رغبة ملحّة في البول. فجأة مدّتْ رأسها باتّجاه السائق وكلّمته: «لا تسافروا الليلة». أجابها السائق الذي بدا رابط الجأش: «أيش من ليل يا حاجة.. ما يزال الوقت نهاراً». قالت: «ألم تسمع عن شبح الشيبة الذي يظهر مرّة في العام؟ الليلة موعده». ردّ السائق وهو يبتلع ريقه: «سمعت». قالت وهي تشير إلى الشرق: «إنّه يظهر بعد باب الناقة.. والعام الماضي تسبّب بحوادث أُزهقت فيها أرواح كثيرة». قال السائق: «أنا لا أُبالي.. حتى إن ظهر أمامي فسأدوسه وأتابع طريقي». ضحك ضحكة هستيريّة، وناولها مئة ريال، ثمّ انطلق بنا مبتعداً عنها.

جميع الركاب بلّلهم الذعر وبردتْ أطرافهم، وتمنّوا في نفوسهم لو يكون بمقدورهم النزول من سيّارتنا والعودة أدراجهم من حيث أتوا. سمعتُ البعض يقرأ القرآن، والبعض الآخر يتمتم بالدعاء. أنا الوحيد من بينهم الذي لم يعد يبالي بالموت.

عبرنا حاجزاً عسكرياً، وبعده ظهر «باب الناقة» الذي هو مضيق بين جبلين، ويفصل بين السهل والجبل. بدا لي شبيهاً بامرأة مستلقية على ظهرها منفرجة الفخذين في وضعية الولادة، وهي تدفع بالأجنّة من رحمها إلى الحياة والنور. انتابني شعور وكأنّني أقوم برحلة في الاتّجاه العكسي.. عودة إلى رحم الأم. عندما ألتفتُ للخلف أرى السهل يتنعَّم بالحرارة وأشعّة الشمس والضياء الباهر، وحين أُدير رأسي وأنظر للأمام أرى ظلمات حالكة، والصقيع النازل مع الوابِل المنسكب من المُزن.

بعدما عبرنا «باب الناقة» خَفَت ضوء النهار، تماوت كشمعة ذائبة، وصفَّر في آذاننا صفير غير معهود.. ثمّ بدأت قطرات المطر تُبقّع زجاج السيّارة. عضّنا البرد فأغلقنا النوافذ، وارتدى من اصطكّت أسنانه سترته. تزايدتْ شآبيب المطر فاضطرّ السائق إلى إبطاء السرعة... ثمّ حلّ ظلام دامس وكأنّنا في جوف الليل. كان هدير السيول المتصبّبة من عروق الجبال كزئير الأسود، ويثير في النفس رهبة من قوى الطبيعة. ازدادت المنحنيات الخطرة، وتلوّى الإسفلت كثعبان. لمع البرق ولاحتْ لنا قامة آدميّة واقفة في الخطّ، صاح واحد منّا مذعوراً: «ذاك هو الشيبة». شغّل السائق النور العالي، وظهرتْ لنا ملامح الشيبة ولحيته الحمراء الكثّة، كان ينظر إلينا بحدقتين برّاقتين دَغِلتين، لاشعورياً داس السائق على الكوابح، وفي الثانية التالية تحرّك الشيبة من مسارنا وانتقل إلى المسار المعاكس. رفع السائق قدمه عن دوّاسة الكوابح مطلقاً زفرة خلاص. ومن وراء المنحنى جاءت سيّارة نقل مُحمّلة مسرعة، وكأنّها تهوي من قمّة الجبل، تفادى سائقها دهس الشيبة، وانعطف إلى مسارنا، ولم يسعفه الوقت لفعل شيء حين رآنا أمامه وجهاً لوجه. تلقينا صدمة شديدة، وسبحنا في الهواء كالطيور.

(٥)

رأيتُني في غرفة مُغلقة، الإنارة فيها خافتة، وعلى الأرض والجدران والسقف مئات من السحالي والثعابين والحرابي تحاصرني وتُهدّد بأذيّتي، ثمّ دوّى صوت بوق، فيبستْ تلك الزواحف وماتت، وخرجتُ من ثقب مفتاح الباب، ونجوت من الضيق الذي كنت فيه.

مشيت زحفاً على بطني كالدودة، ثمّ أتى رجل وأقامني، حاولت أن أراه، فلم أجد أين ذهب رأسي، سألته: «ما هذا المكان الذي كنتُ فيه؟». قال: «هذا البيت الذي بين عينيك.. أرأيتَ كيف يبدو داخلك!». قلتُ: «مروّع.. مرعب جدّاً.. أهذا أنا؟؟». قال: «لو لم تخرج للقائي لذاق الناس منك شرّاً وضرّاً».

مشيتُ إلى منزل فتحيّة. كانت قد أجّرتْ بيتها القديم، واستأجرتْ شقة واسعة من أربع غرف تقع على بعد شارعين من شاطئ البحر.

تعرّفتُ إلى عائلتها، أمّها وأشقّائها وشقيقاتها، وكانوا جميعاً ودودين معي، ويُعاملونني معاملة خاصّة، وتبوح عيونهم بأنّهم يعرفون أنّني عزيز على قلب أختهم الكبرى التي هي بمنزلة والد لهم.

أتت فتحيّة تحمل إفطاراً لي ولها. قالت باسمة: «اطمئنّ، ألغينا اليوم وجبة الفول واستبدلناها بالفاصوليا لأجلك». ناولتني ورقة فيها رقم زوجتي الجديد، ولكنّها نصحتني أن لا أتّصل بها. سألتها عن السبب، فقالت إنّ زوجتي حوريّة قد تزوّجتْ. تابعتْ أنّ أبنائي يعيشون في بيت جدّتهم، والدة أمّهم. سألتها إن كانت تعرف الشخص الذي تزوّجته؟ تـردّدتْ، فألححتُ عليها، قالت متنهّدة: «غالب زبيطة». ضحكتُ وقلت إنّه تزوّجها لينتقم منّي.. أنا أخذتُ منه صحيفته وهو أخذ منّي زوجتي هاها! ضحكتْ فتحيّة وانفرجتْ أساريرها. كانت حقاً حريصة عليّ، وتُحاذر من وقع هذه الأنباء على مشاعري، ولكنّها لا تعلم أنّه لم يكن في داخلي أيّ حزن على الإطلاق لسماع هذه الأخبار.

قلت وبين كفيّ نسخة من جريدة «الشعب»: «ماذا حدث للأستاذ رياض الكيّاد؟». قالت: «الأستاذ صار وزيراً». قلت: «لقد تدنّى مستواها». قامت وأغلقتْ باب الغرفة، ثمّ جلستْ وراحتْ تُطعمني بيدها، وقد لاحظت انعدام شهيّتي: «حلّ محلّ الأستاذ في رئاسة التحرير قاسم الطحان.. أتتذكّره؟». قلت: «نعم.. هذا كان رئيساً لتحرير جريدة صفراء اسمها المصابيح». قالت وهي تواصل حشو فمي بالطعام: «لم تسألني عن جريدة النضال». قلت: «لم يعد يعنيني أمرها». تابعتْ: «عموماً صاحبك المحافظ جابر شنيني دبّر مؤامرة صغيرة للسفيه شريف وقلعه من رئاسة التحرير وعيّن بدلاً منه واحداً من أقاربه». زفرتُ بقوّة: «قديماً سُمّيتْ هذه البلاد بالعربيّة السعيدة، وأمّا اليوم فإنّها تستحق مسمّى بلاد المؤامرات الصغيرة».

أشرتُ بيدي بأنّني قد اكتفيتُ من الأكل. قالت: «أنت أيضاً تعرّضت لمؤامرة صغيرة». قلت مُقطّباً وجهي: «كيف؟». أحضرتْ منديلاً ورقيّاً لأمسح به فمي: «تذكر قضيّة الشيخ بكري حسن؟».

قلت: «نعم». انحسرتْ تنّورتها فوق ركبتيها فأعادتْ جرّها لتغطّي ساقيها: «الأمر يطول شرحه، ولكنّني سأعطيك تشبيهاً.. إذا افترضنا أنّ في هذا الجدار بقعة عفن خضراء.. ماذا نفعل؟». أجبتها: «نُزيلها». قالت وهي تعصر يديها: «هذا هو التصرّف الصحيح، ولكنّ الذي جرى هو وضع صورة ملاكم شهير للتغطية على البقعة العفنة.. ومع أنّ حواف هذا العفن ظاهرة، ولكنّ العين لن تلاحظه، وستركّز انتباهها على الصورة الملوّنة الزاهية للفتى المشهور.. خدعة بصريّة صغيرة تكفي لإخفاء عيب مؤذٍ وخطير على صحّة سكّان البيت». قلت: «تقصدين أنّني أنا المغفّل الذي وضعوا صورته للتغطية على جريمة الشيخ؟». قالت: «نعم، لقد استخدموك لهذا الغرض.. بعد نشر ذلك الحوار مع خاتمة أصبحتْ قضيّتك الشغل الشاغل للرأي العام، وتوارتْ قضيّة الشيخ للخلفيّة ونُسيَت تماماً.. نشرت جريدة «السنابل الحمراء» المزيد من الفضائح عنك، وزعموا أنّ السلطة أشاعت وفاتك في حادثة سير للتستّر عليك، وإنقاذاً لك من غضبة الشعب! بل وشطح بهم الخيال التآمري وقالوا إنّك تعيش مختبئاً عن الأنظار في مدينة كولن بألمانيا». ضحكتُ وعلقتُ ساخراً: «الكلاب يعرفون أنّني أحبّ الجعة التي تُصنع في هذه المدينة!». قالت وأنفاسها تتسارع: «لقد كانوا يعرفون عنك كلّ شيء.. أفهمت؟». قلت: «مثل ماذا؟». قالت وهي تخفض بصرها: «كانوا يعرفون عن علاقتك مع منى ومع تاتيانا». لم أشعر بأيّ اضطراب، أحسستُ كأنّني شخص محايد لا علاقة له بتلك الفضائح: «هل ما زلتِ تحتفظين بتلك الجرائد؟». ردّت والانفعال يعوقها عن الكلام بسلاسة: «نعم، لكنّي لن أسمح لك بالاطّلاع عليها.. عليك أن ترمي الماضي وراء ظهرك». قلت لها مُبتسماً: «لن تُصدّقي لو قلت لكِ إنّني لا أحمل ضغينة

في نفسي على أحد من الناس، ولا حتى لخاتمة أو غالب زبيطة».
استراحت ملامح فتحيّة المتوتّرة وكفّتْ عيناها عن الجحوظ.

قلتُ: «بالمناسبة.. هل كانت خاتمة حبلى فعلاً أم كانت خدعة أيضاً؟». عقدتْ ذراعيها وبللتْ شفتها العليا: «خاتمة وضعتْ ولداً سمّته مقبل». لا أُنكرُ أنّني انزعجتُ من تسمية ولد جاء من صلبي باسم عائلة الشيخ. سألتها: «وأين هي الآن؟». قالت: «تزوّجها المحامي والشاعر حمّود شنطة.. والولد يعيش معهما». قلت: «لقد أحسستُ أنّه يُحبّها.. لقد أحبّها بصمت ولم يجرؤ على مصارحتي.. بلى، إنّه فعل لكنّني لم أنتبه.. أتذكّر أنّني نشرتُ له قصيدة غزليّة.. هه الآن فهمتُ من هي الحبيبة التي كان يقصدها!». قالت وهي تتفرّس في تقاسيم وجهي: «لقد زرتها قبل شهرين لأطمئنّ على مقبل.. الولد نسخة منك.. حتى شكل الحواجب مُتطابق».

شكرتها على اهتمامها بولدي. كنت أُدركُ أنّ أيّ شكر لا يمكن أن يفيها حقها. قالت وهي تُسند رأسها إلى كفّها: «لا أعرف ما الذي تفكّر أن تفعله في المستقبل ولكنّني أودّ تحذيرك من غالب زبيطة». رفعتُ منكبيّ لامبالياً: «حتى لو كان سمّاً ناقعاً فأنا لم أعد أحفل به أو أخشاه.. الخوف الذي في داخلي مات». قالت وقد انحنت في جلستها وقرّبتْ رأسها: «الحقيقة التي سأذكرها لك هي معلومة سرّية جداً.. سأفشيها لك ولو تعرّضتْ حياتي للخطر». قلت: «أعدك بشرفي ولو أنّهم لم يُبقوا لي منه أيّ شيء أنّني لن أتكلم». قالت وهي تجففُ عرقها الغزير لاهثة الأنفاس: «غالب زبيطة جاسوس مدسوس من النظام على المعارضة». قلت وأنا مستغرب من أنّني لم أعد أتعرّق رغم حرارة الطقس: «هذا يُفسّرُ دوره في المؤامرة التي حاكوها لي». قالت وهي تخفض صوتها: «هو اليوم من قادة المعارضة الكبار.. انتبه إذا تسرّب هذا السرّ من لسانك فقد يقتلونك». كانت ترتجف،

أمسكتُ يديها وقبّلتُ براجم أصابعها العشر: «لن يعلم أحد أبداً بهذا الأمر، كوني على ثقة».

سألتها عن أخبار الناشطة الحقوقيّة سلام مهدي، قالت إنّها ما تزال تُكافح لمنع زواج الصغيرات، ومنظمتها توسّعتْ وصارت لها فروع في كافة المحافظات. سألتها عن القضيّة المرفوعة عليها بتهمة نشر أخبار كاذبة، قالت إنّ المحكمة أصدرتْ حكماً بسجنها ثلاثة أشهر مع وقف التنفيذ، ودفع تعويض قدره مليون ريال. قالت إنّها شخصيّة عنيدة جداً، ولم تترك موضوع الطفلة محسنة أبداً، وآخر تطوّر في القضيّة هو اكتشاف جثّة الطفلة الحقيقيّة، وانكشاف خدعة البنت البديلة. قلت معلقاً: «جهابذة الشرّ مهما أتقنوا خدعهم فإنّ الحقيقة لا بدّ من أن تُشرق في موعدها المحدّد».

قالت: «هل تريد أن تعرف آخر أخبار الطفلة جليلة؟». قلت واللهفة بادية في عينيّ: «نعم». قالت: «جليلة ترقد الآن بين الحياة والموت في مستشفى قريب من هنا». قلت متفجّعاً من هذا الخبر: «يا الله.. ما الذي حدث لها؟». قالت وهي تتّجه نحو الباب: «انتظر.. سأُريك شيئاً». عادتْ وهي تحمل عدداً من جريدة «الشعب»، قالت: «بعد زمن يسير من حادث السير الذي تعرّضتَ له، أصدرتْ محكمة الجروم حكماً قضائيّاً غير قابل للاستئناف، مرّ وقتها بدون ضجّة، ولم ينتبه له أحد، نظراً لانشغال الناس بقضيّتك».

أخذتُ الجريدة ورحتُ أقرأ نصّ الحكم: «... القضيّة المرفوعة من وليّ أمر القاصر جليلة محمّد هادي زهير التي يتّهم فيها المدّعى عليه الشيخ بكري حسن مقبل باغتصاب المذكورة أعلاه، فقد ثبت لدى عدالة المحكمة ووفقاً للتقرير الطبّي المعتمد من النيابة، أنّ القاصر جليلة محمّد هادي زهير هي التي اغتصبتْ الشيخ بكري حسن مقبل بالإكراه، وذكر التقرير الطبّي المُصدّق عليه من أربعة

أطبّاء أنّ عضو الشيخ بكري حسن مقبل عليه آثار جروح وسحجات تسبّبتْ بنزف دمويّ، ما يدلّ على قسوة الاغتصاب، وعليه حكمتْ محكمة الجروم بما يلي: واحد، ثبوت براءة الشيخ بكري حسن من التهم الموجّهة إليه. اثنان، إدانة القاصر جليلة محمّد هادي زهير بتهمة الاغتصاب، ونأمر بحبسها ثلاث سنوات في إصلاحيّة الأحداث مع النفاذ، وهذا الحكم غير قابل للنقض أو الاستئناف».

لم أشعر بنفسي إلّا وأنا أمزّق الجريدة، حتى إنّني استغربتُ من ردّة فعلي هذه. تأسّفتُ لفتحية، وقلت لها إنّه ما كان ينبغي أن أتصرّف على هذا النحو مع غرض لا يخصّني. أخذتْ فتحيّة مزق الجريدة ورمتها من النافذة: «خيراً فعلتَ، ما كانت تستحقّ أن أُحافظ عليها». سألتها وأنا ما زلتُ مصدوماً من بشاعة الحكم: «وهل سُجنتْ جليلة؟». قالت واضعة يدها على خدّها: «نعم.. وقبل أسبوع أُفرِج عنها، ومن جديد طلبها الشيخ للزواج، فرفضته، فأرسل صباح أمس عدداً من الرعاع للاعتداء عليها.. وجدوها تلعب في الزقاق أمام بيتها، ومعها بنت عمّتها فائزة وعمرها ستّ سنوات، وبنت عمّها حليمة وعمرها أربع سنوات، ثلاثتهنّ تعرّضن للضرب بالهراوات وبآلات حادّة، ونُقلن للمستشفى وهنّ في حالة حرجة».

اختلجتْ تفّاحة آدم في عنقي وكأنّها تنوي السقوط: «أتمنّى لو نجد فرصة لزيارتهنّ.. لن أرتاح حتى أعتذر لجليلة وأطلب منها أن تُسامحني». قالت فتحيّة وهي ترفع أطباق الإفطار: «سأذهب أولاً إلى البنك لأقدّم طلب إجازة، ثمّ أرجع إليك وأكون تحت تصرّفك».

أخذتُ حمّاماً من رقبتي فما تحت، ثمّ حلقتُ عانتي. وجدتُ أنّ فتحيّة قد وفّرتْ لي ملابس داخليّة وبنطلوناً وقميصاً كلّها جديدة.

قدّمتْ لي والدتها مشروباً بارداً، كانت سيّدة تشعّ ملامحها بالطيبة والوقار.

اتّصلتْ بي على هاتف أمّها وسألتني إن كنت لا أزال أدخّن، فأجبتها بأنّني لا أدري.. الموضوع لم يخطر ببالي! فقالت إنّها تركتْ لي علبة سجائر وقدّاحة فوق جهاز التلفزيون. اكتشفتُ أنّها ما تزال تذكر نوع سجائري المفضّل. قلّبتُ العلبة في يدي وشممتُ رائحتها، فأدركتُ أنّني قد أقلعتُ عن التدخين.

شممتُ رائحة بنّ قويّة تعبق في البيت كلّه، كانت أم فتحيّة تحمّص البنّ وتطحنه.

عـادتْ فتحيّة ومعـها عقـد فـلّ طوّقـتـنـي بـه. انطلقنا إلى المستشفى، وفي الطريق أرتني صورة طفلي مقبل المحفوظة في هاتفها النـقّـال. كان شبيهاً بابني هايل. علّقتْ فتحيّة ضاحكة: «لو كانت جيناتك الوراثيّة تُباع في السوبرماركت لتهافتتْ عليها النساء!». سألتها وأنا لا أكفّ عن التحديق في صورة ولدي: «كيف يُعامله حمّود؟». قالت: «صاحبك حمّود يحبّه جدّاً ويُغدق عليه من كلّ شيء.. يبدو أنّه عقيم.. فهو لم ينجب من زوجته الأولى ولا من خاتمة زوجته الثانية.. إذا أردت يمكننا أن نسافر إلى بلدة الجروم لترى ابنك.. هذا من حقك». ضايقتني الفكرة: «لا..لا». أعدتُ إليها هاتفها النقّال. قالت: «لا بدّ من أن أُخبرك أنّ حمّود عقد زواجه على خاتمة وهي في شهرها الثامن، وبعد وضعها استخرج شهادة ميلاد ناسباً الولد إليه». قلت متنهّداً: «خيراً فعل.. إنّه يستحقّه أكثر منّي».

وصلنا إلى المستشفى ودخلنا القسم الذي ترقد فيه الطفلات الثلاث. كان هناك صمت قاتل وحزن ودموع. رأينا جليلة التي صار عمرها الآن أحد عشر عاماً مُسجّاة على السرير وقد فارقت الحياة.. غمرني حزن عظيم، لأنّني لم أحظ بفرصة لطلب الغفران منها. كان في

داخلي ألم لا يوصف، لكنّ عيناي كانتا عاجزتين عن إدرار الدموع. نزعتُ عقد الفلّ من صدري ورفعتُ رأسها وطوّقت جيدها به.

كان وجهها ملائكيّاً ويشعّ طهرانيّة وتضحية.. شعرتُ بأنّها وليّة من أولياء الله، قدّمتْ روحها فداءً للتكفير عن ذنوبنا جميعاً.. بسنوات عمرها القليلة عانتْ على الأرض ما لا طاقة لبشر بتحمّله.. تُغتصب ثمّ تُحاكم وتُسجن، وبعد خروجها من السجن تُضرب حتى الموت.

جاء طبيب وسألنا إن كنّا من أهلها، قال إنّ جدّها ذهب إلى قريته ليقترض مالاً ثمناً للكفن وأُجرة المُغسّلة وتكاليف الجنازة.

مررنا على الطفلتين فائزة وحليمة. قال الطبيب إنّهما تتحسّنان، وستُشفيان. فجأة أخرج علبة بلاستيكيّة شفافة، واقترح علينا أن نتبرّع للفقراء. كانت في العلبة أوراق نقديّة من مختلف الفئات. سألته غاضباً: «لماذا لم تعطِ جدّ جليلة مالاً من هذه العلبة؟». تلجلج الطبيب في الإجابة، وقال إنّ فتحها يتطلّب حضور لجنة تتسلّم العلب وتجردها... الخ. لا أعرف لماذا بدت ملامحه شبيهة بملامح مرافقي الشيخ، أولئك الذين اعتدوا على جليلة وأوسعوها ضرباً وطعناً بخناجرهم، فأخذتُ العلبة من يد الطبيب ورميتها من النافذة إلى الشارع العام. وجّه لي الطبيب سبّة عامّية معناها أنّه ينكح أمّي، ثمّ جرى إلى النافذة ورأى السيّارات المسرعة تدوس علبته، ويتطاير المال في الهواء فتحطّم فؤاده. وبالطبع خرجنا من المستشفى مطرودين.

في طريقنا إلى البيت، مرّتْ فتحيّة على مكتبة واشترتْ لي الجرائد، قالت: «أعرف أنّك مدمن كبير على قراءة الصحف». أخذتها منها ووضعتها على الرفّ الأمامي للسيّارة دون تقليب وقلت: «لقد فقدتُ اهتمامي بقراءة الصحف». قالت: «واو.. لقد تغيّرتَ كليّاً يا

مُطهَّر.. افهم من كلامك أنّك ستترك العمل في الصحافة؟». أجبتُ دون تردّد: «نعم». قالت: «وهل فكّرت في مهنة أخرى؟». زممتُ شفتيّ مفكّراً: «لا أدري ماذا سأعمل.. أُحسّ أنّني إنسان جديد لم يكتشف بعد ميوله في الحياة».

سألتها على استحياء: «أتعرفين أيّة أخبار عن منى؟». قالت: «لا.. لا أحد يعرف عنها شيئاً.. حتى صاحبك حمّود شنطة قال لي مرّة إنّ مصيرها يلفّه الغموض». قلت: «قد يكون الشيخ باعها لمليونير عربي أخذها معه إلى بلاده». سألتني: «هل كنت تعلم أنّها عبدة؟». قلت متنهّداً: «نعم». قالت: «صحيح أنّك كنت مغرماً بها؟». أطرقتُ أستذكر أيّامي معها: «أنا مغرم بها.. هذا كلام أقلّ من الحقيقة بكثير.. هي روح معذّبة وأنا روح هائمة.. روحان اجتمعتا لتقاسم الألم.. لقد انجذبتْ إليّ وانجذبتُ إليها كانجذاب الأجرام السماويّة بعضها لبعض، كالأرض والقمر». صرختْ فتحيّة واهتزّتْ في مقعدها: «أرجوك لا تُثر غيرتي منها».

شغّلتُ مذياع السيّارة، وسمعتُ صوت الوزير رياض الكيّاد يتكلّم في برنامج إذاعي، فجأة خاطبته وكأنّه واقف أمامي: «لماذا تآمرت عليّ؟». أجابني فوراً: «يا ابني نحن تآمرنا عليك لنجعلك سعيداً.. هاهاهاهاهاهاهاهاها». ظلّ يضحك حتى أصمّ أذنيّ، فاضطرّني لأن أُغلق المذياع.

طلبتُ منها أن نذهب إلى البحر ونسبح. لم تمانع واتّصلتْ بوالدتها تعتذر عن عدم حضورنا على الغداء. قضينا وقتاً رائعاً، وتمتّعنا بالسباحة في مياه دافئة لها ملمس حريري على البدن وتأثير بلسم شافٍ للروح.

دنا منّا طائر أبو منجل المقدّس بلونيه الأبيض والأسود، سرت قشعريرة في بدني حين أدركتُ أنّه أبي.. من فرط لهفتي إليه ناقشته

في المقالات المكتوبة عنه في كتاب «إنسان صنعه النضال»، أصغى إليّ بهدوء، فلمّا أوفيت، نقرني بين عينيّ ثمّ طار..

ولولتُ وأخبرتُ فتحيّة بالآتي: «ولدي مقبل سيقتل أخاه هابل.. وآثامي ستلاحق نسلي حتى الجيل الرابع».

راقبتُ فتحيّة غروب الشمس والأسى يمزّقها ثمّ غطستْ في الماء.. أمّا أنا فطفوت كغيمة تملأ الكفّ ثمّ حملتني الرياح إلى الأعالي.

كفّت السيّارة «البيجو» عن التدحرج، واستلقتْ على ظهرها في قعر الوادي. السيل الذي هو كرحم الأم أخذ يهدهدنا بحنان مرتّلاً تهويدة رقيقة لننعم بسبات هادئ.

أرض المؤامرات السعيدة — هل يصحّ تصنيف البشر بين محض أخيار ومحض أشرار؟ هل الخير قيمة مطلقة؟ والشرّ مثلبٌ يبدأ بزلّةٍ لا رجوع عنها؟ وهل نتعاطف مع من يغرق، نشعر برغبته الدفينة في الانعتاق من هذا الفخ، أم نتشفّى به؟

هو صحافي. باع روحه للشيطان. أمعن في التورّط مع السلطة في لعبة مُحكمة النسج يمتهنها أقوياء البلاد. في تلك الدوّامة التي سلّم نفسه لرياحها، قام مطهّر بكلّ ما طُلب منه من أعمالٍ دنيئة، لكنّ ملمحاً إنسانياً طيّباً ظلّ لصيقاً به، يظهر في الخفاء، عند مفاصل الحكايات، في ثنايا المشهد القبيح، حين ينام جميع الحرّاس، وتنقشع قليلاً متطلّبات الوظيفة وأوامر الكبار...

في بلادٍ لا تزال العبودية تُمارَس في دهاليزها، ثمّة «خادمات» يتنقّلن بين بيوت الأسياد، فتيات يشاهدن الرسوم المتحرّكة ويشرّعن أجسادهنّ وأعوامهنّ الطريّة لغزاة الليل والطفولة، وثمّة كرماء يُشهّر بهم ومجرمون يكافأون...

في هذه البلاد صحافيٌّ فاسد، إنسانٌ فوّت عليه إنسانيّته، روّضها ببعض الدموع كلما ظهرت، ليموت كمداً بها...

«تظهر في كتابات الأهدل آثار الصدمات النفسية الكبرى على الشخصيّات التي تشبه في مجملها بطل أرسطو التراجيدي.»

— د. عبد السلام الربيدي



وجدي الأهدل — كاتب يمني، مواليد الحديدة عام 1973. مدير تحرير مجلة الثقافة. في رصيده الكثير من الإنتاجات المسرحية والمجموعات القصصية والروايات، ولا سيما «فيلسوف الكرنتينا» التي أُدرجَت في القائمة الطويلة لجائزة البوكر في دورتها الأولى عام 2007.

«أرض المؤامرات السعيدة» هي روايته الأولى عن دار نوفل.

ISBN 978-614-469-069-7
9 786144 690697

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان